

السيرة العلوية

جمع واعداد

احمد مطهر الشامي

قال الله تعالى:



المقدمة

الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الهداة الميامين الطاهرين..

وبعد:

إن معرفة سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم واتباعهم يعتبر جزء مهم من التركيبة العقائدية والنفسية والسلوكية والمعرفية لأمتنا الإسلامية باعتبارهم قراء القرآن والامتداد الطبيعي للنبي صلوات الله عليه وآله، والضمانة للأمة لتبقى محافظة على القيم والمفاهيم الإسلامية بعيدا عن التشويه والتحريف والضلال.

إنها سيرة قراء القرآن التي تنعكس في الواقع كنموذج يقتدى به في كافة مجالات الحياة، وتؤسس لعلاقة وثيقة وصحيحة مع المبادئ الإسلامية فتسير بالفرد وبالأمّة نحو الكمال المنشود ولما كان الحديث هو عن رأس العترة الطاهرة بعد رسول الله محمد وهو الإمام علي عليه السلام فبال تأكيد أن الدروس والعبر ستكون متعددة لأن الإمام علي عليه السلام كان مدرسة في مواقفه وفي سلوكه وفي منطقته، ولا غرابة أن تكون هذه الشخصية مادة دسمة لكل الباحثين في جميع المجالات فالفلاسفة والحكماء يجدون أنفسهم أمام حكيم وعالم من نوع آخر وعلماء السياسة والاقتصاد والاجتماع والنفوس يقفون كتلاميذ مذهولين أمام هذا العملاق، أما في ميدان الفروسية والبطولة فقد قيل: إن شجاعته وفروسيته أنست الناس فرسان العرب السابقين. وهكذا لا تجد فناً من الفنون الإنسانية إلا وله نصيب وافر فيه.

وفي هذا الكتاب الذي يعتبر محاولة متواضعة لتوضيح جزء من تاريخ الإمام علي عليه السلام نسير فيه مع القارئ في رحلة مع سيرة وصي النبي وباب مدينة علمه، من المهدي حتى لقي الله مخضباً بدمه مردداً قولته الشهيرة (فرت ورب الكعبة) في محراب العبادة بمسجد الكوفة، شهيداً وشاهداً على الأمة بعد سنواتٍ من التضحية والجهاد.

وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نعطي هذا الإمام جزء من حقه علينا كمسلمين

ضحى وناضل من أجلنا وأن نقرب من مقامه العالي وإن كنا نقر بعجزنا عن إيفاء حقه فليس لأحد في هذه الأمة بعد النبي الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من مقام يشبه مقام رجل اقترنت حياته كلها بحياة ذلك النبي العظيم، منذ ولادته وعلى امتداد أيام نشأته، ومنذ فجر الإسلام ومبعث النبي وعلى امتداد أيام دعوته وفصول جهاده وحتى لحظاته الأخيرة بل حتى توديع جثمانه الطاهر، بل بعد ذلك إلى يوم الدين إذ به قد امتد نسل النبي من ابنته الوحيدة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ، فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

وفي هذا الكتاب الذي هو عبارة عن قراءة تجميعية ، أي أننا جمعنا مادة الكتاب من المقدمة وحتى النهاية من دروس السيد عبد الملك الحوثي حفظه الله، ودروس السيد حسين بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه، وكذلك كتاب (الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ سيرة وتاريخ)، وكذلك كتاب (الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قرين القرآن) للأستاذ يحيى أبو عواضة، وكتاب (انحدار الجمل من السقيفة) وكتاب (خاتم الأنبياء) للسيد المجاهد محمد بدر الدين ومن بعض المقالات وقمنا بالربط بين المقاطع التي تم تجميعها لتظهر في نسق واحد متكامل وكذلك تعديل كلما يتناقض مع الثقافة القرآنية.

الباب الأول
علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم



الفصل الأول

قبل البعثة

نسبه الشريف:

هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب [شيبه] بن هاشم [عمرو] بن عبد مناف [المغيرة] بن قصي [زيد] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر [قيس، لقب بالنضر لنصاره وجهه] بن كنانة بن خزيمة بن مدركة [عامر، أو عمرو] بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وينتهي إلى إسماعيل الذبيح بن خليل الرحمن (١).

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأخوه، أخاه رسول الله صلى الله عليه وآله مرتين؛ فإن رسول الله أخى بين المهاجرين، ثم أخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعلي في كل واحدة منها: ((أنت أخي في الدنيا والآخرة)) (٢).

وهو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وخليفته في أمته، وجامع فضائله وشيئله، ووارث علمه وحكمه، وختنه على ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.

هاجر الهجرتين، ماشياً حافياً، وشهد بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان والمشاهد كلها، إلا معركة تبوك، فقد خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة، كان ذلك أحد مواضع قوله له: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) (٣) وأبلى في جميع المعارك بلاءً عظيماً، وكان اللواء في أكثر المواضع بيده.

حظي الإمام علي عليه السلام بتربية رسول الله - صلوات الله عليه وآله - منذ طفولته

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٢٣. وانظر أيضاً: (المصابيح لابي العباس الحسني، طبقات بن سعد، سيرة بن هشام).

(٢) أسد الغابة ٤/ ٩١، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١٣/ ١٠٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٦٤.

فرباه الرسول أكرم تربية وأحسن تربية، وعلمه مكارم الأخلاق، وهو مهياً بفطرته وبما أعطاه الله من المؤهلات ليكون نعم المتلقي ونعم المتربي، واستمر الرسول - صلوات الله عليه وآله - في تربيته والاهتمام به والعناية به في مرحلة الطفولة.

وفيما تبقى من تاريخ الإسلام من مرحلة حياته مع رسول الله حتى وفاة رسول الله على ارتباط وثيق وخصوصية لا مثيل لها فيما يتعلق بالآخرين، فكان أخص الناس برسول الله ملازمة وعناية وتربية وإعداداً وتعليماً.

وكانت كل جهود رسول الله - صلوات الله عليه وآله - في تربية تلميذه هذا الرجل العظيم وفي إعداده وفي بنائه تتجلى وتتضح في الواقع العملي فتبرز في علي عليه السلام مكارم الأخلاق والصفات العظيمة الإيمانية ويتبين له في الواقع العملي الدور المميز في كل مجالات الإيمان.

إن أتينا إلى الجهاد في سبيل الله فهو كان رجل التحديات والمواقف الصعبة والرجل الفدائي في الإسلام والثابت حين ينهزم الآخرون، والصامد أمام الزلازل والأهوال والأحداث الجسام كانت تتجلى فيه تربية الرسول وأثر تربية الرسول - صلوات الله عليه وآله - بوضوح، لم تذهب جهود النبي سدئ في اهتمامه به وتربيته له فقدم الشهادة على عظمة الإسلام وعظمة القرآن وعظمة النبي - صلوات الله عليه وآله - فيما تجلى في واقعه في أخلاقه في مواقفه في حكمته في علمه قدم الشهادة على عظمة الإسلام والقرآن وعظمة الرسول - صلوات الله عليه وآله -.

في مقام الإحسان كان رجل الإحسان والرحمة والعطف، كما كان في مقامات التصدي للمجرمين والكافرين رجل البأس والشجاعة والإقدام والثبات الذي لا يماثل لدى غيره من المؤمنين.

كان أيضاً في مقام الرحمة والرأفة العطوف الحنون الرحيم الذي يؤثر على نفسه ويقدم طعامه حين لا يكون له حتى غيره للمسكين واليتيم والأسير وكان هو في كل

مسارات الإيمان ومقامات الإيمان الرجل الصادق مع الله سبحانه وتعالى، الرجل الوفي مع مبادئه ودينه الذي لم يتغير ولم يتبدل ولم يساوم في دينه، وحين آل إليه أمر الأمة أرسى دعائم الدولة الإسلامية على أسس من العدل، وواجه مشاكل كبيرة؛ لأنه أراد إقامة الدولة الإسلامية على دعائم من العدل الخالصة وواجه مشاكل كبيرة ومعاناة كبيرة، فثبت ولم يساوم لأنه لم يكن همه فقط السلطة والوصول إلى المنصب فلم تساو نعله إلا أن يقيم حقاً أو يبطل باطلا كما قال هو عليه السلام (١).

الشجرة المباركة:

كان الإمام علي رفيع النسب وكان امتدادا لدوائر الاصطفاء وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير فإن المال لا يكون نسباً وقد كان أبوه أبوطالب كبير البطحاء وشريفها وكان مع ذلك قليل المال فليس علو النسب والشرف ملازمان لكثرة المال أو قوة البطش أو عظمة السلطان إنما شرف النسب أن يكون من أصول يتزهون عن النقائص ويخشون العار من أن يقعوا في رذيلة يستنكرها العرف ويستهجنها ذووا الفطر السليمة ويجسدون القيم والمبادئ النبيلة وأن يكون لهم شرف نفسي.

مكانة أسرته قبل البعثة:

كان للبيت الذي ينتمي إليه الإمام علي مكانة عالية بين قبائل العرب لما عرفوا به من الخلال والسجايا الكريمة، فقد كانوا يمثلون الامتداد لخط الهداية المرتبط بدائرة آل إبراهيم وكان يبرز منهم في كل مرحلة من مراحل التاريخ أولوا بقية ينهون عن الفساد، كان لهم الدور الأكبر في الإبقاء على ما تبقى من القيم الإنسانية والإيمانية التي كانت تتعرض لهزات مستمرة من الأفكار والرموز الجاهلية والضلال والكفر المستشري، فكل فترة وإن خلت من الرسل لكنها لا تخلوا من الهداة إلى الله.

(١) من محاضرة السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٤ هـ.

يقول الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام: (وفيما بين أزمنة الرسل فترات في مثلها يتحير الضلال، ويدفن الحق، ويغمض البرهان بتظاهر الجبارين على أولياء الله، وهنالك يندب الشيطان ولاته، ويبث دعائه، وينصب حباته، ويدخل على الناس الشبهة، ويضطرهم إلى الحيرة، وليست فترة من الهدى، ولكنها فترة من الرسل، وفيها كتبه وحججه، وبقايا من أهل العلم، يُحْيُونَ العلم وَيُخَيِّونَ به، قد وجهوا الله من رغبتهم، وامتحنهم الله بأهل دهرهم، قد تمسكوا بنور كتابه، وعرفوا مواقع حججه في كل بدعة حدثت، أو شبهة نزلت، فهم من الناس في أذى وجهه، ومن الله في كلاءة وحفظ، فهم الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، ولن تخلو أمة من مغتال لها مفرق لجماعتها، وآخر داعٍ إلى هداها وصلاحتها) (١).

وسنذكر بعض الفقرات عن ما قيل عن آباء الإمام علي والذين لا نستبعد أن يكون بعضها منهم من أعلام الهداية:

من مآثر آبائه وأجداده عليهم السلام:

عن سعيد بن خثيم عن أخيه معمر قال: قال لي زيد بن علي عليه السلام: يا معمر، كنت أماري هشام بن عبد الملك وأكابره الكلام، فدخلت ((عليه)) يوماً فذكر بني أمية، فقال: هم أشد قريش أركاناً، وأرفع قريش مكاناً، وأعظم قريش سلطاناً، وأكثر قريش أعواناً، كانوا رؤوس قريش في جاهليتها وملوكهم في إسلامها.

فقلت: علي من تفتخر؟ علي هاشم أول من أطعم الطعام، وضرب الهام، وخضعت له قريش بإرغام، أم علي عبدالمطلب سيد مضر جميعاً، وإن قلت معد كلها صدقت، كان إذا ركب مشواً، وإذا أنتعل احتفوا، وإذا تكلم سكتوا، وكان يطعم الوحوش في رؤوس الجبال، والطيور والسباع والأنس في السهل وحافر زمزم، وساقى الحجيج، وربيع العمرتين، أم علي بنيه أشرف رجال بها، أم علي سيد ولد آدم رسول الله، الذي

(١) مجموع رسائل الإمام الهادي عليه السلام.

جعل الله الجنة يمينه والنار بشماله، فمن تبعه دخل الجنة ومن تأخر عنه دخل النار، أم على أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب أخي رسول الله وابن عمه ومفرج الكرب عنه، أول من قال: لا إله إلا الله بعد رسول الله لم يبارزه فارس قط إلا قتله، وقال فيه رسول الله ما لم يقله في أحد من أصحابه ولا لأحد من أهل بيته.
قال: فاحمر وجه هشام وبهت^(١).

كان آباء الإمام علي وأجداده على ملة إبراهيم عليه السلام:

عن جعفر بن محمد قال: قال علي عليه السلام ما عبد أبي ولا جدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنفا قط.

قيل: وما كانوا يعبدون؟

قال: كانوا يصلون إلى البيت على دين إبراهيم الخليل متمسكين به.

ومن مآثر هاشم بن عبد مناف

وأما هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو، وهو أول من أطعم الطعام وهشم الثريد، وكانت مائدته منصوبة لا ترفع لكل وارد وصادر، وكان يكسو ويحمل من طريقه وينصر المظلوم ويؤوي الخائف ولذلك قيل:

يا أيها الضيف المحول رحله	هلا حلت بآل عبد مناف
هبلتك امك لو حلت بدارهم	منعوك من جوع ومن إقراف
كانت قریش بيضة فتفلقت	فالمخ خالصها لعبد مناف
عمرو والعلا هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مستتون عجاف
الرائثون وليس يوجد رائث	والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم	حتى يعود فقيرهم كالكافي
نسبت إليه الرحلتان كلاهما	سفر الشتاء ورحلة الأضياف

(١) المصاييح لأبي العباس الحسني.

جده عبد المطلب:

ذكر المؤرخون نماذج من كلام ومواقف عبد المطلب تؤكد أنه كان موحداً، يلتجئ بالله ويرفض عبادة الأصنام (ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام ووجد الله عز وجل، ووفى بالندى، وكان يستن بسنن نزل القراءان بأكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول الله بها، وهي: الوفاء بالندى، ومائة من الابل في الدية، وألا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحد عليه، والقرعة، وألا يطوف أحد بالبيت عريانا، وتكريم الضيف، وألا ينفقوا إذا حجوا إلا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذات الرايات)^(١).

عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قال رسول الله: ((يبعث عبدالمطلب يوم القيامة أمة لوحده، قال: وكان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ويقول أنا على دين إبراهيم عليه السلام)).

وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حوله حتى يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه واله يأتي وهو غلام فيجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه فيقول لهم عبدالمطلب: دعوا ابني فوالله إن له لشأنا. فكان له شأن صلى الله عليه وآله^(٢).

أبوه أبو طالب:

كان أبو طالب نعم المدافع عن رسول الله وقد كانت له مكانة اجتماعية كبيرة في مجتمع مكة الذي تحكمه ضوابط عشائرية ولم يكن دفاعه عنه للحصول على مكانة اجتماعية فقد كان رئيسا لمكة، بل أنه فقد مكانته الاجتماعية بين قريش قومه نتيجة وقفته المبدئية الإيمانية، وسطر بأشعاره تصديقه وإيمانه برسول الله:

(١) المصاييح، أمالي أبي طالب، تاريخ اليعقوبي ٩/٢.

(٢) المصاييح لأبي العباس الحسني.

ليعلم خيار الناس أن محمداً
أتى بهدى مثلما أتيا به
نبي كموسى والمسيح ابن مريم
فكل بأمر الله يهدي ويعصم

وقد اتخذ مواقف قوية في دفاعه عن رسول الله حتى التلويح بالمواجهة المسلحة مع طواغيت قريش إذا أقدموا على أي سوء تجاهه، لقد رضي لأبنائه بأن يتعرضوا لخطر القتل والاعتقال ليقبض محمداً دون أن يمسه أعداؤه بأي سوء وقد أوصى أولاده عند وفاته: (أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد)^(١).

وعندما جاءت الوفاة قال لقريش: (يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، وفيكم السيد المطاع، والمقدم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلکم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حزب، وعلى حربكم ألب، وإني أوصيكم بهذه البنية، فإن فيها مرضاة الرب وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العمل، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت الأمم قبلكم، أجيئوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيها شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيها محبة في الخاص ومكرمة في العام، وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، قد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنان، وأيم الله كأي أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها دونكم.

(١) السيرة الحلبية.

يا معشر قريش، ابن أبيكم كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيلة إلا رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي) ثم هلك^(١).

وعن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي عليه السلام، قال: لما مات أبو طالب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغسله، وكفنه ثم كشف الثوب عن وجهه، ثم مسح بيده اليمنى وجهه ثلاث مرات، ثم مسح بيده اليسرى ثلاث مرات، ثم قال: ((كفلتني يتيماً، وربيتني صغيراً، ونصرتني كبيراً، فجزاك الله عني خيراً))^(٢).

ولا شك أن للسياسة الأموية الدور الأبرز في التنقيص من قيمة أبي طالب الذي رعى وكفل النبي ودافع عنه طوال عشر سنوات من البعثة، ونجد في نفس الوقت تمجيداً لأبي سفيان الذي حارب الرسول طول حياته وأسلم بل استسلم كارها في سنوات الفتح والانتصار الإسلامي على قريش كل هذا نكاية بأمر المؤمنين علي عليه السلام.

أمه:

فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم - جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بن عبد مناف بن قصي الهاشمية القرشية، وأمها فاطمة بنت قيس بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن بغيض بن عامر بن لؤي^(٣) بنت عم أبي طالب.

وهي من سابقات المؤمنات إلى الإيمان، وكانت قبل ذلك على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، هاجرت مع رسول الله في جملة المهاجرين إلى المدينة المنورة - على ساكنها السلام - ماشية، حافية، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد خديجة زوج الرسول..

(١) الروض الأنف.

(٢) المصاييح لأبي العباس الحسني.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٧٨.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الأول: علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعاملها كما يعامل ابنُ برِّ أمِّه حتى يوم وفاتها. حيث توفيت في المدينة المنورة سنة أربع من الهجرة، وأنه صلى الله عليه وآله قال: ((اليوم ماتت أمِّي))^(١)، وشهد جنازتها فصلَّى عليها وكفنها قميصه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل ذلك يزورها ويقبل عندها في بيتها، وقال ابن عباس: ((وفيها نزلت ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ...﴾^(٢))^(٣) وإنَّها كانت من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الأم، تفضله على أبنائها وتغدقه من حنانها وكان شاكرًا لبرِّها.. وقال صلى الله عليه وآله: ((إنَّها كانت أمِّي، إنَّها كانت لتجيع صبيانا وتُشبعني، وتشعثهم وتدهنني، وكانت أمِّي))^(٤).

إخوته:

وله عليه السلام خمس إخوة كلُّهم من أمِّه فاطمة بنت أسد: ثلاثة ذكور وبتان، فالذكور: طالب، وعقيل، وجعفر، وبين كلِّ واحدٍ وآخر عشر سنين والبتان: أم هاني، وجمانة.

وليد الكعبة:

ولد الإمام علي عليه السلام بمكة المكرمة، في بيت الله الحرام، يوم الجمعة ١٣ ليلة خلت من شهر رجب لثلاثين سنة خلت من عام الفيل وهو اليوم السابع من أيلول، كما رواه السيد أبو طالب^(٥).

وهو حدث جدير كذلك أن يخلِّده الشعراء: أنشد الحميري (ت ١٧٣ هـ):

(١) تاريخ اليعقوبي ١٤/٢.

(٢) سورة الممتحنة: الآية/١٢.

(٣) تذكرة الخواص: ١٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١٤.

(٥) ذكر ذلك السيد العلامة مجد الدين المؤيدي - رحمة الله عليه - في (لوامع الأنوار).

وَلَدَتْهُ فِي حَرَمِ الْإِلَهِ وَأَمْنِهِ
بِيضَاءِ طَاهِرَةِ الثِّيَابِ كَرِيمَةِ
وَالْبَيْتِ حَيْثُ فَنَآؤُهُ وَالْمَسْجِدِ
مَا لُفَّ فِي خِرْقِ الْقَوَابِلِ مِثْلُهُ
طَابَتْ وَطَابَ وَلَيْدُهَا وَالْمَوْلِدِ
إِلَّا ابْنَ أَمْنَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ^(١)

هيئته:

نشأ عليه السلام مكين البنيان، شاباً وكهلاً، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين من عمره الشريف، كان قوي البنية، ممتلئ الجسم، كثير الشعر، ربعة في الرجال لا هو بالطويل ولا بالقصير، عريض المنكبين، له مشاش كمشاش السبع الضاري، يغلظ من أعضائه ما استغلظ من أعضاء الأسد ويدقُّ منها ما استدقُّ.. ^(٢)

وجاء في سبب تسميته بأبي تراب - كما نقله ابن إسحاق عن عمّار بن ياسر - أنّه قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، فلما نزلها رسول الله وأقام بها، رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم، فقال لي علي عليه السلام: ((يا أبا اليقظان، هل لك في أن تأتي هؤلاء القوم لتنظر كيف يعملون!)) قلت: إن شئت، فجئناهم ونظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعلي واضطجعنا في صور من النخل على التراب اللين ونمنا، والله ما أيقظنا إلا رسول الله صلى الله عليه وآله يُحرِّكنا برجله، وقد تترّبنا من تلك البقعة التي نمنا فيها، ففي ذلك اليوم قال الرسول لعلي عليه السلام: ((ما لك يا أبا تراب!)) ^(٣).

واجتمعت في علي بن أبي طالب خلاصة الصفات التي اشتهرت بها أسرته الهاشمية من النبل والشجاعة.. وممّا قاله القائلون عن شجاعته: إن ما عُرف عن بطل في العالم إلا كان مغلوباً حيناً، وغالباً حيناً، إلا علي عليه السلام فهو الغالب أبداً ودائماً، ومن هنا كان

(١) علي وليد الكعبة، الأوردبادي. وكناه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي تراب لما رآه ساجداً معفراً وجهه في التراب، فكان ذلك من أحبّ ألقابه إليه.

(٢) تذكرة الخواص : ٤. الكامل في التاريخ ١ / ٥٨٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٩٨.

العرب يفخرون بأن قريتهم قُتل بسيف عليٍّ، ويجعلون من هذا دليلاً على أن أصحابهم بارز عليّاً، وهو الموت الذي لا بدّ منه.

وعُرف أيضاً بالمروءة والعلم والذكاء، وهو أعلم أصحاب رسول الله قاطبة بلا منازع، وفي هذا أحاديث كثيرة تشهد له، ووقائع كثيرة تصدّقه.

نشأته والإعداد النبوي الخاص:

كلُّ مولود يولد تتعاقبه وراثته الأجيال، فيأخذ من الأب والأمّ ما يكون به شخصيته النفسية والروحية والأخلاقية، والإمام عليٌّ عليه السلام معروف بالنسب، فهو ابن سادة العرب، أهل المروءة والشجاعة والكرم، توارثوا السيادة وخصالها أباً عن جدٍّ، عن أبيهم إبراهيم خليل الرحمن.

وليست الصدفة هي التي لعبت دورها في مجال نشأة الإمام علي عليه السلام وتأهيله، ولا الحظ هو الذي خط طريق كمالات هذا الإنسان، بل تلمس أن هناك يداً خفية هي يد الله وعنايته بهذا الإنسان الذي سوف يكون الامتداد الطبيعي للسنة الإلهية في الهداية حينما تكمل مسيرة الرسالة المحمدية في الدنيا وتنقضي أيامها ويرحل مبلغها إلى الرفيق الأعلى.

ولأن هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاص فقد تم تأهيله في مدرسة خاصة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم فكان الإسلام مدرسة علي وكان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله معلّمه ومربيّه، فتح عينيه للنور، رأى نور رسول الله محمد، ومنذ عرف الكمال عرفه في رسول الله محمد وتعاليمه السامية.

لقد كتب الله لهذا الطفل أن ينتقل إلى بيت رسول الله محمد وهو لا يزال في الرابعة من عمره وآخاه النبي صلى الله عليه وآله وقام بتربيته وإعداده لمستقبل الأيام ^(١).

(١) قال ابن إسحاق: وحديثي عبدالله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال: وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -، ومما صنع الله له، وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة

هكذا أراد الله أن ينضمَّ علي إلى أسرة رسول الله؛ فيكون تحت رعايته، ويعيش في حجره، يتنسم عطر النبوة، ويشم عَرَفَ الرسالة، ويتبعه في كل أفعاله وأعماله وخصائصه ومميزاته، حتى أضحى ظل النبي الذي لا يفارقه، وربيبه الذي لا ينفك عنه. ورثه في جميع خصاله النفسية والدينية وهذا ما أفصح عنه علي عليه السلام نفسه في بعض كلماته حيث قال:

((وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْحَصِيصَةِ: وَصَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ يُضْمِنُنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتُمُنِي فِي فَرَاشِهِ، وَيُمْسِنِي جَسَدَهُ، وَيُشْمِنِي عَرَفَهُ^(١)، وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَلْقَمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً^(٢) فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مِنْ لَدُنْ [أَنْ] كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ^(٣) أَتْرَأْمَهُ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَمًا^(٤) مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ^(٥)، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ وَاحِدٍ يَوْمِيذٍ فِي الْأِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

شديدة، وكان أبو طالب مُعْبِئًا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم: ((يَا عَبَّاسُ قَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَرْمَةِ، فَأَنْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ))؛ فقال العباس: نعم، فانطلقا فقالا له: إِنَّا نريد أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لهُمَا: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا، فَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيًّا، فَاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ عليه السلام وَأَمَّنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَلَمْ يَفَارِقْ عَلِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى أَنْزَلَهُ الْقَبْرَ، وَكَانَ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا بِهِ) من سيرة الدكتور المحطوري.

(١) عَرَفَهُ - بالفتح - : رآه الذكيرة.

(٢) الْخَطْلَةُ: واحدة الْخَطَلُ - كالفرحة واحدة الْفَرَح - والخطل: الخطأ ينشأ عن عدم الروية.

(٣) الْفَصِيل: ولد الناقة.

(٤) عَلَمًا: أي فضلًا ظاهرًا.

(٥) حِرَاءُ بَكْسَرِ الْحَاءِ: جبل على القرب من مكة.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَثَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّثَّةُ؟ فَقَالَ: ((هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ))^(١).
ويقول عليه السلام معبراً عن مكانته من رسول الله - صلوات الله عليه وآله: - ((وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضُّوءِ مِنَ الضُّوءِ وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ))^(٢).

(١) نهج البلاغة، ج ١ ص ٣٠١.

(٢) نهج البلاغة ٢/٤٠٨.

الفصل الثاني

بعد البعثة في مكة

علي أول من أسلم

الإمام علي عليه السلام في مساره الإياني كان متميزاً منذ بدايته فهو كان السابق إلى الله سبحانه وتعالى في الإيمان قبل غيره من أبناء الأمة أول المؤمنين إيماناً وإسلاماً^(١) بعث رسول الله - صلوات الله عليه وآله - يوم الاثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في حديث عشر فضائل لعلي عليه السلام قال: وكان أول من أسلم من الناس بعد خديجة^(٢).

وقد عبر الإمام عن ذلك - كما سبق - بقوله: ((وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا تَالِثُهُمَا)).

ومما تميز به الإمام علي عليه السلام وتفرد به أنه لم يسبق إيمانه أي شرك ولا انحراف في عبادة غير الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك مما يقال عن الإمام علي عليه السلام تكريمًا وتشريفًا واعترافًا بذلك أن الناس يقولون - كرم الله وجهه -؛ لأنه لم يسجد للأصنام، البعض على مدى أربعين عامًا كان يعبد الأصنام وكان منغمسًا في أحوال الجاهلية بكل رذائلها وكل مفاسدها، لكن الإمام عليًا عليه السلام كان واقعه مختلفًا تمامًا، كان واقعه متميزًا بسابقته

(١) السيوطي في اللآلئ المصنوعة. وأبو نعيم في الحلية ١/ ٦٥، وترجمة الإمام علي من تاريخ ابن عساکر ١/ ١٣٢، والطبراني في الكبير. وللمزيد الرجوع إلى كتاب (الغارة السريعة ص ٩٩).

(٢) وذكر السيد العالم بدر الدين الحوثي - رحمة الله عليه - في كتابه (إرشاد الطالب) حديث ابن عباس بأن عليًا عليه السلام أول من أسلم من الرجال، وقال في حاشية الكتاب: أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٣٣١، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٣/ ١٣٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

وقال الدكتور المحطوري في كتاب السيرة: قال ابن إسحاق: ثم كان أولَ ذكْرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم - رضوان الله وسلامه عليه - وهو يومئذ ابن عشر سنين، روى عفيف الكندي - وكان تاجرًا - أنه جاء إلى مكة فشاهد رجلًا وغلًا وامرأةً يصلون، فسأل العباس؛ فأخبره بأن الرجل محمدٌ، والغلّام عليٌّ، والمرأة خديجةٌ، وقال: هذا دينٌ جاء به ابن أخي، وما علي وجه الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

في الإيمان.. إيمان سبقه الطهر والاستقامة والبعد عن دنس العبادة لغير الله سبحانه وتعالى.

وانذر عشيرتك الأقربين

تلاحقت الأحداث بعد أن أعلن رسول الله - صلوات الله عليه وآله - عن الدعوة إلى الإسلام، وانتشر خبرها، وتحدثت الناس بها، وتهياً للجو النفسي والفكري العام لتوجيهها بصورة عامّة، ومخاطبة الناس بها، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يخاطب عشيرته، ويدعوهم إلى الإسلام؛ ليكون له قاعدة شعبية، وحماية اجتماعية، وليلقي الحجة عليهم بالتي هي أحسن، فأنزل الله تعالى الآية المباركة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) (١) والتي افتتحت بداية مرحلة جديدة من التحوّل في حياة الدعوة إلى الإسلام وأسلوب المخاطبة، ووضع طواغيت قريش في الموضوع الضعيف أمام الرأي العام المكّي خاصّة والعربي بصورة عامّة.

لقد أصبحت قريش هدفاً لدعوة الإسلام، ومساحة للتحرّك وتوجيه الضربات للشرك والكفر والظلم والطغيان. فاختر النبي صلى الله عليه وآله أسلوباً اجتماعياً وجوّاً عاطفياً ونفسياً مؤثراً، ودعا بني هاشم وهم سادة قريش، فاجتمعوا في دار الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو من وجوههم وزعمائهم، وكان فيهم أبو لهب وأبو طالب، وهما من أعمام النبي صلى الله عليه وآله، وأمر عليّ بن أبي طالب أن يصنع طعاماً (٢) للحاضرين ففعل، لقد اجتمع الحاضرون، وتناولوا الطعام، عشرة بعد عشرة ثم انعقد الاجتماع وتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وشرح لهم مبادئ الإسلام، وأهداف الدعوة، وما أمره الله به من إنذارهم، وتكريمهم إن استجابوا وأسلموا، إلا أن أبا لهب عمه تصدّى له، وواجهه بقسوة ورفض شديدين، وقام محرّضاً بني هاشم عليه صلى الله عليه وآله، وداعياً إلى تطويقه

(١) سورة الشعراء: الآية/ ٢١٤.

(٢) اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٢٧.

والأخذ على يده قائلاً: ((خذوا على يدي صاحبكم قبل أن يأخذ على يدي غيركم، فإن منعتموه قتلتم، وإن تركتموه ذلتم))^(١).

ولم ينته خطاب أبي هب التحريضي الاستفزازي حتى تصدى له أبو طالب الذي ما برح يسند محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ويدافع عن دعوته، وهاجمه هجومًا عنيفًا، معلناً وقوفه إلى جانب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وداعياً إلى نصرته وتأييده بقوله: ((يا عورة: والله لننصرته، ثم لنعينه)).

بعد ذلك وجّه خطابه إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبنو هاشم تنصت للخطاب قائلاً: ((يا بن أخي: إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح))^(٢).

تطور الموقف، ودخل الصراع بهذا الاجتماع عنصر جديد، وكسبت الدعوة إلى الإسلام هذا الحدث الإعلامي الخطير، والموقف المؤيد من أبي طالب والتهديد باستخدام السلاح لنصرتها.

ولم تنته مكاسب هذا الاجتماع التاريخي الخطير في حياة الدعوة بهذا وحسب بل وخرج الاجتماع بمكاسب أخرى وتحول كبير، (ويومئذ أسلم جعفر بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وأسلم خلق عظيم، وظهر أمرهم وكثرت عدتهم، وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين)^(٣).

وفي هذا الاجتماع وقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن دعاهم إلى نصرته فقال: ((فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتي فيكم؟))، فلم يجب أحد منهم، فقام علي عليه السلام فقال: ((أنا يا رسول الله أؤازرك على هذا الأمر))، فقال: ((اجلس)). فأعاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القول ثانية، وصمت القوم وأجابه علي ثانية. ثم أعاد صلى الله عليه وآله وسلم القول الثالثة، فلم ينطق أحد منهم بحرف، فقام علي فقال: ((أنا أؤازرك يا رسول الله على هذا الأمر))، فقال: ((اجلس، فأنت أخى ووصيى ووارثي وخليفتي من بعدي))^(٤).

(١) اليعقوبي ٢/٢٧.

(٢) اليعقوبي ٢/٢٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) مسند أحمد، ص ١١١ و ١٩٥. وخصائص النسائي ٨٣/٦٦. وتفسير الطبري ١٩/٧٤. وشواهد التنزيل للحسكاني ١/٣٧١ و ٥١٤. ومجمع الزوائد ٩/١١٣. وعلل الشرائع ١/١٦٩.

وأما أبو بكر، فقد أخرج الطبري في تاريخه بسندٍ صحيح - حسب عرف المحدثين السنة-، أنه أسلم بعد خمسين رجلاً، وهذا نصّ روايته: (عن محمد بن سعد، قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين)^(١).

شعب أبي طالب:

اتخذت قريش شتى الأساليب لردع رسول الله صلّى الله عليه وآله وأتباعه من المسلمين، ولما أن رأت أن الإسلام يفشو ويزيد، اتفقوا بعد تفكير طويل على قتل الرسول صلّى الله عليه وآله، وأجمع ملؤها على ذلك، وبلغ أبا طالب فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
ودعوتني وزعمت أنك ناصح
وعرضت ديناً قد علمت بأنه
حتى أوسد في التراب دفينا
ولقد صدقت وكنت ثمّ أميناً
من خير أديان البرية ديناً^(٢)

ولما علمت أمّها لا تقدر على قتله، وأن أبا طالب لا يسلمه، وسمعت بهذا من قول أبي طالب، كتبت الصحيفة القاطعة الظالمة التي تنصّ على مقاطعة بني هاشم واتباعهم وحصرتهم في مكان واحد، وقطع جميع وسائل العيش عنهم، وألاً يناكحهم حتى يدفعوا إليهم محمداً صلّى الله عليه وآله فيقتلوه، والا يموتوا جوعاً وعطشاً، وختموا على الصحيفة بثمانين خاتماً.

وكان الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فشلت يده^(٣). وقيل: وقّعها أربعون من زعماء مكّة، ثمّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة وحصروهم في شعب أبي طالب ست سنين^(٤)، وذلك في أول المحرم من السنة السابعة لمبعث النبي صلّى الله عليه وآله.

(١) تاريخ اليعقوبي ٣١ / ٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٣١ / ٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

وقيل: استمر نحواً من ستين أو ثلاث^(١)، حتَّى أنفق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماله وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، ومع ذلك فلم يضع أبو طالب وولده علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخوه الحمزة شيئاً في حسابهم غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورعايته، حتَّى لا يتسلَّل أحد من المكِّيِّين ليلاً لاغتياله، وكانت هذه الخاطرة لا تفارق أبا طالب في الليل والنهار.

جاء في تاريخ ابن كثير^(٢): أن أبا طالب قد بلغ من حرصه على حياة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كان إذا أخذ الناس مضاجعهم في جوف الليل، يأمر النبي أن يضطجع على فراشه مع النيام، فإذا غلبهم النوم أمر أحد بنيه أو اخوته فأضجعهم على فراش الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر الرسول أن يضطجع على فراشهم حرصاً منه عليه، حتَّى لو قدر لأحد أن يتسلَّل إلى الشعب ليلاً لاغتياله يكون ولده فداءً لابن أخيه.

وفي رواية ابن أبي الحديد أَنَّهُ قرأ في أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب: أن أبا طالب كان إذا رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياناً يبكي، ويقول: إذا رأيته ذكرت أخي عبدالله، وكان عبدالله أخاه لأُمَّه وأبيه.

وأضاف إلى ذلك أَنَّهُ كثيراً ما كان يخاف عليه البيات ليلاً، فكان يقيمه ليلاً من فراشه ويضع ابنه علياً مكانه، ومضى على ذلك أيام الحصار وغيرها، وأحسَّ علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخطر على حياته، ولكنَّهُ كان طيِّب النفس بالموت في سبيل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال لأبيه يوماً: ((يا أبت أي مقتول))، فأوصاه بالصبر، وأنشد:

أصبرن يا بني فالصبر أحجى	كلُّ حيٍّ مصيره لشعوب ^(٣)
قدَّر الله والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
إن تصبك المنون فالنبيل تبرى	فمصيب منها وغير مصيب

(١) الكامل في التاريخ ١/ ٦٠٤.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٨٤، بتصرف.

(٣) الشعوب: المنية.

كُلُّ شَيْءٍ وَإِنْ تَمَلَّى بِعَمْرٍ أَخَذَ مِنْ مَذَاقِهَا بِنَصِيبٍ ^(١)

وهذه الأبيات تؤكد إيمانه العميق برسالة محمد صلى الله عليه وآله واستعداده لأن يضحّي بولده في سبيلها، ولقد أجابه ولده أمير المؤمنين عليه السلام بأبيات يرويهما شارح النهج عنه تحمل نفس الروح التي كان يحملها أبوه، حيث يرى أن وجوده وحياته متمان لحياة محمد صلى الله عليه وآله ورسالته، لذلك لم يكن غريباً عليه أن يضحّي ويبدل حتى نفسه ليسلم محمد صلى الله عليه وآله لرسالته، تلك التضحية التي لم يعرف التاريخ أروع وأجمل منها. يقول عليه السلام:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني أحببت أن ترى نصرتي وتعلم أنني لم أزل لك طائعا
سأسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلاً

فنزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبره أن الله سبحانه وتعالى أرسل علي صحيفة المقاطعة دودة الأرضة أكلت ما فيها من ظلم وقطيعة رحم، وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى. فقال النبي صلى الله عليه وآله لعمه أبي طالب وكل من في الشعب، حتى صاروا إلى الكعبة الشريفة، واجتمع الملاء من قريش من كل أوب فقالوا: قد أن لك أن تذكر العهد وتدع ((اللجاج في ابن أخيك))!

وقال لهم: إن ابن أخي أخبرني أن الله تعالى أرسل علي صحيفتكم الأرضة، فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم، وتركت اسم الله تعالى، فإن كان كاذباً سلّمته إليكم لتقتلوه، وعلمنا أنكم على حق، ونحن على باطل، وإن كان صادقاً علمتم أنكم ظالمون لنا، قاطعون لأرحامنا. فقالوا: قد أنصفتنا.

وقاموا سراعاً وأحضروها وإذا الأمر كما قال أبو طالب، فبهتوا ونكسوا رؤوسهم ثم قالوا: إن هذا لسحر وبهتان!!

فقويت نفس أبي طالب واشتدّ صوته، وقال: ((قد تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة)) ^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة ١٤ / ٦٤ بتصرف.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الكامل في التاريخ ١ / ٦٠٦.

مؤامرة قريش في دار الندوة:

ضاق الأمر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتراكت عليه الأحداث بعد خروجه من محنة الحصار في شعب أبي طالب، ولم تكن سوى أيام قلائل حتى توفيَّ عمُّه أبو طالب، ناصره ومعينه على أمره، أقبلت قريش على إيذائه بشتى الأساليب فقد مات أبو طالب، ولم يعد بمكَّة من تهابه قريش وترعى له حرمة.. فخرج صلوات الله عليه إلى الطائف، وهذه أول رحلة قام بها من مكَّة للدعوة إلى الإسلام، فعمد إلى ثقيف يطلب منها النصر، لكنَّها رفضت أن تسمع له، ولم تكتفِ بذلك، بل أرسلت صبيانها يرشقوه بالحجارة، حتى أدميت قدماه الشريفتان، كما أُصيب علي وزيد بن حارثة، حيث كانا معه في تلك الرحلة، وعليُّ يتلقَّى الأحجار بيديه وصدرة حتىَّ أُثخن بالجراح، فكان رسول الله يقول: ((ما كنت أرفع قدماً ولا أضعها إلا على حجر))^(١)!

وبذلك قرَّروا الرجوع إلى مكَّة؛ رجع يائساً من ثقيف وأحلافها، واستطاع الدخول إلى مكَّة بإجارة المطعم بن عدي له.

وحينما خافت قريش أن يقوى ساعده - ويصبح له أنصاراً جدداً، وحذروا من خروجه سيِّماً بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة إلى يثرب - اجتمعت في دار الندوة، وتشاوروا في أمره وأعدُّوا العدة للقضاء عليه قبل فوات الأوان، فقالوا: ليس له اليوم أحد ينصره وقد مات عمُّه!.

وكان اجتماعهم هذا عام ٦٣٣م، وبعد أن أعطى كلُّ واحد منهم رأيه، قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلة فتىً نسيباً ونعطي كلَّ فتىٍ منهم سيفاً، ثمَّ يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، كي لا يتحمَّل قتله فرد ولا قبيلة وحدها، بل يتفرق دمه في القبائل كلِّها، فلم يقدر آلُه وعشيرته على حرب قومهم جميعاً، فيصعب الثأر له.. فتفرَّقوا على ذلك بعد أن اتَّفقوا على الليلة التي يهاجمونه فيها وهو في فراشه.

فأتى جبرائيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بمكيدة قريش وأحلافها، كما تشير إلى ذلك

(١) تاريخ يعقوبي ٣٦/٢.

الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) (١).

فَوَتَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَكْرَهُمْ وَتَخَطَّيْتَهُمْ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ نَبِيِّهِ، وَبِمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَمَبِيتِ عَلِيِّ عليه السلام عَلَى فِرَاشِهِ لِيَفُوتَ عَلَيْهِمْ تَدْبِيرَهُمُ الَّذِي أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وَمَا عَلِمَ عَلِيُّ عليه السلام بِتَخَطُّيْتِ قُرَيْشٍ لِاغْتِيَالِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِكَيْ، وَرَحَبَ بِالْمَبِيتِ فِي فِرَاشِهِ فِدَاءً لَهُ وَلِلْإِسْلَامِ وَقَالَ لَهُ: ((أَوْ تَسَلَّمَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فِدَيْتَكَ بِنَفْسِي))؟ قَالَ لَهُ صلى الله عليه وآله: ((نَعَمْ، بِذَلِكَ وَعَدَنِي رَبِّي)) فَانْشَرَحَ صَدْرُهُ لِسَلَامَةِ أَخِيهِ رَسُولِ اللَّهِ.

وَشَاءَتْ الْأَقْدَارُ أَنْ يَفْتَحَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام صَفْحَةً مَشْرُقَةً مِنْ بَطُولَاتِهِ لِأَنَّهُ تَلْمِيزُ الرِّسَالَةِ الْحَقَّةَ وَرَيْبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَسَلِيلِ بَنِي هَاشِمٍ، وَتَقَدَّمَ مَطْمَئِنِّ النَّفْسِ، رَابِطَ الْجَاشِ، مَتَّشِحًا بِبَرْدِ الرِّسُولِ الْحَضْرَمِيِّ، وَنَامَ ثَابِتَ الْفُؤَادِ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِنَجَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَحِفْظِ دَمِهِ، وَلَوْلَا فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَفْسَهُ لِلرِّسُولِ لَمَا تَمَّ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ وَالصَّدْعُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَلَمَّا كَانَتِ الْعَتَمَةُ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَرِصُدُونَهُ، وَوَدَّعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَدِّيَ مَا عِنْدَهُ مِنْ وَدِيعَةٍ وَأَمَانَةٍ إِلَى أَهْلِهَا وَيَلْحَقَ بِهِ. ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمْ يَرَوْهُ (٢).

هَكَذَا، فَإِنَّ الْقَوْمَ أَحَاطُوا بِالْدارِ، وَهُمْ مِنْ فِتْيَانِ قُرَيْشِ الْأَشْدَاءِ، وَجَعَلُوا يَرِصُدُونَهُ لِيَتَأَكَّدُوا مِنْ وَجُودِهِ، فَأَرَاوُ رَجُلًا قَدْ نَامَ فِي فِرَاشِهِ التَّحْفَ بِبَرْدِهِ أَخْضَرَ.

أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فَقَدْ خَرَجَ فِي الثَّلَاثِ الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ مِنَ الدَّارِ، وَكَانَ قَدْ اخْتَبَأَ فِي مَكَانٍ مِنْهَا، وَأَنْطَلَقَ جَنُوبًا إِلَى غَارِ ثَوْرٍ، وَكَمَنَ فِيهِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَقَامَا فِيهِ ثَلَاثًا.

(١) سورة الأنفال: الآية / ٣٠.

(٢) الكامل في التاريخ ٢ / ٤.

ولمّا حان الوقت الذي عيّنوه لهجومهم على الدار، هجموا عليها، فوثب عليٌّ عليه السلام من فراشه، ففرّوا بين يديه حين عرفوه.

وسأل الرهط عليّاً: أين ابن عمك؟

قال: ((أمرتموه بالخروج فخرج عنكم))^(١)، وقيل: إنّه قال: ((لا علم لي به))^(٢).

ولم يشرك أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المنقبة أحد من أهل الإسلام، ولا اختصّ بنظير لها على حال، والإمام علي في مقدمة من نزل فيهم قوله تعالى في هذه المناسبة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^{(٣)(٤)}.

إنّ هذا الذي كان من عليٍّ عليه السلام ليلة الهجرة، في تحديده لقريش هذا التحدي السافر، وفي استخفافه بها، وقيامه بينها ثلاثة أيام يغدو ويروح، إنّ ذلك لا تنساه قريش لعليٍّ عليه السلام أبداً، ولولا أنّها وجدت في قتله يومئذٍ إثارة فتنة تمزّق وحدتها وتشتت شملها، دون أن يكون في ذلك ما يبلغ بها غايتها في محمّد صلى الله عليه وآله، لقتلته وشفّت ما بصدرها منه، ولكنها تركته وانتظرت الأيام لتسوّي حسابها معه.

أول فدائي في الإسلام

من مواقف الإمام علي عليه السلام الشهيرة والتميزة والمبكرة في صدر الإسلام مبيته في فراش الرسول صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة في حادثة تستدعي أن يكون من يقوم بتلك المهمة حاضرًا لبذل حياته وتقديم حياته في سبيل الله فتحرك الرسول صلى الله عليه وآله للهجرة لا بد أن يكون له غطاء حتى لا ينتبه المشركون لحركة الرسول وخروجه من بيته فكان أن أوكل الرسول صلى الله عليه وآله هذه المهمة الفدائية الاستشهادية إلى الإمام علي عليه السلام الذي كان على

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٩، الكامل في التاريخ ٢/١٠٣.

(٢) الطبقات الكبرى ١/١١٠.

(٣) سورة البقرة: الآية/٢٠٧، وذكرها الرازي في تفسيره أنّها نزلت بشأن مبيت عليٍّ عليه السلام على فراش رسول الله.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٩، أسد الغابة ٤/١١٣.

استعداد تام وبدون أي تردد لبذل روحه لبذل حياته في سبيل الحفاظ على حياة الرسول من أجل الله ومن أجل الإسلام ومن أجل نبي الإسلام وكان أن قال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((أَوْ تَسَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟)) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((نعم))، قال: فاذهب راشداً مهدياً، وبقي على فراشه ونزلت الآية القرآنية المباركة التي كان أول مصاديقها هو الإمام علي عليه السلام ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٠٧) ^(١)، فكان علي عليه السلام هو النموذج الأول والمصدق الأول لهذه الآية المباركة وهذا يدل على حقيقة الإيمان وسمو أخلاق الإسلام عندما يكون الإنسان بهذا المستوى من الحضور للبذل والعطاء والتضحية لا حدود لعطائه لا حدود لمواقفه يستعد أن يجود بنفسه أن يبذل نفسه أن يعرض نفسه لأي خطر مهما كان، فكان هذا من بداية المواقف التي سجلها التاريخ لهذا الجندي العظيم بطل الإسلام ورجله، ورجل المسؤولية ورجل المواقف الكبيرة والمهمات الصعبة ^(٢).

وأخرج الحاكم النيسابوري: أَنَّ الإمام زين العابدين كان يقول: ((إِنَّ أَوْلَ مَنْ شَرَى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ عَلِيٌّ عِنْدَ مَبِيتِهِ عَلِيٌّ فَرَّاشَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطَأَ الْحَصَى رَسُولَ إِلَهٍ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ وَبَاتَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا وَبَتُّ أُرَاعِيهِمْ وَلَمْ يَتَهَمُونِي وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجَرِ فَنَجَّاهُ ذُو الطُّوْلِ الْإِلَهِيِّ مِنَ الْمَكْرِ مَوْقِيٌّ فِي حِفْظِ الْإِلَهِيِّ فِي سِتْرِ وَقَدْ وَطَنْتُ نَفْسِي - عَلَى الْقَتْلِ

(١) سورة البقرة: الآية/ ٢٠٧.

(٢) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ٥/٣.

علي والركب الفاطمي إلى المدينة:

بقي علي عليه السلام في مكّة ثلاث ليال، أدّى خلالها - بطل التأريخ - ما عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ردّ الأمانات والودائع التي كان يحتفظ بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأهل مكّة، ليلحق بعدها برسول الله.

في هذه الأثناء كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وصل إلى يثرب، بعد أن قطعوا الجبال والأودية على مقربة من المدينة - على ساكنها السلام -

وكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي عليه السلام مع أبي واقد الليثي، يحثّه بالمسير إليه بعد أداء ما أوصاه به، ولما وصله الكتاب تهيأ للخروج، وردّ كلّ وديعة إلى أهلها، وأمر من كان قد بقي من ضعفاء المؤمنين أن يتسلّلوا إلى ذي طول ليلاً..

وخرج هو بالركب الفاطمي: فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وفاطمة بنت حمزة، وأم أيمن، وأبو واقد الذي أخذ يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً، فقال له علي: ((ارفق بالنسوة يا أبا واقد)) ثم جعل يسوق بهنّ ويقول:

ليس إلا الله فارفع ظنّك يكفيك ربُّ الخلق ما أهمّك

وكان يسير ليلاً، ويكمن نهاراً وكان ماشياً غير راكب حتى تفتّرت قدماه (١)، ولقد ظلّ في رحلته تلك ليالٍ أربع عشرة (٢)، يحوطهم من الأعداء ويكلّوهم من الخصماء، فلمّا قارب ضجّان أدركه الطلب وكانوا ثمانية فرسان ملثمين، معهم مولى لحرب بن أمية يدعى: جناح؛ فقال علي عليه السلام لأيمن وأبي واقد: ((أنيخا الإبل واعقلاها)) وتقدّم هو فأنزل النسوة واستقبل القوم بسيفه، فقالوا: أظننت يا غدر أنّك ناج بالنسوة؟! ارجع بهن لا أبا لك!! فقال: ((فإن لم أفعل؟!))، فقالوا: لترجعنّ راغماً!!

(١) تاريخ اليعقوبي ٤١/٢، أسد الغابة ٤/١٠٥، الكامل في التاريخ ٧/٢.

(٢) أنظر: عليّ سلطة الحقّ: ٢٣.

ودنوا من المطايا، فحال علي عليه السلام بينهم، وأهوى له جناح بسيفه، فراغ عن ضربته،
وضرب جناحاً فقتله، ثمَّ شدَّ على أصحابه، وهو على قدميه وأنشد:

خلُّوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبد إلا الواحد

ففتفرَّق القوم عنه، وقالوا: إحبس نفسك عنَّا يا بن أبي طالب، ثمَّ قال لهم: ((إني
منطلق إلى أخي وابن عمِّي رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن سرَّه أن أفري لحمه وأريق دمه
فليدن مني)) ثمَّ أقبل على أيمن وأبي واقد، وقال لهما: أطلقا مطاياكما، وسار الركب
حتَّى نزل ضجنان، فلبث بها يوماً وليلة حتَّى لحق به نفر من المستضعفين، فلمَّا بزغ
الفجر سار بهم حتَّى قدموا قباء ^(١).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد مكث فيها هذه المدة، ولم يغادرها بعد إلى المدينة.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: ((ادعوا لي علياً))، قيل: لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي صلى الله عليه وآله،
واعتنقه وبكى، رحمةً لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه وأمرهما على قدميه، فلم
يشتكهما بعد حتَّى قُتل ^(٢).

(١) سيرة الأئمة ١/ ١٧١ - ١٧٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٢.

الفصل الثالث : بعد الهجرة النبوية

في شهر ربيع الأول^(١)، وصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة لياشر في وقت مبكر توطيد الأوضاع الجديدة فيها، حيث سيعيش المهاجرون الجدد مع سكان المدينة الأصليين، فكانت أولى الخطوات التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأعمى هي بناء المسجد، الذي عمل فيه مع سائر أصحابه، في جوٍّ مفعم بالمحبة والإيمان، وهناك أثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه ثناءً عاماً في لحمتهم وحماسهم، وفي أجواء الحماس تلك كان عمّار بن ياسر يسابق غيره في العمل والبناء، الأمر الذي شدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكشف عن سرِّ خطير، ينتظر عمّاراً وينتظره عمّار، ذلك قوله في تلك الأثناء: ((ويهاً ابن سُمَيَّة تقتلك الفئة الباغية))^(٢)، هذه الكلمة التي ستكون لها دلالتها الكبيرة في مستقبل غير بعيد.

١. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

من الأعمال التي قام بها رسول الله بعد بناء المسجد الشريف: المؤاخاة ولقد سبق منه صلى الله عليه وآله وسلم أن آخى بين المهاجرين بعضهم ببعض قبل الهجرة، وآخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة^(٣) وفي كلِّ مرّة كان يقول لعليّ عليه السلام: ((أنت أخي في الدنيا والآخرة)). وفي نصٍّ آخر: ((أنت أخي وأنا أخوك))^(٤).

(١) يوم الاثنين لثمان ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول، وقيل: لليلتين منه، وقيل: آخر يوم الخميس، لاثنتي عشرة ليلة خلت منه. انظر الطبقات الكبرى ١/ ١٨٠، تاريخ يعقوبي ٢/ ٤١.

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ١٨٥.

(٣) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥/ ٦٣٦ ح ٣٧٢٠، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت، مصابيح السنة للبيهقي ٤/ ١٧٣ ح ٤٧٦٩، تحقيق د. يوسف عبدالرحمن المرعشي، ومحمد سليم سهار، وجمال حمدي الذهبي، دار المعرفة ط ١ - ١٤٠٧ هـ، المستدرک علی الصحیحین ٣/ ١٤.

(٤) مسند أحمد ١/ ٢٣٠، دار الفكر بيروت. سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٩، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد - دار الحيل - بيروت ١٩٨٥ م، الطبقات الكبرى ٣/ ١٦، تهذيب الكمال ١٣/ ٣٠١، السيرة النبوية لابن حبان: ١٤٩، تصحيح الحافظ سيد عزيز بك وجماعة من العلماء - مؤسسة الكتب الثقافية ط ١ - ١٤٠٧ هـ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمري بهامش الإصابة ٣/ ٣٥، ط ١ - ١٣٢٨ هـ دار إحياء التراث العربي، أسد الغابة ٢/ ٢٢١، ٤/ ١٦، ٢٩، عيون الأثر، لابن سيد الناس:

جاء في سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام: آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين المهاجرين والأنصار فقال: ((تآخوا في الله أخوين أخوين)) ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: ((هذا أخي)) فكان رسول الله صلى الله عليه وآله سيّد المرسلين وإمام المتّقين ورسول ربّ العالمين الذي ليس له خضير ولا نظير من العباد، وعليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه أخوين^(١).

وعن عباد بن عبد الله، عن عليّ عليه السلام قال: ((أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب))^(٢).

وعندما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين عليّ عليه السلام، آخى بين حمزة وزيد ابن حارثة، وبين أبي بكر وخارجة الخزرجي، وبين عمر وعتبان بن مالك الخزرجي، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وبين طلحة وكعب بن مالك، وبين أبي ذرّ والمنذر بن عمر الخزرجي وهكذا.

هذا أول ما عمله رسول الله بالمدينة المنورة ((المؤاخاة الخاصة)) غير الأخوة العامة التي جعلها الإسلام بين المسلمين إخوة في الله عزّ وجلّ. وتهدف قصة المؤاخاة إلى تمتين عُرى الروابط بين المسلمين وتأكيدهما، وجعلها رابطة أعلى من رابطة النسب، وهي رابطة تقوم على أساس الإيمان بالله عزّ وجلّ وباليوم الآخر ووحدة الهدف والغاية.

٢٦٤ - ٢٦٥، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٣٥، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨ هـ. ، جامع الأصول لابن الأثير الجزري ٤٦٨/٩ ح ٦٤٧٥، دار إحياء التراث العربي ط ٤ - ١٤٠٤ هـ، تحقيق محمّد حامد الفقي، مجمع الزوائد للهيثمي ١١٢/٩، دار الكتاب العربي، ط ٣ - ١٤٠٢ هـ، الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي : ١٢٢، تحقيق عبدالوهاب اللطيف - مكتبة القاهرة، ط ٢ - ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، كنز العمّال ٣٢٨٧٩/١١، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٥٠٧/٢، ترجمة (عليّ بن أبي طالب).

(١) سيرة ابن هشام ١٠٩/٢، الروض الأنف، السهيلي ٢٤٤/٤، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ - بيروت، ط ١ - ١٩٩٢ م، عيون الأثر ١ : ٢٦٥.

(٢) رواه النسائي في خصائصه ١٨/٣، والمتّقي في كنز العمّال ٣٩٤/٩، كما رواه السيوطي في تفسير قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (سورة الأنفال: الآية/٧٢).

قبل ذلك كان الصراع داخل المدينة متوتراً بين الأوس والخزرج، ولكن الإسلام جعلهم موحدين أنصاراً، وبمؤاخاتهم مع المهاجرين تحققت للإسلام أرضية جديدة، كان مقدراً لها أن تغير تاريخ المدينة أولاً، وجزيرة العرب فيما بعد ثانياً هنا عند المؤاخاة رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يد علي عليه السلام، قائلاً: ((عليّ أخي)).

وتستمر صلوات المودة والإخاء بين محمد صلوات الله عليه وآله وعلي عليه السلام من أجل إنجاح الرسالة الإسلامية، وتوفير قدر أكبر من الضمان لمستقبلها.

٢. زواج علي من فاطمة الزهراء عليها السلام

في حدود السنة الثانية من الهجرة اجتمع علي عليه السلام مع الزهراء عليها السلام في بيت الزوجية، وكان جماعة من المهاجرين قد خطبوها قبله، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ردّهم ردّاً جميلاً، فكان ينتظر بها القضاء. كما صرّحت بذلك عدّة روايات تأتي على بعضها:

أخرج ابن سعد: أنّ أبا بكر خطب فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ((يا أبا بكر انتظر بها القضاء)) فذكر ذلك أبو بكر لعمر، فقال له عمر: ردّك يا أبا بكر. ثمّ إنّ أبا بكر قال لعمر: أخطب فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فخطبها؛ فقال له مثل ما قال لأبي بكر: ((أنتظر بها القضاء))، أو قال: ((إنّها صغيرة))^(١).

بل إن الآتي من خبر زواجها عليها السلام يؤكد النصّ الأول ((أنتظر بها القضاء)) إذ لم يكن زواجها إلاّ بأمر من الله تعالى.

عن أنس بن مالك، قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فغشيه الوحي، فلمّا سري عنه قال: ((يا أنس، أتدري ما جاءني به جبرئيل من عند صاحب العرش؟)) قال: الله ورسوله أعلم، قال: ((إن الله أمرني أن أزوّج فاطمة من علي))^(٢).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٦، وانظر: أسد الغابة ٧/٢٣٩، وفاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد: ٢٠.

(٢) كتر العمال ١١/٦٠٦ ح ٣٣٩٢٩، الرياض النضرة ٣/١٤٥.

وعن عبدالله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((إن الله أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ، ففعلت))^(١).

وعن أبي أيوب الانصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: ((أمرت بتزويجك من السماء))^(٢).

أمّا عليّ بن أبي طالب فهو أخو رسول الله وربيّه الذي ما قام ركن الإسلام إلا بسيفه، وهو وزير الرسول ووصيّه، فكّر مراراً بفاطمة، لكنّه خالي اليدين ليس لديه ما يقدّمه مهراً لاجتماعهما الميمون، في هذه الأثناء تذكّر صلته بالرسول صلى الله عليه وآله فتقدّم، ولنقرأ قصته في سطور التاريخ:

قال نفر من الأنصار لعليّ عليه السلام: عندك فاطمة. فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فسلمّ عليه، فقال: ((ما حاجة ابن أبي طالب))؟

[أجاب]: ((ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله)).

قال: ((مرحباً وأهلاً)). لم يزدّه عليهما.

فخرج عليّ على أولئك الرهط من الأنصار ينظرونه. قالوا: ما وراءك؟ قال: ((ما أدري غير أنّه قال لي: مرحباً وأهلاً)).

قالوا: يكفيك من رسول الله إحداهما، أعطاك الأهل أعطاك المرحب^(٣).

ثمّ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عرض ((خطبة عليّ)) على فاطمة، فقال لها: ((إنّ عليّاً يذكرك))^(٤)، فسكتت، فخرج يقول: ((سكوتها إقرارها)).

وحين وجد رسول الله صلى الله عليه وآله القبول من كلا الطرفين، سأل عليّاً عليه السلام: ((هل عندك شيء؟)) وكان لا يملك غير سيفه ودرعه وناضحه.

(١) المعجم الكبير، للطبراني ٤٠٧/٢٢ ح ١٠٢٠، مجمع الزوائد ٩.

(٢) ابن شاهين، فضائل فاطمة عليها السلام: ٥٠ ص ٣٧.

(٣) الطبقات الكبرى ١٧/٨، وانظر أسد الغابة ٧/٢٣٩ - ٢٤٠.

(٤) الطبقات الكبرى ١٦/٨.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ((فأما سيفك فلا غنى بك عنه، تجاهد في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك، وتحمل عليه حلك في سفرك، ولكني رضيتُ منه بالدرع))^(١).

فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده، فاجتمع له منها أربعمئة درهم، فكان هذا مهر فاطمة.

ولما جاء عليُّ بن أبي طالب عليه السلام بالدراهم، وضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمره أن يجعل ثلثي الدراهم في الطيب، والثلث الآخر في المتاع، ففعل^(٢).

وجهزت فاطمة^(٣) بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وما كان لها غير سرير من جريد النخل، وسادة من آدم حشوها ليف، ومنخل ومنشفة، ورحى للطحن، وجرتان وقميص، وخمار لغطاء الرأس، وثوب له زغب، وعباءة قصيرة بيضاء، وجلد كبش..

أمّا عليٌّ عليه السلام قد رشَّ أرض الدار برمّل ناعم، ونصب في البيت خشبة من الحائط إلى الحائط، لتعليق الثياب، إذ لا خزانة ولا صندوق لثياب العروس.

عن عليِّ بن أبي طالب عليه السلام قال: ((لقد تزوّجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها))^(٤).

خطبة النبي صلى الله عليه وآله في التزويج:

عن أنس بن مالك أن النبيَّ، قال له: ((انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير، وبعدهم من الأنصار))، قال فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وآله: ((الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسultanه، المرهوب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسائته، الذي خلق الخلق بقدرته، ونيرهم بأحكامه،

(١) عليُّ بن أبي طالب سلطة الحق: ٢٧.

(٢) إتحاف السائل: ٤٤.

(٣) أنظر جهاز فاطمة في: الطبقات الكبرى ١٩/٨، فاطمة الزهراء والفاطميون: ٢١، فضائل الإمام علي: ٢٤ - ٢٥.

(٤) الطبقات الكبرى ١٨/٨.

وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبية محمد صلى الله عليه وآله. إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً، أوشج بها الأرحام، وألزمها الأنام. فقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾^(١)، وأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾^(٢) ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوجه فاطمة من علي، وأشهدكم أنني زوجت فاطمة من علي على أربعائة مثقال فضة، إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع الله شملها وبارك لها وأطاب نسلها، وجعل نسلها مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)).

قال أنس: وكان علي عليه السلام غائباً في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وآله قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر، فوضع بين أيدينا، فقال: ((انتهبوا))، فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي، فتبسم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: ((يا علي! إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة، وإني زوجتكما على أربعائة مثقال فضة))، فقال علي عليه السلام: ((رضيت يا رسول الله!! ثم إن علياً عليه السلام خر ساجداً شكراً لله، فلما رفع رأسه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب)).

قال أنس: والله لقد أخرج منها الكثير الطيب^(٣).

وتم عقد القران بين علي وفاطمة، وكتب لها أن يعيشا حياة مفعمة بالإيمان، وكان اجتماعهما يحمل الكثير من المعاني التي ظهر نورها في حياتهما، وامتد بعدهما في الآفاق من نسلهما المبارك، سادة بني الإنسان!

ورحب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بهذا الزواج الميمون وباركه وأسبغ عليه أنبل المشاعر

(١) سورة الفرقان: الآية/ ٥٤.

(٢) سورة الرعد: الآية/ ٣٩.

(٣) أنظر خطبة رسول الله في المصادر التالية: فاطمة الزهراء والفاطميون: ٢١ - ٢٢، الإمام علي بن أبي

وأقام حفلة الزفاف، ومشى خلفها، معه حمزة وعقيل وجعفر، ونساء النبي يرتجزن فرحات مستبشرات، وهنّ يمشين قدّامها..

وأدخلت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت علي عليه السلام يتجلّلها الحياء، متعشّرة بأذيالها وقال أبوها صلوات الله وسلامه عليه: ((يا عليّ لا تحدث شيئاً حتّى تلقاني)). فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بإناء فتوضّأ فيه، ثمّ أفرغه على علي عليه السلام ثمّ قال: ((اللهمّ بارك فيها، وبارك عليها، وبارك لهما في نسلهما))^(١).

وقد روي أنّ فاطمة عليها السلام بكت تلك الليلة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله مهديّاً من روعها: ((لقد زوّجتك سيّداً في الدنيا والآخرة، وإنّه أوّل أصحابي إسلاماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً))^(٢).

قالت أسماء بنت عميس: فرمقت رسول الله صلى الله عليه وآله، حين اجتمعوا يدعو لهما، لا يشركهما في دعائه أحد، ودعا له كما دعا لها^(٣).

في هذا الحديث الشريف: ((لقد زوّجتك سيّداً في الدنيا والآخرة...)) جملة من المعاني السامية والدرجات العالية المنطوية على دلالات كبيرة، فهو:

(١) سيّد في الدنيا والآخرة.

(٢) أوّل الناس إسلاماً.

(٣) أكثرهم علماً.

(٤) أعظمهم حلماً.

هذه الخصال التي اجتمعت في هذا الرجل ((عليّ)) الذي تنتظره غداً مسؤوليات كبيرة في حفظ الدين وصيانة الأُمَّة.

(١) الطبقات الكبرى ١٧/٨، أسد الغابة ٧/٢٤٠.

(٢) أسد الغابة ٧/٢٣٩، تهذيب الكمال ١٣/٣٠٢، سير أعلام النبلاء (سير الخلفاء الراشدين): ٢٣٠ باختلاف.

(٣) تهذيب الكمال ١٣/٣٠٢، عن الهيثمي في مجمع الزوائد باب إسلامه ٩ رحمته الله ١٠١.

٣. غزواته مع الرسول

كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله بداية عهد جديد للدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد دخل الإسلام القسم الأعظم من أهل المدينة المنورة، فيما أصرَّ بعضهم بادئ الأمر على الشرك.

أمَّا قريش فقد بدأت بالتحرك السريع لإرهاب المسلمين.. وكان من الطبيعي أن لا يقف النبي صلى الله عليه وآله من تلك التحدييات والتحرُّشات موقف المتخاذل الضعيف، فجعل يرسل السرايا لمطاردتهم، أو لقطع الطريق على تجارتهم.. وظلَّ على تلك الحال حتَّى أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله بقتال المشركين، وليكون لهم بالمرصاد، فكانت حروب وغزوات كثيرة، بلغت في حياة النبي صلى الله عليه وآله نحو ثمانين غزوة، وليس في كلِّها كانت تقع حروب أو مناوشات، لأنَّ الكثير منها كان عبارة عن سرايا استطلاعية يبعثها النبي صلى الله عليه وآله في أطراف المدينة أو بعض النواحي التي يحتمل تسلُّل الأعداء منها. وكان عدد الغزوات التي خرج فيها الرسول بنفسه ٢٧ غزوة، وقع القتال في ٩ منها، وهذه الغزوات هي التي اشتهرت في تاريخ الإسلام دون سواها.

وفي كلِّ الغزوات التي خرج فيها النبي صلى الله عليه وآله كان عليٌّ عليه السلام معه، لم يفارقه في واحدة، إلا في غزوة تبوك، لأمر أَراده الله ورسوله، سيأتي تفصيله في محلِّه، وفي كلِّ تلك الغزوات كان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله بيد عليٍّ عليه السلام (١).

فلنقف بإيجاز على بعض مواقف وأدوار الإمام عليٍّ عليه السلام في الغزوات والحروب.

❖ غزوة بدر الكبرى:

وهي أول معركة يحارب فيها الإمام عليٌّ عليه السلام كما أنَّ معركة بدر هي أول حروب نبيِّ الله صلى الله عليه وآله.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢٨.

وبدر اسم بئر كانت لرجل يدعى بدرأ، وتقع في مكان بين مكة والمدينة وتبعد عنها ١٦٠ كم على التقريب^(١).

وقيل: بين بدر والمدينة ثمانية بُرْد وميلان^(٢).

وكانت هذه الواقعة في رمضان المبارك

وجاء في سبب هذه الغزوة: أن أبا سفيان قدم من الشام بقافلة قريش، تحمل أموالاً طائلة، فخرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليقطع الطريق عليها رداً على تحدياتها وتحرشاتها التي كانت تقوم بها بين الفينة والأخرى، وشاءت الأقدار أن يعرف أبو سفيان بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغير طريق القافلة ونجاها، وأرسل إلى قريش يعلمها بالأمر..

فاستبشرت لقتال محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخرجت بجيش قوامه ألف رجل - على أصح التقادير - وأخرجوا معهم القيان والدفوف، وبلغت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبارها واستعدادها للقتال، فاستشار أصحابه في الأمر وأحب أن يكونوا على بصيرة من أمرهم.

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ^(٣).

(وقد ذكر بعض كتاب السير بعض ما قاله عمر والذي يعبر عن حالة الهزيمة النفسية في داخله ولا غرابة أن يعرض رسول الله عنه وعن أبي بكر فالوضع لا يحتمل مشورات مهزومة نفسياً) ثم قال عمر: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك، فأتب لذلك أهبتة، وأعد لذلك عدته.

ووقف بعده المقداد فقال: يا رسول الله امض لأمر الله فنحن معك، ولا نقول لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٤)،

(١) فضائل الإمام علي، لمحمد جواد مغنية: ٩٦.

(٢) طبقات ابن سعد ٩/٢.

(٣) ابن هشام ٢/٢٦٦، والنهية ٣/٣١٩، والمغازي للواقدي ١/١٩، والطبقات ٢/١٤، ومسلم

٣/١٤٠٣ رقم ١٧٧٩، وتاريخ الطبري ٢/٣٤.

(٤) سورة المائدة: الآية/ ٢٤.

بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لسرنا معك، فدعا له رسول الله صلوات الله عليه.

ومضى نبي الله صلوات الله عليه في طريقه إلى بدر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وقيل بأقل من ذلك، منهم من المهاجرين واحد وثمانون، ومن الأنصار مائتان واثنان وثلاثون رجلاً ^(٢)، وكان معهم فرسان وسبعون بعيراً، فبعث علياً عليه السلام وسعد بن أبي وقاص وبسبب بن عمرو يترصدون له الأخبار، وقال: ((أرجو أن تجدوا الخبر عند القليب التي تلي هذا الضريب)) فاندفعوا باتجاهه فوجدوا علي القليب روايا قريش، فأسروا ثلاثة منهم، واستطاع الفرار رجل اسمه عجير فأخبر قريشاً، بخبر محمد صلوات الله عليه وأصحابه..

وقبل أن يقع القتال أنزل الله على نبيه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ^(٣) فوقف رسول الله صلوات الله عليه بين الطرفين يخاطب قريشاً بأسلوب يلهب المشاعر: ((ارجعوا، فلأن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه أئتم)).

فأصاب كلامه مكاناً في نفس عتبة بن ربيعة، أحد قادتهم وأبطالهم، فقال لقريش: ما ردّ هذا قوم قط وأفلحوا، يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، إن محمداً له آل وذمة وهو ابن عمكم فخلّوه والعرب، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. لكن أبا جهل أبى إلا القتال، ووصف موقف عتبة بالجبن والخوف، وظلّ يلاحق عتبة حتى استنزفه.

ودفع رسول الله صلوات الله عليه رايته إلى علي، وكان عمره يوم ذاك ٢٥ سنة، وبرز عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، ودعوا المسلمين إلى البراز، فبرز إليهم ثلاثة من فتيان الأنصار: وهم من بني عفراء: معاذ ومعوذ وعوف ^(٤)، فلما وقفوا في

(١) برك الغماد: مدينة الحبيشة، تبعد عن مكّة مسيرة خمس ليالٍ من وراء الساحل.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٥، الكامل في التاريخ ٢/١٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية/٦١.

(٤) ذكر ابن الأثير في تاريخه ٢/١٢٥ عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبدالله بن رواحة، كلّهم من الأنصار.

مقابل عتبة وأخيه وولده، ترفعوا عن مقاتلتهم، وطلب عتبة من النبي صلى الله عليه وآله أن يرسل له الأكفأ من قريش.

فالتفت نبيُّ الله صلى الله عليه وآله إلى بني عمومته، وأحبَّ أن تكون الشوكة ببني عمِّه وقومه وقال: ((قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة بن عبدالمطلب، قم يا علي بن أبي طالب))، فقاموا مسرعين، يهرولون بين الجيشين على أقدامهم، بقلوب ثابتة، عامرة بالإيمان، ووقفوا أمام القوم، فقال عتبة: تكلّموا نعرفكم، وكان عليهم البيض، فقال حمزة: أنا حمزة بن عبدالمطلب: أسد الله، وأسد رسوله، فقال عتبة: كُفَّ كريمة، وأنا أسد الحلفاء، من هذا معك؟ قال: علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، قال: كُفَّان كريمة^(١).

فبرز عبيدة بن الحارث - وكان عمره سبعين سنة - إلى عتبة بن ربيعة. وقيل: شيبه - فضربه على رأسه، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها، وسقطا معاً، وحمل علي عليه السلام على الوليد - وكانا أصغر القوم سنّاً - فضربه علي بن أبي طالب عليه السلام على جبل عاتقه، فخرج السيف من أبطه، وحمل حمزة على شيبه فتضاربا بالسيف حتى انثما، فاعتنق كل واحد صاحبه، وكان حمزة أطول من شيبه، فصاح المسلمون: يا علي، أما ترى الكلب قد بهر عمّك، فأقبل عليها، فقال علي: ((طأطأ رأسك يا عم)) فأدخل حمزة رأسه في صدر شيبه، فضربه الإمام علي في عنقه فقطعها، ثم كَرَّ علي عليه السلام وحمزة على عتبة فأجهزا عليه، وحملا عبيدة فألقياه بين يدي ابن عمِّه الرسول، فاستعبر وقال: ((ألسْتُ شهيداً يا رسول الله؟)) قال: ((نعم)).

قال: ((لو رأني أبو طالب لعلم أننا أحقُّ منه بقوله:

ونُسلمه حتّى نصرّع حوله^(٢) ونذهل عن أبنائنا والحلائل))^(٢)

ولم يلبث بعدها إلاّ يسيراً، وهو أول شهيد من المسلمين في تلك المعركة.

(١) طبقات ابن سعد ٢/١٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٢٢.

وبرز بعدها حنظلة بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فلمَّا دنا منه ضربه علي بالسيف وقتله، ثمَّ أقبل العاص بن سعيد بن العاص يطلب البراز، فبرز إليه علي عليه السلام وقتله.

ولمَّا رأت مخزوم كثرة القتلى من المشركين، أحاطوا بأبي جهل خوفاً عليه، وألبسوا لأمة حربه عبدالله بن المنذر، فصمد له علي عليه السلام وقتله، ثمَّ ألبسوها الفاكه بن المغيرة، فقتله حمزة وهو يظنه أبا جهل، وألبسوها بعدها حرملة بن عمرو فقتله علي عليه السلام أيضاً، وأبى أن يلبسها أحد بعدما رأوا صنيع عليّ وحمة..

ثمَّ التحم الجيشان، ودار بينهما أعنف قتال، فتساقطت الرؤوس وتهاوت الأجسام. وقتل علي عليه السلام - فيمن قتله يوم ذاك - نوفل بن خويلد، وكان من شياطين قريش، وكان النبي صلى الله عليه وآله قد قال فيه: ((اللهم اكفني ابن العدوية)) وخرج نبيُّ الله صلى الله عليه وآله من العريش، ولم يبق فيه غير أبي بكر، ولم يرد له ولعمر بن الخطاب ذكر مع الذين اشتركوا في القتال..

واشترك النبي صلى الله عليه وآله مع المسلمين، وكبرياء مشركي قريش تتهاوى تحت الأقدام، ثمَّ أخذ كفًّا من التراب ورمى به إلى جهة المشركين قائلاً: ((شاهت الوجوه، اللهم اربع قلوبهم)) فانهم تاركين أمتعتهم وأسلحتهم، وانجلت المعركة عن مقتل سبعين رجلاً من مشركي قريش، وكانوا سادات قريش وأبطالها، وأسر منهم سبعون رجلاً، وفقد المسلمون أربعة عشر شهيداً.. ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

ومن كلام الإمام عليه السلام لمعاوية: ((وعندي السيف الذي اعرضته بجدك وخالك وأخيك في مقام واحد))^(١)!

(ولعل أبرز نتائج هذه المعركة أنها:

أولاً: عززت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبتت إيمان بعض المترددين في إسلامهم.

(١) نهج البلاغة، الكتاب : ٦٤.

ثانيا: جعلت من المسلمين قوة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة.

ثالثاً: شجعت الكثيرين على الدخول في الإسلام بعد أن كانت قريش تشكل الحاجز النفسي والمادي لهم.

رابعا: أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.

خامسا: فتحت الأبواب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانطلاق بحرية أكبر في نشر الدعوة.

سادسا: زادت من قوة التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وعززت وحدتها في مواجهة التحدي.

دروس وعبر

وأثبتت تجربة بدر:

أولاً: أن القلة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قوية وعزيمة راسخة وإخلاصاً ووعياً وتخطيطاً تستطيع أن تحقق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتى ولو كان العدو يملك الكثرة والقوة المادية الكبيرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وثانيا: إن النصر بحاجة إلى عنصر روحي معنوي هو الإيمان بالله والإخلاص له، والاعتماد عليه والثقة به وغير ذلك مما يوفر للإنسان قوة روحية ومعنوية تبعده عن

الشعور بالقلق والخوف والضياع أمام مواقف التحدي، وقد كان هذا العنصر حاضرا بقوة في بدر ومجاهديها، وقد ساهم بصورة أساسية في تحقيق الانتصار في هذه المعركة وفي كل المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

أسباب الانتصار:

ثمة أسباب عديدة تمخض عنها انتصار القلة على الكثرة في معركة بدر نعرض هنا لأهمها؛ لأنها يمكن أن تعد الأسباب النموذجية التي تفسر لنا الكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون ضد أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعتادا ليس في عصر النبي صلى الله عليه وآله فقط بل فيما تلاه من عصور وحتى عصرنا وهذه الأسباب هي:

أولاً: المدد والعون والتوفيق الإلهي، ولأنها كانت أول معركة كبرى يخوضها المسلمون، ولأنها كانت مواجهة مع رموز الكفر وجبابرة الشرك على مستوى الجزيرة العربية، ومع ضعف العتاد وقلة العدد لدى المسلمين.. لذلك كان حجم التدخل الإلهي، والعناية الإلهية بما يتطلبه الوضع وحجم القضية.

ثانياً: وحدة القيادة: فقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر وكان المسلمون يعملون كيدٍ واحدة تحت قيادته، يوجههم ويحدد لهم التكاليف للقيام بعمل حاسم، وكان انضباط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم نموذجاً رائعاً للانضباط الحقيقي، ومعنى الانضباط هو طاعة الأوامر وتنفيذها والقيام بالتكاليف المحددة بحرص وأمانة وعن طيبة خاطر.

ثالثاً: العقيدة الراسخة والمعنويات العالية: فقد تمتع المسلمون في بدر بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة وإرادة قوية وإخلاص وتفان في سبيل الله قل نظيره، ولم تكن معنويات الذين خبروا الحرب ومارسوها طويلاً عالية فحسب وإنما كانت معنويات الفتية الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً عالية أيضاً.

لقد أثبتت بدر وكافة الحروب التي خاضها النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون أن التسليح

والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلّ المقاتلون بالإيمان والتوكل والصبر والشجاعة والثبات والإخلاص والطاعة والوعي والتضحية والتعاون والإيثار والروحية العالية.

رابعاً: وضوح الهدف وسمو الغاية: فقد كان المسلمون في بدر يقاتلون في سبيل رضوان الله، وطلباً للآخرة، وكانت لديهم أهداف واضحة يعرفونها ويؤمنون بها وهي إزالة كل الحواجز المادية من أمام الدين الجديد وترك الحرية الكاملة لهم لنشر الإسلام الذي يحرر الإنسان من العبودية للطاغوت لتكون كلمة الله هي العليا) سيرة خاتم الأنبياء.

❖ غزوة أحد:

أخذ المشركون يعدّون العدة للثأر، واستطاعوا أن يؤلّفوا جيشاً كبيراً، يضمّ ما يقارب ثلاثة آلاف مقاتل! وتبرّع أبو سفيان بأموال طائلة لتجهيز هذا الجيش الذي قاده بنفسه، وقبل أن تخرج قريش إلى أحد بعث العباس بن عبدالمطلب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخبره بكيد قريش واستعدادها.

وبدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ساعة وصول الرسالة يستعدّ لملاقاة الجيش الزاحف نحوهم، وكان ذلك في شوال، في السنة التالية لمعركة بدر.

خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ألف رجل أو يزيدون قليلاً، وكان الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حامل لوائه، ووزّع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الرايات على وجوه المهاجرين والأنصار، ولما كان بين المدينة وأحد، عاد عبدالله بن أبي - رأس النفاق - بثلاث الجيش قائلاً: علام نقتل أنفسنا؟! ارجعوا أيها الناس، فرجع وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعمائة.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجيشه البالغ سبعمائة رجل حتى بلغ أحداً، فأعدّ أصحابه للقتال، ووضع تخطيطاً سليماً للمعركة ليضمن لهم النصر بإذن الله، ثم جعل أحداً

خلف ظهره، فجعل الرماة على جبل خلف عسكر المسلمين وهم خمسون رجلاً، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: ((احموا ظهورنا ولا تفارقوا مكانكم، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغتم فلا تشاركونا، فإنما نؤتى من موضعكم هذا))^(١).

ولما التحمت المعركة تقدّم طلحة بن أبي طلحة - وكان يدعى كبش الكتيبة - وصاح: من يبارز؛ فخرج إليه علي عليه السلام، وبرزا بين الصّفيين، ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في عريش أُعدّ له يشرف على المعركة ويراقب سيرها، فقال طلحة: مَنْ أنت؟ قال: ((أنا علي بن أبي طالب)) فقال: لقد علمت أنّه لا يجزئ عليّ أحدٌ غيرك، فالتحمت سيوفهم، فضرب علي عليه السلام رأس عتبة ضربة فلق فيها هامته، فبدرت عيناه وصاح صيحة لم يُسمع مثلها، وسقط اللواء من يده، ووقع يخور في دمه كالثور، وقيل: ضربه فقطع رجله، فسقط وانكشفت عورته، فناشده الله والرحم فتركه^(٢).

فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون، وتقدّم بعده أخوه عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة بن عبدالمطلب، فضربه بسيفه ضربةً كانت بها نهايته، ورجع عنه يقول: أنا ابن ساقى الحجيج.

وأخذ اللواء بعدهما أخوهما أبو سعيد بن أبي طلحة، فحمل عليه علي عليه السلام فقتله، ثم أخذ اللواء أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي عليه السلام أيضاً، وأخذ اللواء بعد ذلك غلام لبني عبد الدار، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام.

وتؤكد أكثر الروايات أنّه بعد أن قُتل أصحاب الألوية والتحم الجيشان، لم يتقدّم أحد من علي عليه السلام إلا بعجه بسيفه أو ضربه على رأسه، ففلق هامته وأرداه قتيلاً، وانكشف المشركون لا يلوون على شيء، حتى أحاط المسلمون بنسائهم، ودبّ الرعب في قلوبهم، ولو أراد المسلمون أن يأسروا هنداً ومن معها ما وجدوا من يمنعهم من ذلك.

وإنّ النصر الذي تهباً للنبي صلى الله عليه وآله في أحد لم يتهباً له في موطنٍ قطّ، وظلّ النصر إلى

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٢/٣٠، الكامل في التاريخ ٢/٤٧، الارشاد ١/٨٠ باختلاف.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٢/٤٧.

جانب المسلمين، حتَّى عصوا الرسول صلى الله عليه وآله وانصرفوا إلى الغنائم. فقد أُصيب المسلمون من قبل الرماة الذين وضعهم النبي صلى الله عليه وآله من ورائهم، ليحموا ظهورهم بالنبال إن هجم المشركون من جهة الجبل، لكن لما انهزم المشركون لا يلوون على شيء، نزل الرماة من على الجبل، بعد أن نظروا إلى اخوانهم المسلمين يتهبون الغنائم، وردعهم أميرهم عبدالله بن جبير، فأبوا الرجوع، ثمَّ انطلقوا للسلب والنهب، ولم يبق مع ابن جبير إلا عشرة رجال.

ولما رأى خالد بن الوليد أن ظهر المسلمين قد خلا، كرَّ في مئتي فارس، على من بقي مع ابن جبير فأبادهم، وقُتل ابن جبير بعد أن قاتل قتال المستميت، وتجمَّع المشركون من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من خلفهم، وهم غافلون لنهب الغنائم، واستدارت رحاهم وحالت الريح فصارت دبوراً، وما أحسَّ المسلمون إلا والعدو قد أحاط بهم واختلط بينهم، وأصبحوا كالمدهوشين، يتعرَّضون لضرب السيوف وطعن الرماح من كلِّ جانب، وأوجعوا في المسلمين قتلاً ذريعاً، واشتدَّ عليهم الأمر حتَّى قتل بعضهم بعضاً من حيث لا يقصدون.

وفرَّ المسلمون عن نبيِّ الله صلى الله عليه وآله، ولم يكن عليٌّ عليه السلام يفكر في تلك اللحظات الحاسمة إلا برسول الله صلى الله عليه وآله لا سيَّما وقد رأى المشركين يتجهون نحوه، وأصبح هدفهم الأول، بعد أن أصبحت المعركة لصالحهم، فأحاط به هو وجماعة من المسلمين، وقد استماتوا في الدفاع عن النبيِّ صلى الله عليه وآله، وحمزة يهذُّ الناس بسيفه هذاً، وعليٌّ عليه السلام يفرِّق جمعهم، فيشتتهم إرباً إرباً بسيفه البتَّار، وهو راجل وهم على متون الخيل، فدفعهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله حتَّى انقطع سيفه.

وقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله قتالاً شديداً، وقد تجمَّع عليه المشركون وحاولوا قتله بكلِّ سبيل، ورماه ابن قمئة فكسر أنفه ورباعيته السفلى، وشقَّت شفته، وأصابته ضربة في جبهته الشريفة، وسال الدم على وجهه الشريف. وغلب عليه الضعف.

روى عكرمة قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: ((لما انهزم الناس يوم أحد عن رسول

الله صلى الله عليه وآله لحقني من الجزع عليه ما لم أملك نفسي، وكنت أمامه أضرب بسيفي بين يديه، فرجعت أطلبه فلم أره فقلت: ما كان رسول الله ليفرّ، وما رأيته في القتلى، فأظنّه رُفِعَ من بيننا، فكسّرت جفن سيفي وقلت في نفسي: لأقاتلنّ به عنه حتّى أُقتل، وحملت على القوم فأفرجوا، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع على الأرض مغشياً عليه، فقممت على رأسه فنظر إلى كتيبة قد أقبلت، فقال صلى الله عليه وآله: ((ردّ عني يا عليّ هذه الكتيبة)).

فحملت عليها بسيفي أضربها يميناً وشمالاً حتّى ولّوا الأدبار، فقال لي النبي صلى الله عليه وآله: ((أما تسمع مديحك في السماء، إنّ ملكاً يقال له: رضوان ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ))، فبكيّت سروراً وحمدت الله على نعمه)) (١).

وفي هذه الواقعة قُتل حمزة بن عبدالمطلب، رماه وحشي - وهو عبد لجبير بن مطعم - بحربة، فسقط شهيداً، ومثّلت به هند بنت عتبة بن ربيعة، وشقّت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها، وجدعت أنفه، فتألم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ألماً شديداً، وقال: ((لن أُصاب بمثلك)) (٢)..

ولما يئس المشركون من قتل النبي صلى الله عليه وآله برغم جميع المحاولات، فترت همّتهم وقفلوا راجعين، بعد أن قُتل من المسلمين ثمانية وستون رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون رجلاً. وقفل رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه راجعين إلى المدينة يوم السبت؛ فاستقبلته فاطمة عليها السلام ومعها إناء فيه ماء، فغسل وجهه، ولحقه الإمام وقد خضبّ الدم يده إلى كتفه ومعهُ ذو الفقار، فناوله فاطمة عليها السلام فقال: ((خذي السيف فقد صدقني اليوم)) وقال:

((أفأطمّ هاك السيف غير ذميم
فلسْتُ برعديد ولا بمليم
لعمرى لقد أعذرت في نصر أحمدٍ
وطاعة ربّ بالعباد علم))

(١) إعلام الوري ١/ ٣٧٨.

(٢) أسد الغابة ٤/ ١٠٦.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((خذي يا فاطمة، فقد أدى بعلك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش))^(١).

(لقد أصيب المسلمون بفعل النكسة في أحد بصدمة عنيفة وحزن عميق وشعروا بالضعف والإحباط حتى كاد اليأس يتسرب إلى البعض، والشك إلى البعض الآخر. وقد تعرض القرآن الكريم لبعض هذه المواقف وغيرها على النحو التالي:

١- استنكر القرآن حالات الوهن والحزن والإحباط التي أصابت المسلمين في أحد، وحاول أن يبعث الأمل في نفوسهم ويجدد عزيمتهم وإرادتهم ويعيد إليهم الثقة بأنفسهم، وذلك عن طريق التشجيع والمواساة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٣٩، ١٤٠].

فليس هناك انتصار دائم، ولا انكسار دائم؛ لأن الدنيا مداولة بين الحق والباطل فقد ينتصر الحق في معركة، وقد ينتصر الباطل في معركة أخرى، وهذه هي سنة الله في الكون والحياة، فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس أو يضعف أو يشعر بالحزن والإحباط واليأس عندما يهزم في أي موقع من مواقع الصراع مع الباطل، وإنما عليه أن يأخذ العبرة من الأحداث، ويدرس أسباب الهزيمة، ويتفحص مواطن القوة والضعف؛ ليتعلم من أخطائه، وليتفادى عوامل الانكسار والهزيمة، وليحذر ويواجه أحداث المستقبل بالرصد والوعي والاتزان.

٢- إن الفشل في بعض مواقع الصراع قد يكون اختباراً وابتلاءً من أجل تمحيص الناس وتمييزهم؛ لأن جوهر شخصية الإنسان يتضح عندما تخضع الشخصية للبلاء، وهذا الواقع أكدته أحداث أحد؛ فالهزيمة الطارئة زلزلت ضعاف النفوس وجعلتهم يعيشون حالات الشك والريب، بينما زادت هذه التجربة الصادقين إيماناً وصدقاً، وإصراراً وثباتاً في مواجهة التحدي، وبذلك انكشف الإيثار المزيف من الإيثار

(١) إعلام الوري ١/ ٣٧٩.

الخالص، والإيمان القوي الراسخ في العقول والنفوس من الإيمان المتزلزل. وكذلك فإن المسلمين في أحد كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله ولكن حين خضع بعضهم للتجربة، وفُرضت عليهم المعركة من جديد، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الشهادة سقطوا في الاختبار، وحاولوا الفرار من ساحة الجهاد، ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا القلة، برغم أنهم كانوا يرونه يتعرض لهجوم واسع من قبل المشركين حتى أصيب ببعض الجراحات وقد صور القرآن الكريم هذا الواقع بقوله تعالى: ﴿وَلِيْمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٣].

٣- إن من أخطر المواقف التي واجهت المسلمين في أحد هو موقف البعض الذي بدأ يفتش عمن يأخذ له الأمان من العدو ليسلم بنفسه، أو بدأ يشكك بصدق رسول الله صلى الله عليه وآله ورسالته، وذلك بعدما انتشر إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله وشعر المسلمون بالقلق والضياع.

فقد قال البعض: ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان.

وقال البعض: لو كان محمد نبياً لم يقتل، الحقوا بدينكم الأول.

وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالمزَّلزون في إيمانهم ينقلبون على أعقابهم، ويتراجعون عن دينهم وعن الحق بعد أن يسمعوا بمقتل الرسول ويشعروا بغياب القائد، ولكن في مقابل هؤلاء نجد من الرجال المؤمنين من يمثلون حقيقة الإيمان والثبات على الحق حتى في حال غياب القائد أو موته.

فقد روي في أحد أن رجلاً من المهاجرين مرَّ برجل من الأنصار يتشطح بدمه فقال

له: أعلمت أن محمداً قد قتل؟ فأجابه الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم.

وفي رواية أخرى: أن أنس بن النضر مرّ برجال من المهاجرين والأنصار في معركة أحد وقد انكفؤوا عن الجهاد فقال لهم: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل محمد.. فقال: إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا علي ما قاتل عليه، وموتوا علي ما مات عليه.

فغياب القائد لا يوقف المسيرة ولا يلغي الرسالة والقضية، ولذلك فلا يجوز أن ينحرف المسلمون عن خط الرسالة ولا أن يتخلوا عن قضيتهم ويتراجعوا إذا مات القائد أو أصيب، وإنما عليهم أن يجردوا أنفسهم لحمل مسؤولية الرسالة وإكمال المسيرة بعده بقوة وعزم وإرادة صلبة.

أسباب الهزيمة والدروس المستفادة:

إن الأسباب التي أدت إلى فشل المسلمين في أحدِ فصول معركة أحد وما يمكن أن نستفيد من هذه التجربة كثيرة منها:

١- أهمية الانضباط والتقيد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف؛ فإن الانضباطية- خصوصاً حين يكون القائد حكيماً- هي أساس النجاح والانتصار، وربما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في أحد، فإن من الواضح أن السبب الأول للهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر، واختلافهم وعصيانهم لرسول الله صلى الله عليه وآله طمعاً في الدنيا وإيثاراً لها على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٢- إن النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك فلا ينبغي الاغترار بالكثرة بل يجب

الاعتماد على النفس والتوكل على الله، والطاعة للقيادة، وتحمل المسؤولية والقيام بالتكاليف، فقد كان لاغترار المسلمين بأنفسهم وبكثرتهم أثر كبير في حلول الهزيمة بهم؛ فقد قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: قد كنت في بدر في ثلاثمائة رجل، فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنى هذا اليوم وندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِمَا يَرَى مِنْ إِلْحَاحِهِمْ كَارَهُ وَقَدْ لَبَسُوا السَّلَاحَ يُحْطِرُونَ بِسَيوفِهِمْ يَتَسَامُونَ كَأَنَّهُمْ الْفُحُولُ (١).

وواضح أن الاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة الشعور بالاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل واللامسؤولية.

٣- إن سنن الحياة لا تتبدل فالمسلمون عندما يأخذون بأسباب النصر ينتصرون وتشملمهم عناية الله، وعندما يتهاونون فيها يصابون بالهزيمة، إنها سنة الله في الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

٤- إن عناية الله بالمؤمنين وتسديده لهم لا يعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعية كلية، كما لا يعني أن هذه العناية وذلك الإمداد مطلق غير مشروط، بل هو مشروط قطعاً بالسعي من قبلهم نحو الهدف الأسمى، والعطاء والبذل والتضحيات التي تؤهلهم لأن يكونوا موضعاً لعناية الله وألطفه، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أو على الأقل لا بد لاستمرار هذه العناية الإلهية بهم من حفظ الحد الأدنى من الارتباط بالقيادة، وإطاعتها، وتنفيذ أوامرها.

٥- الارتباط بالله سبحانه وابتغاء ما عنده والإعراض عن الدنيا ومتاعها وعدم الطمع في مكاسبها وغنائمها؛ فإن الله سبحانه ما زال يؤيد المسلمين بنصره في أحد حتى عصوا الرسول صلى الله عليه وآله طمعاً في الدنيا، وإيثاراً لها على الآخرة، فكان لا بد في هذه

(١) انظر: الواقدي/ المغازي: ٢١١/١.

الحالة من إعادة التمهيص لهم، وابتلائهم ليرجعوا إلى الله، وليميز الله المؤمن من المنافق، وليزداد الذين آمنوا إيماناً.

٦- أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وضعاف الإيمان الذين يسقطون أمام مغريات الدنيا والإشاعات الكاذبة، ويفتقدون الوعي والإخلاص، والصبر في مواقع التحدي). سيرة خاتم الأنبياء.

❖ وقعة بني النضير:

غزا رسول الله صلى الله عليه وآله بني النضير في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجره ^(١). وبني النضير هم فخذٌ من جذام إلا أنهم تهودوا، ونزلوا بجبل يقال له: النضير، فسموا به.

وجاء في سبب هذه الغزوة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله مشى إلى كعب بن الأشرف ووجهاء بني النضير، يستقرضهم في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نعم، نعيناك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض وتآمروا على قتله، فنزل جبرئيل عليه السلام وأخبره بما هم به القوم من الغدر، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه الخبر، وأمر المسلمين بحربهم، ونزل بهم، وكانت رايته مع علي بن أبي طالب عليه السلام ^(٢)، فتحصن اليهود في الحصون، وأرسل إليهم عبدالله بن أبي وجاعة معه أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم..

وروي أن الإمام علياً عليه السلام فقد في إحدى ليالي حصار بني النضير، فقال رسول الله: ((إنه في بعض شأنكم)) وبعد قليل جاء عليّ ببشرى مقتل ((عزوك)) أحد أبطال بني النضير، وقد كمن له الإمام حتى خرج في نفر من يهود يطلبون غرة من المسلمين، وكان شجاعاً رامياً، فكمن له عليّ عليه السلام فقتله، وفرّ اليهود، فأرسل نبي الله صلى الله عليه وآله أبا دجاجة

(١) الطبقات الكبرى ٢/٤٣ - ٤٤.

(٢) الطبقات الكبرى: ٤٤، وابن الأثير في تاريخه ٢/١٧٤.

وسهل بن حنيف، في عشرة من رجالات المسلمين، فأدركوا اليهود الفارّين من سيف الإمام علي عليه السلام وقتلوه، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ - بعد أن خذلهم ابن أبي - فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن مسلمة إليهم: أن يخرجوا من بلادهم ولهم ما حملت الإبل من خُرثي متاعهم، ولا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح^(١). وأجلّهم في الجلاء ثلاث ليال^(٢).

❖ وقعة الأحزاب:

وتسمّى أيضاً ((غزوة الخندق)) وكانت في ذي القعدة، سنة خمس من الهجرة^(٣) ٦٢٧م، وقيل: في شوال^(٤)، وقيل: في السنة السادسة، بعد مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة بخمسة وخمسين شهراً^(٥).

وكان سببها: لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني النضير ساروا إلى خيبر، وحزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقدموا على قريش بمكة، وألبوها على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا: نكون معكم حتى نستأصله، وما كان من أمر قريش إلا أن تستجيب لصالّتها المنشودة في القضاء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعوانه.

وتجهّزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب، فكان جميع القوم الذين وافوا الخندق، ممن ذكر من القبائل، عشرة آلاف، وهم الأحزاب، وكانوا ثلاثة عساكر بقيادة أبي سفيان بن حرب.

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبرهم جمع المسلمين، وحثّهم على الجهاد والصبر والاستعداد لمقابلة الغزاة وشاورهم في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق،

(١) تاريخ اليعقوبي ٤٩/٢.

(٢) إعلام الوري ١/١٨٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٥٠/٢.

(٤) الكامل في التاريخ ٧٠/٢.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٥٠/٢.

فأعجب ذلك المسلمين، لأنَّ عملاً من هذا النوع لا بدَّ وأن يعرقل تقدُّم الغزاة، ويخفف من أخطار المجابهة بين الفريقين.

وأقبل المسلمون جميعاً يحفرون خندقاً حول المدينة، وجعل رسول الله لكلِّ عشرة أربعين ذراعاً^(١)، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معهم يحفر وينقل التراب، وفرغوا من حفره في ستة أيام، وكان سائر المدينة مشبك بالبنيان، فهي كالحصن، وكان المسلمون يومئذٍ ثلاثة آلاف مقاتل.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقتال قريش وأحباشها، وهنا كانت الصدمة الكبيرة على قريش، وهي تحسب أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه لا يثبتون لها ساعات قلائل بهذا العدد الضخم، وإذا بها تجد بينها وبين المسلمين حاجزاً لا يمكن اجتيازه إلا بعد جهود شاقة، لاسيَّما وأنَّ أبطال المسلمين وقفوا بالمرصاد لكل من تحدَّته نفسه باجتياز ذلك الحاجز، فأذهلت بعد أن كانت مغرورة بقوتها الجبَّارة!

وأنكروا أمر الخندق، وقالوا: ما كانت العرب تعرف هذا، وأقاموا على هذه الحال - الرشق بالنبل والحجارة - مدة خمسة أيام^(٢) دون قتال..

فلَمَّا كان اليوم الخامس خرج عمرو بن عبد ودَّ العامري - وكان يعدُّ بألف فارس - وأربعة نفر من المشركين: نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطَّاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، واقتحموا الخندق من مكان ضيق، وركز عمرو رمحه في الأرض وأخذ يجول، ويدعو إلى البراز ويرتجز:

ولقد بححتُّ من النداءِ
أني كـذلك لم أزل
بجمعهم هل من مبارز؟
متسرِّعاً نحو الهزاهز
والجود من خير الغرائز^(٣)
إنَّ الشجاعة في الفتى

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٧٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٠.

(٣) الإرشاد ١/ ١٠٠.

وكانَّ هذه الكلمات نداءً إلى الموت، فلم يجبه أحد من المسلمين، وفي كلِّ مرَّةٍ يكرَّر فيها نداءه كان يقوم له عليُّ بن أبي طالب عليه السلام من بينهم ليبارزه، فيأمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالجلوس، انتظاراً منه ليتحرَّك غيره، ولكن لم ينهض أحد؛ لمكان عمرو بن عبد ودٍّ ومن معه.

ومضى عمرو يكرَّر النداء والتحدِّي للمسلمين، فقام عليُّ عليه السلام مرَّةً أخرى، فأجلسه رسول الله صلى الله عليه وآله، ونادى مرَّةً أخرى، فقام عليُّ عليه السلام، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال له: ((ادنُّ منِّي)) فدنا منه، فنزع عمامته عن رأسه وعممه بها وأعطاه سيفه ذا الفقار، وقال له: ((امضِ لشأنك)) ثمَّ رفع يديه وقال: ((اللهمَّ إنَّك أخذت منِّي حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليّاً، ربِّ لا تدرني فرداً وأنت خير الوارثين)).

وقال نبيُّ الله صلى الله عليه وآله لما دنا عليُّ عليه السلام من عمرو: ((برز الإيمان كله للشرك كله)).

فبرز إليه عليُّ، وهو يقول:

مجيّب صوتك غير	((لا تعجلنَّ فقد أتاك
صدق منجّي كلّ فائز	ذو نيّةٍ وبصيرةٍ والـ
عليك نائحة الجنائز	إنِّي لأرجو أن أقيم
صيتها بعد الهزاهز))	من ضربة نجلاء يبقى

فلما انتهى إليه قال: ((يا عمرو إنَّك في الجاهلية تقول: لا يدعوني أحدٌ إلى ثلاث إلا قبلتها، أو واحدة منها)). قال: أجل. قال: ((فإنِّي أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وأن تُسلم لربِّ العالمين)). قال: يا ابن أخ، آخر هذه عني. فقال له عليُّ: ((أمّا إنَّها خيرٌ لك لو أخذتها)).

ثمَّ قال: ((فها هنا أخرى)) قال: ما هي؟ قال: ((ترجع من حيث جئت)). قال: لا تحدِّث نساء قريش بهذا أبداً.

قال: ((فها هنا أخرى)). قال: ما هي؟ قال: ((تنزل تقاتلني)) فضحك عمرو وقال:

إنَّ هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أنَّ أحداً من العرب يرومني مثلها، إنِّي لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، وقد كان أبوك لي نديماً^(١).

قال عليٌّ عليه السلام: ((ولكنِّي أحبُّ أن أقتلك، فانزل إن شئت)).

فغضب عمرو ونزل فضرب وجه فرسه حتى رجع^(٢)، وحمل على عليٍّ عليه السلام وضربه على رأسه فأتقأها بالدركة، فقدَّها السيف ونفذ منها إلى رأسه فشجَّه، وبقي محتفظاً بثباته، وتوالت عليه الضربات وهو يجيد عنها، ثمَّ كرَّر عليه عليٌّ عليه السلام فضربه على جبل عاتقه، فسقط يخور بدمه كالثور، وارتفعت غبرة حالت بينهما وبين الجيشين.

علت أصوات المسلمين بالتكبير، بعد أن أصابهم الخوف في بادئ الأمر، وانهمزم الذين كانوا مع عمرو بن عبد ودٍّ، واقتحمت خيولهم الخندق، وكبا بنوفل بن عبد الله بن المغيرة فرسه، فجعلوا يرمونه بالحجارة، فقال لهم: قتلة أجمل من هذه، ينزل إليَّ بعضكم أقاتله، فنزل إليه عليٌّ عليه السلام فضربه حتى قتله، وبعث الله عليهم ريحاً في ليلٍ شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم، فانصرفوا هارين لا يلوون على شيء، حتى ركب أبو سفيان ناقته وهي معقولة! فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك: قال: ((عوجل الشيخ))^(٣).

قال جابر: ((فما شبهت قتل عليٍّ عمراً إلا بما قصَّ الله تعالى من قصة داود وجالوت، حيث قال: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾^(٤))).^(٥)

نعم لقد قلبت ضربة عليٍّ عليه السلام لعمرو الوضع تماماً، بعدما كان النصر حليف

(١) قال أبو الخير أستاذ ابن أبي الحديد: ((والله ما طلب عمرو الرجوع من عليٍّ إلا خوفاً منه، فقد عرف قتلاه بيدراً وأحد، وعلم إن هو بارز علياً قتله عليٌّ، فاستحى أن يظهر الفشل، فأظهر هذا الإدعاء، وإنه لكاذب)). أنظر فضائل الإمام علي: ١١٣.

(٢) الإرشاد ١/١٠٢، وإعلام الوري ١/٣٨١.

(٣) إرشاد القلوب ٢/٢١٨.

(٤) سورة البقرة: الآية/٢٥١.

(٥) أنظر: إعلام الوري ١/٣٨٢.

قريش قوتها الجبّارة، وصدق سبحانه حيث قال: ﴿كَم مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً﴾ (١).

ولمّا نُعي عمرو بن عبد ودّ إلى أخته عمرة، قالت: مَنْ قتله؟ ومن الذي اجترأ عليه؟ فقيل لها: قتله عليّ بن أبي طالب. فقالت: لقد قتل الأبطال وبارز الأقران، وكانت ميتته على يد كفاءٍ كريمٍ من قومه، وأنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله	لكنت أبكي عليه دائم الأبد
لكنّ قاتله من لا يعاب به	قد كان يدعى أبوه بيضة
من هاشم في ذراها وهي	إلى السماء تमित الناس
قوم أبي الله إلا أن تكون لهم	كرامة الدين والدنيا بلا لدد
يا أم كلثوم ابكيه ولا تدعي	بكاء معولة حرّى على ولد (٢)

هكذا اكتسح عليّ بن أبي طالب عليه السلام فرسان المعارك وشجعان الفلا..

حتّى لم يعد له مثيل بين أبطال العرب، لا يخاف في الله لومة لائم، فهو الوحيد الذي بدّد آمال الأحزاب في الخندق، وبثّ في صفوفهم الرعب، وهنا أنزل الله تعالى على رسوله الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٣).

سرُّ قوة الإمام علي عليه السلام:

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام قويًّا متميزًا في ميدان الجهاد في ميدان البطولة في ميدان الاستبسال؛ متميزًا لأنه يحمل هذه المواصفات في نفسه وروحه وقلبه، لأنه يتحرك وهو يحمل هذه القوة: قوة محبته لله، ومحبته لرسوله، وهو يتحرك وهو يحظى برعاية كبيرة من الله لأن الله يحبه وهو محبوب لدى الرسول صلى الله عليه وآله، ومن أهم ما قاله

(١) سورة البقرة: الآية/ ٢٤٩.

(٢) إرشاد القلوب ٢/ ٢١٨ بتفاوت.

(٣) سورة الأحزاب: الآية/ ٩.

الرسول وبيّن لنا المكانة المهمة للإمام علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما برز في مواجهة عمرو بن عبد ود قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (١) هذه الكلمة تدل على موقع علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتحرك الإمام علي عليه السلام بهذه المواصفات المهمة رجلاً بكل ما تعنيه كلمة رجل يحمل في قلبه المحبة العظيمة لله ورسوله ومن تلك المحبة العظيمة يحمل قوة الإيثار وعاد منتصراً فاتحاً وبذلك القوة الإيمانية قلع باب خيبر، كرار لا يتراجع ولا يقبل بالهزيمة، صلب وقوي في مواجهة الأعداء لدرجة أنه في حروبه كان يحمل فقط درعاً أمامياً فيسألونه لماذا لا يكون لك درع متكامل ومن خلفك فيقول: لا أحتاج لخلفي لأنه لا يولي العدو دبره مقدام ووجهته دائماً هي إلى الأمام (٢).

(ساهمت ثلاثة عناصر أساسية في تحقيق النصر في هذه المعركة هي:

١- التخطيط العسكري الذي تمثل بحفر الخندق وغير ذلك، حيث ساهم حفر الخندق في حماية المسلمين والمدينة وفي حرمان العدو من سرعة الحركة، وفي تطويل أمد المعركة وجعلها على شكل محاور لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

٢- العمل الاستخباري الفعال الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أدى إلى إيقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

٣- الدور البطولي الذي قام به علي بن أبي طالب عليه السلام؛ حيث مكّنه الله من قتل عمرو بن عبد ود وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاتها فانهارت قوة قريش ويئسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقف علي عليه السلام يوم الخندق بقوله: «لمبارزة علي بن

(١) سورة الأنبياء: الآية/ ٨٩.

(٢) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

أبي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة^(١)».

٤- التأييد الإلهي الذي تمثل بجنود الله الغيبين الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثل أيضا بالرياح والعواصف الهوجاء التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلاء من دون تحقيق شيء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

١- ضعاف الإيمان وهم الذين وقعوا تحت تأثير الوسواس الشيطانية والظنون السيئة فعاشوا الخوف والقلق عندما رأوا الأعداء قد تحالفوا ضدهم، فاهتز إيمانهم وفقدوا عمق الثقة بالله وبنصره.

وقد صور القرآن الكريم موقف هذه الفئة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

٢- المنافقون: وقد اتخذوا عدة مواقف ذكرها القرآن الكريم هي:

أ- قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً؛ لأن الله ورسوله كانا قد وعداهم النصر والفتح وهاهم أمام حشود القوى المتحالفة لا يقوون على شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ب- تثبيط العزائم وشل الإرادات عن الجهاد، قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] أي لا تقدرون على فعل شيء أمام قدرات الأعداء فارجعوا من حيث أتيتم.

(١) انظر: الحاكم. المستدرک علی الصحیحین: ج ٣ ص ٣٢.

ج- خلق الأعذار الواهية؛ من أجل الفرار من ساحة الجهاد. قال تعالى:
﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

٣- المؤمنون الحقيقيون وهم الذين لما رأوا الأحزاب لم ينحرفوا قيد أنملة عن عقيدتهم وإيمانهم ولم يضعفوا ولم يشككوا ولم يتزلزلوا، وإنما عبروا عن ثقتهم بوعد الله ورسوله وعن صدقهم وإخلاصهم وعمق إيمانهم وثباتهم في مواقع التحدي قال تعالى:
﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. سيرة خاتم الأنبياء.

❖ وقعة بني قريظة:

بنو قريظة: هي فخذ من جذام اخوة النضير، ويقال: إنَّ تهوُّدهم كان في أيام عادي أبي السموأل، ثمَّ نزلوا بجبل يقال له: قريظة، فنُسبوا إليه، وقد قيل: إنَّ قريظة اسم جدِّهم بعقب الخندق ^(١).

وكانت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة خمس ^(٢) من الهجرة، وكان بين بني قريظة ورسول الله صلى الله عليه وآله صلح فنقضوه، ومالوا مع قريش، فوجَّه إليهم سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحه وخوات بن جبير، فذكَّروهم العهد وأساءوا الإجابة، فلمَّا انهزمت قريش يوم الخندق دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام، فقال له: ((قدِّم راية المهاجرين إلى بني قريظة)) وقال: ((عزمت عليكم ألا تصلُّوا العصر إلا في بني قريظة)) ثمَّ سار إليهم في المسلمين وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

(١) تاريخ اليعقوبي ٥٢/٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥٧/٢.

وحاصر المسلمون بني قريظة شهراً أو خمساً وعشرين ليلة^(١) أشدَّ الحصار.. فدنا منهم رسول الله ﷺ وألقى عليه علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ((يا رسول الله لا تدن))، فقال: ((أحسب أن القوم أساءوا القول))، فقال: ((نعم يا رسول الله)).. فحاصرهم رسول الله ﷺ أياماً حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأنصاري،^(٢).

عمرة الحديبية:

خرج رسول الله ﷺ للعمرة في ذي القعدة سنة ست للهجرة^(٣)، ومعه ألف وأربعمئة^(٤) من أصحابه، وساق من الهدي سبعين بدنة^(٥)، كما ساق أصحابه أيضاً. ومعهم السيوف في أعمادها، وأعلن في أكثر أنحاء الجزيرة بأنه لا يريد حرباً ولا قتالاً، وبلغ المشركين خروجه، فأجمع رأيهم على صدّه عن المسجد الحرام..

فسار رسول الله ﷺ بأصحابه حتى دنا من الحديبية، وهي على تسعة أميال من مكة، وقد كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ المفتاح^(٦).

أرسلت إليه قريش مكرز بن حفص، فأبى أن يكلمه، وقال: ((هذا رجل فاجر))، فبعثوا إليه الخليس بن علقمة من بني الحارث بن عبد مناة، وكان من قوم يتأهلون، فلمّا رأى الهدي قد أكلت أوبارها، رجع؛ فقال: يا معاشر قريش إنّي قد رأيت ما لا يحلُّ صدّه عن البيت..

وكان آخر من بعثوا سهيل بن عمرو ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل إلى النبي ﷺ فكلم رسول الله وأرفقه، ثمّ جرى بينهم الصلح، فدعا رسول الله علي بن أبي

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٧٥.

(٢) أنظر: إعلام الوري ١/ ٣٨٢.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٢.

(٤) الكامل في التاريخ ٢/ ٨٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٤.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٤.

طالب عليه السلام فقال: ((أكتب بسم الله الرحمن الرحيم))^(١)، فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب.. باسمك اللهم، فكتبها. وقيل: قال عليه السلام: ((لولا طاعتك يا رسول الله لما محوت)).
 ثم قال: ((اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو))^(٢) فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال لعلي: ((امحُ رسول الله)) فقال: ((لا أمحوك أبداً))^(٣)، فمحاها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال له أين موضع رسول الله: محمد بن عبدالله، وقال لعلي: ((لتبليّن بمثلها))^(٤)، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، وأنه من أتى منهم رسول الله صلى الله عليه وآله بغير إذن وليه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله صلى الله عليه وآله لم يرُدّوه عليه، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل^(٥)..

روى ربيعي بن خراش عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: ((أقبل سهيل بن عمرو ورجلان - أو ثلاثة - معه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديبية، فقالوا له: إنّه يأتيك قوم من سلفنا وعبداننا فارددهم علينا، فغضب حتى احمرار وجهه، وكان إذا غضب عليه السلام يحمار وجهه، ثم قال: لتنتهنّ يا معشر قريش، أو ليبعثن الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب رقابكم وأنتم مجفلون عن الدين. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه ذلكم خاصف النعل في الحجرة. وأنا خاصف نعل رسول الله صلى الله عليه وآله في الحجرة)).

ثم قال علي عليه السلام: ((أما أنّه قد قال صلى الله عليه وآله: من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار))^(٦).

(١) حسب رواية ابن الأثير في الكامل في تاريخ ٢ / ٩٠.

(٢) إعلام الوري ١ / ٣٧٢.

(٣) ذكر في إعلام الوري ١ / ٣٧٢ أنّه قال: ((إنّه والله لرسول الله على رغم أنفك))، فقال له صلى الله عليه وآله: ((امحها يا علي))، فقال له: ((يا رسول الله، إنّ يدي لا تنطلق تمحو اسمك من النبوة)).

(٤) ((ستدعى إلى مثلها فتجيب، وأنت على مضض))، كذا ذكرها مسلم في صحيحه ٣ / ١٤٠٩ ح ٩٠.

(٥) أنظر تفاصيل ذلك في: الكامل في التاريخ ٢ / ٩٠، طبقات ابن سعد ٢ / ٧٤.

(٦) صحيح الترمذي ٥ / ٦٣٤ ح ٣٧١٥، إرشاد ١ / ١٢٢، مستدرک الحاکم ٤ / ٢٩٨، إعلام الوري ٢ / ٢٧٣، باختلاف.

❖ وقعة خيبر:

غزا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، خيبر في جمادى الأولى سنة سبع من مهاجره، وهي على ثمانية بُرْد من المدينة^(١)، أي أربعة ليال - على التقريب^(٢)، وأمر رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أصحابه بالتَهْيُؤَ لغزوة خيبر، وخرج معه ألف وأربعمائة رجل، معهم مائتا فارس، وأعطى لواءه لعلي بن أبي طالب عليه السلام^(٣).

ومضى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، يجتد السير باتجاه خيبر، ونزل عليها ليلاً، ولم يعلم أهلها، فخرجوا عند الصباح إلى عملهم بمساحيهم، فلمَّا رأوه عادوا، وقالوا: محمد والخميس، يعنون الجيش، فقال النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ((الله أكبر خربت خيبر، إننا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾^{(٤)!}))^(٥).

وقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد سلَّم أبا بكر راية الجيش، ولكنَّ أبا بكر عاد بالراية دون أن يصنع شيئاً فرجع، ثمَّ جعل القيادة لعمر بن الخطَّاب بعده، قال الطبري والحاكم: فعاد يجيبن أصحابه ويجبنونه^(٦)، فأخبر رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فقال: ((والله لأعطينها غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله^(٧)، يأخذها عنوة^(٨))). وفي رواية أخرى: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، يفتح الله على يديه ليس بفرار))^(٩).

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٨١.

(٢) فضائل الإمام علي: ١١٦.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ٨١.

(٤) سورة الصافات: الآية/ ١٧٧.

(٥) أنظر: الكامل في التاريخ ٢/ ١٠٠، طبقات ابن سعد ٢/ ٨١.

(٦) تاريخ الطبري ٣/ ٩٣، المستدرک وتلخيصه للذهبي ٣/ ٣٧.

(٧) طبقات ابن سعد ٢/ ٨٥، وزاد على ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون): ٢٢٨:

((ويفتح الله على يديه))، صحيح البخاري - كتاب الفضائل ٥/ ٨٧ ح ١٩٧ و١٩٨، صحيح مسلم -

كتاب الفضائل ٤/ ١٨٧١ ح ٣٢ - ٣٤، سنن الترمذي ٥/ ٦٣٨ ح ٣٧٢٤، سنن ابن ماجه ١/ ٤٣

ح ١١٧، مسند أحمد ١/ ١٨٥، ٥/ ٣٥٨، المستدرک ٣/ ١٠٩، الخصائص للنسائي: ٤ - ٨، تاريخ

الاسلام للذهبي - المغازي: ٤٠٧، الاستيعاب ٣/ ٣٦.

(٨) الكامل في التاريخ ٢/ ١٠١.

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٦٧ (ذكر المسير إلى خيبر).

فتناولت لذلك الأعناق ورجا كلُّ واحد أن يكون المقصود بهذا القول.

وفيهما جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: فما أحببت الإمارة قبل يومئذٍ، فتناولت لها واستشرفت رجاء أن يدفعها إليّ، فلمّا كان الغد دعا عليّاً فدفعها إليه، فقال: ((قاتل ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك))^(١).

وفي تفصيل الخبر أن عليّاً عليه السلام كان قد أُصيب بالرمد، فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه، ثم أعطاه الراية^(٢)، فما شكّا وجعاً حتّى مضى لسبيله، فنهض بالراية وعليه حلّة حمراء^(٣)، إنطلق مهزولاً، فركز رايته بين حجرين أمام الحصن، فأشرف عليه رجل من يهود يخطر بسيفه، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: ((أنا عليُّ بن أبي طالب))، فقال اليهودي: غلبتم يا معشر يهود، وخرج مرحب اليهودي، صاحب الحصن، وعليه مغفر يمانى، قد نقبه مثل البيضة على رأسه، وكان مزهواً بشجاعته وبطولاته، خرج يتبختر في مشيته، وهو يقول:

قد علمت خيرٌ أنّي مرحبٌ شاكي السلاح بطلٌ مجربٌ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلَهَّبُ

فقال عليٌّ صلوات الله عليه وبركاته:

((أنا الذي سمّني أمّي حيدرة أكيلكم بالسيف كيل السندرة
ليثٌ بغاباتٍ شديدٌ قسورة))^(٤)

فاختلفا ضربتين، فبدره عليٌّ عليه السلام فضربه فقدّ الجحفة والمغفر ورأسه، وشقّه نصفين حتى وصل السيف إلى أضراسه، فوقع على الأرض، فلمّا رأى اليهود صنيع عليٍّ عليه السلام بفارسهم مرحب ولّوا هارين، وكان الفتح على يديه عليه السلام.

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ٨٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ٨٥، سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون) : ٢٢٨.

(٣) ابن الأثير في تاريخه : ١٠١.

(٤) أنظر : ابن الأثير في تاريخه ٢/ ١٠١، وابن سعد في طبقاته ٢/ ٨٥، مع اختلاف يسير.

درس مهم نستفيد منه من خيبر:

درس مهم تركه رسول الله صلى الله عليه وآله للأمة من بعده من غزوة خيبر حتى تكون على وعي كامل وبصيرة عالية بمن هو الجدير بقيادتها ومن هو الذي يستطيع أن يقودها إلى النصر والعزة ومن يمثل صمام الأمان لهذه الأمة وبالذات في مواجهة اليهود الذين هم العدو التاريخي والمستقبلي لهذه الأمة.

في خيبر كشف الرسول صلى الله عليه وآله كيف أن الأمة كما يقول السيد حسين - رضوان الله عليه - إن الأمة بحاجة إلى علي حتى وإن كان في مقام قد تعتقد أنه لا ينفع فيه.. فنحن نحن بحاجة أن نتولى علياً عليه السلام. وإن كنا نعتقد أن علياً لن يخرج بسيفه فيقاتل.

عندما كان أرمدا لا يبصر موضع قدميه، ألم يكونوا يرون بأنهم لا يحتاجون إلى علي؟ فعندما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) نفس الآية التي قالت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١). نفس المنطق يضعه رسول الله صلى الله عليه وآله على علي: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه))^(٢).

يقول السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي مشيراً إلى بعض دلالات حديث: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه)):

((الإمام علي بمؤهلاته التي كانت معروفة ومشهورة وتحدث عنها النبي صلى الله عليه وآله في مقامات متعددة، منها في مقام خيبر عندما قال - صلى الله عليه وعلى آله - ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار يفتح الله على يديه)). تجل في ذلك المقام مستوى أهلية الإمام علي عليه السلام لتلك المسؤولية العظيمة، رجلاً في مستوى المسؤولية، رجلاً لديه الجدار لبناء هذه الأمة بالارتقاء بها، بتعليمها، بقيادتها في مواجهة أعدائها مهما كانوا ومهما كانت إمكانياتهم، لديه هذا المستوى العالي

(١) سورة المائدة: الآية/ ٥٤.

(٢) أنظر: إعلام الوری / ١ / ٣٨٣، الإرشاد / ١ / ١١٦ - ١١٧.

من الإيمان، منزلةً، عظيمةً، ساميةً، رفيعةً عند الله العظيم ((يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) هذا الرجل العظيم الذي يحبه الله ورسوله أليس جديرًا منا بالمحبة؟ أليس جديرًا منا بأن نتولاه؟ أليس جديرًا بالمقام العظيم في قيادة الأمة وهداية الأمة))^(١).

❖ فتح مكة:

كان الفتح في شهر رمضان، سنة ثمان من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٢). وكان سبب هذه الواقعة: أن قريشاً نقضت الوثيقة التي وقعتها مع النبي في الحديبية، وتمادت في ذلك، حتى ذهبت إلى تحريض حلفائها بني الدؤل من بني بكر على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وآله، واستطاع هؤلاء أن يتغلبوا على خزاعة بمساعدة قريش، فلما وصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عزم على أن ينصر خزاعة..

فجهز جيشه وأكد رغبته في التكتيم على هذا الأمر، لمداهمة قريش في مكة قبل أن تتجهز لحرب، وكان يقول: ((اللَّهِمَّ خُذْ عَلَى أَبْصَارِهِمْ فِلا يروني إلا بغتةً))!^(٣)، لكن الأمر تسرب إلى حاطب بن أبي بلتعة، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يطلعهم فيه على سرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله في المسير إليهم.

وأعطى الكتاب امرأة سوداء وأمرها أن تأخذ على غير الطريق، فنزل بذلك الوحي. فدعا النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وقال: ((إنَّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا وقد سألت الله أن يعمي أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك واحقها وانتزع الكتاب منها)) وبعث معه الزبير بن العوام.

فمضيا على غير الطريق، فأدركا المرأة، فسبق إليها الزبير وسألها عن الكتاب فأنكرته، وحلفت أنه لا شيء معها، وبكت، فقال الزبير: يا أبا الحسن منها تقول: إنه لا كتاب معها!

(١) خطاب الغدير لعام ١٤٣٣ هـ.

(٢) الطبقات الكبرى ٢/١٠٢.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/١٠٢.

ثمَّ اخترط السيف وقال: ((أما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك ثمَّ لأضربنَّ عنقك)).

فقالت له: اذا كان لابدَّ من ذلك، فأعرض يا ابن أبي طالب عني بوجهك. فأعرض عنها، فكشفت قناعها فأخرجت الكتاب من عقيصتها، فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام وصار به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١).

ثمَّ مضى رسول الله صلى الله عليه وآله لفتح مكَّة في عشرة آلاف مقاتل، وأعطى الراية سعد بن عبادة، وأمره أن يدخل بها مكَّة، فأخذها سعد وجعل يقول:

اليوم يوم المَلْحَمَه اليوم تسبى الحُرْمَه

فسمعها رجل من المهاجرين، فأعلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ((اليوم يوم المرحمة، اليوم تحمي الحرمة)) لعلي بن أبي طالب: ((أدركه فخذ الراية منه، وكن أنت الذي تدخل بها)) ^(٢).

ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله يقطع الطريق باتجاه مكَّة ودخلها عنوةً بهذا الجيش الهائل، الذي لم تعرف له مكَّة نظيراً في تاريخها من قبل، وأعلن العفو وهو على أبواب مكَّة، وقال لهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)). وأباح دم ستة رجال، ولو كانوا متعلِّقين بأستار الكعبة، وأربع نسوة، هم: عكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صُبابة الليثي، والحويرث بن نُقيذ، وعبدالله بن هلال بن خطل الأدرمي، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن هاشم، وقيتتان كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٣).

فمضى علي بن أبي طالب عليه السلام يجدُّ في طلب أولئك الذين أهدر النبي صلى الله عليه وآله دماءهم فقتل منهم اثنين هم: الحويرث بن نُقيذ، وسارة. وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب حمويين لها: الحارث بن هشام، وعبدالله بن ربيعة،

(١) الإرشاد ٥٧/١.

(٢) إعلام الوري ٣٨٥/١، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/.....

(٣) طبقات ابن سعد ١٠٣/٢، وانظر الكامل في التاريخ ١٢٣/٢، وفيه ثمانية رجال وأربع نسوة.

فأراد علي عليه السلام قتلها. فقال رسول الله: ((يا عليُّ قد أجرنا من أجات أم هانئ))^(١) وتفرّق الباكون، ثم وفد بعضهم على النبي بعد أن أخذ الأمان. ولم يترك رسول الله صلى الله عليه وآله صنماً داخل الكعبة وخارجها إلا وحطّمه تحت قدميه أمام قريش..

وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله - وهو بمكّة - خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح. فقالوا: إنّنا لا نأخذ السلاح على الله ولا على رسوله ونحن مسلمون، قال: ضعوا السلاح، قالوا: إنّنا نخاف أن تأخذنا بإحنة الجاهلية، فانصرف عنهم وأذن القوم وصلّوا، فلمّا كان في السحر شنّ عليهم الخيل فقتل منهم ما قتل وسبي الذرية.

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ((اللهمّ إنّني أبرأ إليك ممّا صنع خالد))! وبعث عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأدّى إليهم ما أخذ منهم حتّى العقال وميلغة الكلب، وبعث معه بهال ورد من اليمن فودى القتلى، وبقيت معه منه بقية، فدفعها عليّ عليه السلام إليهم على أن يجلّوا رسول الله صلى الله عليه وآله ممّا علم وممّا لا يعلم. فقال رسول الله: ((لما فعلت أحبُّ إليّ من حمر النعم)) ويومئذ قال لعليّ: ((فداك أبواي))^(٢)، فتمّ بذلك موادّ الصلاح، وانقطعت أسباب الفساد.

(ولعل أهم السمات التي برزت في غزوة الفتح هي التالية:

١- الإعداد الجيد للمعركة؛ فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل، مجهزين أحسن تجهيز.

٢- المحافظة على السرية التامة: فقد أمر صلى الله عليه وآله أصحابه بالإعداد للحرب ولكنه لم يعلن عن وجهته حتّى للمقربين إليه، وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته لبعض أصحابه أمرهم بأن يكتموا الأمر؛ كي يستطيع تحقيق المفاجأة للعدو، كما اتخذ عدة إجراءات في المدينة تمنع من تسرب المعلومات إلى العدو، وقد تمكن جيش

(١) تاريخ اليعقوبي ٥٩/٢، وانظر الطبقات لابن سعد ١١٠/٢.

(٢) أنظر: تاريخ اليعقوبي ٦١/٢، إعلام الوري ٣٨٦/١، الإرشاد ٥٥/١.

المسلمين نتيجة التشدد في المحافظة على السرية التامة من مباغته المشركين والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرة لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها.

٣- استخدام الحرب النفسية: فقد تعمد صلى الله عليه وآله نشر المسلمين على بقعة كبيرة من الأرض على مشارف مكة فأشعلوا نيرانهم ليلاً ليرى العدو كثرتهم.

٤- حكمة التصرف بعد النصر والتواضع: فلم يبدر من الرسول صلى الله عليه وآله بعد دخوله مكة أي تصرف يمكن أن يثير المنهزمين فهو فاتح حكيم، وهو يعود إلى بلده وأهله، لا يحمل غلا ولا حقدًا، ولا يجد في انتصاره وسيلة للتكبر أو التجبر، ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جم.

واستطاع في موقف إنساني نبيل أن يستميل أهل مكة، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم فإذا به صلى الله عليه وآله يعفو عنهم ويقول لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». سيرة خاتم الأنبياء.

❖ وقعة حنين:

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وحنين وادي بينه وبين مكة ثلاث ليال^(١).

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن هوازن قد جمعت بحنين جمعاً كبيراً تريد غزو المسلمين وقتلهم، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله في جيش عظيم عدتهم اثنا عشر ألفاً، فقال بعضهم: ما تؤتى من قلة، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من قولهم.

وكان لواء المهاجرين مع علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢)، ووَزَع بقية الرايات على قواد الجيش وزعماء القبائل.

ويروى عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أنه قال: ((لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا

(١) ابن سعد في طبقاته ٢/ ١١٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١١٤.

في وادٍ أجوف حَطُوطٍ، إنما ننحدر فيه انحداراً في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا والكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهمز الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد.. إلا أنه قد بقي مع النبي صلى الله عليه وآله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته^(١).

وعلى أي الأحوال فلقد اتفق المؤرِّخون على أن علياً عليه السلام وأكثر بني هاشم ثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وآله في تلك الأزمة^(٢)، وعلي بن أبي طالب عليه السلام يذبُّ الناس بسيفه ويفرِّقهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما كانت أكثر مواقفه في الحروب التي مضت، فلم يستطع أحد أن يدنو من النبي صلى الله عليه وآله إلا جدله بسيفه.

وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس، فإذا أدرك رجلاً طعنه، ثم رفع رايته لمن وراءه فأتبعوه، فحمل عليه علي عليه السلام فقتله^(٣)، فكانت الهزيمة، فقال رسول الله للعبَّاس: ((صِخْ لِلْأَنْصَارِ)) وكان صيِّتاً، فنادى: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السُّمرة، يا أصحاب سورة البقرة! فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت على أولادها، يقولون: يا لبيك يا لبيك! فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وآله فنظر إلى قتالهم فقال: ((الآن حمي الوطيس))!^(٤)

واقْتتل الناس قتالاً شديداً. وقال النبي صلى الله عليه وآله لبغلته دُلْدُلُ: ((البدِّي دلدل)) فوضعت بطنها على الأرض، فأخذ حفنة من تراب فرمى بها في وجوههم، فكانت الهزيمة^(٥) وقيل: إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد قتل منهم أربعين رجلاً^(٦)، واستشهد من المسلمين

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٣٦/٢.

(٢) أنظر: طبقات ابن سعد ١١٥/٢، ابن الأثير في تاريخه ١٣٦/٢، تاريخ يعقوبي ٦٢/٢، إعلام الوري ٣٦٨/١.

(٣) ابن الأثير في تاريخه ١٣٧/٢.

(٤) طبقات ابن سعد ١١٥/٢، الكامل في التاريخ ١٣٧/٢.

(٥) ابن الأثير في تاريخه ١٣٧/٢.

(٦) إعلام الوري ٣٨٧/١، ١٤٤/١.

أيمن ابن أم أيمن، ويزيد بن زَمَعَةَ بن الأسود بن المطَّلَب بن عبد العُزَّى وغيرهما^(١).

❖ وفي تبوك:

ثمَّ كانت غزوة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى تبوك في رجب سنة تسع من مهاجره^(٢).
تواردت الأنباء إلى الرسول القائد صلى الله عليه وآله من أن الروم أعدوا العُدَّة لِغَزْوِ الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية، التي تُعتبر جزءاً من الدولة الإسلامية.
فقرَّر الرسول صلى الله عليه وآله أن يقود بنفسه الحملة العسكرية لمواجهةهم وأصدر أوامره لاستنفار المسلمين في المدينة المنورة وخارجها.

ولم يقف المنافقون عند هذا الحد، بل راحوا يدعون الناس إلى التخلف عن الجيش الإسلامي، وأعدوا داراً لتجمعاتهم، وبدؤوا يميكون المؤامرات لزعة الأوضاع في المدينة في غياب النبي (صلوات الله عليه وآله). وفي مواجهة التهديد الذي مثلته الحملة العسكرية الضخمة الرومانية خارج الجزيرة العربية والتهديد الذي يمثله المنافقون في الداخل كان لا بد أن يخرج هو بنفسه لمواجهة الروم وأن يبقى في المدينة شخصية تكون قادرة على حماية عاصمة الدولة الإسلامية حيث كانت وضعية الأمة في خطر كبير يتهدها من قبل الدولة العظمى في ذلك الوقت فقد وصلت وضعية المسلمين إلى درجة أن المنافقين، وبعض من تخلفوا من الأعراب تشجعوا إلى أن يدبروا مؤامرة ضد رسول الله في المدينة نفسها؛ ليمسحوا الدولة الإسلامية كلها فترك لهم علياً؛ لأن علياً هو صمَّام الأمان للدولة الإسلامية سيقمى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة وقال له: (تقيم أو أقيم) ((إنه لا بد للمدينة منِّي أو منك))^(٣)، ((إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك))^(٤).

ولهذا المنافقون أشاعوا دعاية ضد الإمام علي عليه السلام: أن رسول الله إنما خلفه في

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٣٩.

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ١٢٥.

(٣) إعلام الوري ١/ ٢٤٣.

(٤) الإرشاد ١/ ١٥٥.

النساء والأطفال، أنه إنما استقله، كره خروجه معه. فلحق علي عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلده ذلك الوسام الذي أبكم المنافقين، وكمم أفواههم: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))^(١) فعاد علي عليه السلام إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توجه لقيادة الجيش إلى (تبوك)^(٢).

وسار رسول الله بجيشه.

هذا، ولم يكن قوله له: ((أما ترضى أن تنزل مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) مختصاً بهذا الموقف، فقد قال له ذلك مرات عديدة.

علي عليه السلام يبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إعلان البراءة من المشركين:

ومن المواقف التي تدل على مكانة الإمام علي وبأنه رجل المواقف الذي لا بديل عنه ما حصل في تبليغ البراءة من المشركين فقد اختير الإمام علي عليه السلام لتبليغ وإعلان البراءة على المشركين حيث كان قد انتدب أبو بكر لتبليغها فلما كان أبو بكر في بعض الطريق، هبط الأمين جبرائيل عليه السلام بالأمر من الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتولى التبليغ علي بن أبي طالب عليه السلام، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً إلى أبي بكر، يأمره بإعطاء الكتاب الذي يحمل السورة المباركة إلى علي عليه السلام، وهكذا كان.

فعاد أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً، فقال له: أنزل في شيء؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا، إلا أنني أمرت أن أبلغه أنا أو رجلاً من أهل بيتي))^{(٣)(٤)}.

(١) الإرشاد ١٥٦/١.

(٢) طبقات ابن سعد ١٧/٣.

(٣) النسائي في خصائصه، ص ٢٠. والترمذي في صحيحه ١٨٣/٢. وأحمد بن حنبل في مسنده، ٢٨٣/٣. والسيوطي في الدر المنثور. وابن جرير في تفسيره ٤٦/١٠. والحاكم في المستدرک ٥١/٣، وغيرها.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ١٥١/١. وأحمد في المسند ٣/١ عن أبي بكر، وأصل الحديث أخرجه في جملة عشر فضائل عن ابن عباس ١٣٣/٣. وصححه وأقره الذهبي. من كتاب (إرشاد الطالب للسيد بدر الدين الحوثي رحمة الله عليه).

في إشارة إلى الإمام علي عليه السلام ومكانته العظيمة عند الله وعند رسوله.. وأن المهمة تتطلب رجالاً بمستوى الإمام علي عليه السلام.

لقد كانت أول عملية لإعادة الحج إلى حج إسلامي يوم أرسل الرسول صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) ليعلن البراءة من المشركين بتلك العشر الآيات الأولى من سورة براءة، بل ليعلن الحرب على المشركين وليس فقط البراءة منهم.

وسار علي عليه السلام حتى إذا وصل مكة وقف بيمينى، وقرأ السورة المباركة، ثم نادى بأعلى صوته: ((لا تدخل الكعبة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله فعهدته إلى مدته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر))^(١).

كانت تلك هي أول عملية لتحويل الحج إلى حج إسلامي، وصبغه بصبغة توحى بالأهداف المقصودة من وراء تلك العبادة العظيمة التي هي الحج.

فقال سبحانه وتعالى يحكي تلك البراءة: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾^(٢) براءة من الله، وبراءة من رسوله صلى الله عليه وآله، وبراءة من علي، قرأها علي كلها براءة من المشركين.

وهذا البيان طويت آخر صفحة للشرك في مكة المكرمة، وعادت الكعبة لله وحده، لا يُعبد فيها غيره سبحانه ولا تُقام فيها غير شعائر دينه العظيم.

علي عليه السلام في اليمن

وفي السنة العاشرة للهجرة بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن جامعاً لصدقات أهلها، وجزية أهل نجران وسفيراً وقاضياً.. قال علي عليه السلام: ((ولما بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، قلت: تبعثني وأنا رجل حديث السن، وليس لي علم بكثير من القضاء؟ قال: ف ضرب صدري رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: اذهب، فإن الله عز وجل سيثبت لسانك ويهدي قلبك..)) قال: ((فما أعياني قضاء بين اثنين)).

(١) الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص ١٣٢، ومحمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٧٣.

(٢) سورة التوبة: الآية/ ٣.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث قبله خالد بن الوليد في بضع مئات من الجند، قال البراء بن عازب: كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه - يعني قبيلة همدان - ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً ومن معه، إلا من أحب أن يعقب مع علي فليعقب معه، فكنيت فيمن عقب مع علي، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، ثم تقدم علي فصلّي بنا ثم صفنا صفّاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلمت همدان جميعاً. فكتب علي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتاب خرّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: ((السلام على همدان، السلام على همدان))^(١).

علي في حجة الوداع^(٢)

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة متوجّهاً إلى الحجّ في السنة العاشرة من الهجرة، لخمس بقين من ذي القعدة، وهي حجة الإسلام، وكان ابن عبّاس يكره أن يقال: حجة الوداع، ويقول ((حجة الإسلام))^(٣).

وأذن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس بالحجّ، فتجهّز الناس للخروج مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحضر المدينة - من ضواحيها ومن جوانبها - خلق كثير.

وحجّ علي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اليمن، حيث قد بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثمائة فارس، فأسلم القوم على يديه.. ولما قارب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة من طريق المدينة، قاربها أمير المؤمنين عليه السلام من طريق اليمن، فتقدّم الجيش إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسرّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وقال له: ((بم أهلت يا علي))؟ فقال: ((يا رسول الله، إنك لم تكتب إليّ بإهلالك، فعقدت نيتي بنيّتك، وقلت: اللهم إهلالاً كإهلال نبيك)). فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) سنن الترمذي ٦٣٦/٥ ح ٣٧١٩، الخصائص للنسائي: ٢٠، مجمع الزوائد ١١٩/٩، تاريخ يعقوبي

٧٦/٢، البداية والنهاية ٣٧٠/٧، تفسير الطبري ٤٦/١٠.

(٢) مسند أحمد ١٣٦/١، الارشاد ١٩٤/١ و ١٩٥ باختلاف.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٩٤/٥، وقال: أخرجه البخاري مختصراً من وجه

آخر، صحيح البخاري ٢٠٦/٥.

((فأنت شريكي في حجِّي ومناسكي وهديي، فأقم على إحرامك، وعد على جيشك وعجل بهم إليَّ حتَّى نجتمع بمكة))^(١).

ولمَّا أكملوا مناسك الحجِّ، نحر رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ستين بدنة، وقيل: أربعاً وستين، وأعطى علياً عليه السلام سائرهما، فنحراها وأخذ من كلِّ ناقة بضعة، فجمعت في قدر واحد فطبخت بالماء والملح، ثمَّ أكل هو وعلي عليه السلام^(٢).

وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس، وأراهم مناسكهم وعلمهم حجَّهم، إلى أن قال: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلِّين يملك بعضهم رقاب بعض، إنِّي قد خلَّفت فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ألا هل بلَّغت))؟ قالوا: نعم. قال: ((اللهمَّ اشهد)). ثمَّ قال: ((إنكم مسؤولون، فليبلغ الشاهد منكم الغائب))^(٣). ثمَّ ودَّعهم وقفل راجعاً إلى المدينة.

غدير خمِّ

لمَّا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله نسكه وقفل إلى المدينة، وانتهى إلى الموضع المعروف بغدير خمِّ نزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يقيم علياً عليه السلام وينصبه إماماً للناس؛ فقال: ((ربِّ إنَّ أمتي حديثو عهد بالجاهلية)) فنزل عليه: إنَّها عزيمة لا رخصة منها، فنزلت الآية: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٤).

(١) صحيح مسلم ٨٨٨/٢، والإرشاد ١٧١/١، إعلام الوري ٢٥٩/١، وانظر: الكامل في التاريخ ١٧٠/٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١٠٩/٢، إعلام الوري ٢٦٠/١، وانظر الطبقات الكبرى ١٣٥/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الفتن ٩٠/٩ ح ٢٦ - ٢٩، صحيح مسلم ٨١/١ ح ١١٨ - ١٢٠، كتاب الايمان، مسند أحمد ٣٧/٥، ٤٤، ٤٩، ٧٣، سنن الترمذي ٤٨٦/٤ ح ٢١٩٣، سنن أبي داود ٢٢١/٤ ح ٤٦٨٦، تاريخ اليعقوبي ١١١/٢، ومثله في السيرة الحلبية ٣/٣٣٦ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٠ م.

(٤) إعلام الوري ٢٦١/١، والآية من سورة المائدة: الآية/٦٧، وقصة نزولها في علي عليه السلام في غدير خم رواها كثير من المفسرين، منهم: أسباب النزول للواحدي: ١١٥، الدر المنثور للسيوطي ٣٩٨/٢، فتح القدير للشوكاني ٦٠/٢.

فلَمَّا نزل رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير حُجْمٍ، ونزل المسلمون حوله، أمر بدوحات فقممَنَ، وكان يوماً شديداً الحرِّ، حتَّى قيل: إنَّ أكثرهم ليلفُّ رداءه على قدميه من شدَّة الرمضاء، وصعد رسول الله صلى الله عليه وآله على مكان مرتفع فوق أقتاب الإبل، فردَّ من سبقه، ولحقه من تخلف، وقام خطيباً، ثمَّ قال: ((أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله. فأخذ بيد عليٍّ فرفعها، حتَّى بان بياض ابطينه، وقال: ((إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهمَّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

وقد ورد هذا الحديث في الكثير من كتب السيرة والتاريخ وكتب الحديث أيضاً وغيرها^(١) بصيغ متعدّدة، تثبت أحقيّة الإمام عليٍّ عليه السلام بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو من أشهر النصوص على خلافته رسول الله صلى الله عليه وآله. وبعد أن نزل رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى ركعتين، ثمَّ زالت الشمس فأذن مؤذنه لصلاة الظهر، فصلّى بالناس وجلس في خيمته، وأمر عليّاً عليه السلام أن يجلس في خيمة له بإزائه، ثمَّ أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّئوه بالإمامة، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك اليوم كلّهم، ثمَّ أمر أزواجه وجميع نساء المؤمنين أن يدخلن معه ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين، ففعلن ذلك، وكان ممن أطب في تهنّته بذلك المقام عمر بن الخطّاب، وقال فيما قال: ((بخ بخ لك يا عليّ، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة)). وأخرج أحمد وغيره ان أبا بكرٍ وعمر قالاه: أمسيّت يا بن أبي طالب مولى كلّ مؤمن ومؤمنة^(٢).

(١) أنظر: خصائص أمير المؤمنين للحافظ النسائي: ٢١ - ٢٢ مطبعة التقدّم بالقاهرة، وقد ذكر في حديث الغدير اسانيد عديدة وطرق شتّى وألفاظ مختلفة، بلغت تسع عشرة رواية، مسند أحمد ١١٩/١ من طريقين، ١٥٢، ٤/٢٨١، ٣٧٠، ٣٧٢، وسنن ابن ماجة ٤٣/١ ح ١١٦، والمستدرک ٣/١٠٩ - ١١٠، والبداية والنهاية ٥/٢٠٨، الفصل الأخير من سنة ١٠ هـ ربيع الأبرار للزخشي.

(٢) مسند أحمد ٤/٢٨١، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢/٥٦٩ ح ١٠١٦ و ٦١٠ ح ١٠٤٢، أسد الغابة ٤/٢٨، تفسير الرازي ١٢/٤٩ - ٥٠، روح المعاني للآلوسي ٦/١٩٤، الصواعق المحرقة: ٤٤.

وأنشد حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبئهم	بُحْمٌ وأسمع بالنبئ مناديا
بأني مولاكم نعم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا	ولا تجدن في الخلق للأمر عاصيا
فقال له قم يا علي فإني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا: اللهم وال وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا ^(١)

إذن فحديث الغدير حديث صحيح بلغ حدَّ التواتر، جمع كثير من العلماء طرقه - كما رأينا سابقاً - لكنه لاقي من التأويل والكتمان ما لم يبلغه خبر قبله ولا بعده!

إعلان ولاية الإمام علي عليه السلام

ظل النبي صلى الله عليه وآله طوال حياته يعمل على تأهيل الإمام علي عليه السلام وتقديمه علماً وقائداً وقدوة ليواصل مسيرة الرسالة من بعده وأثبت الإمام علي عليه السلام بمواقفه العظيمة أهليته لهذه المهمة وعرف لدى الجميع بأنه أكمل إنسان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه الأجدر لحمل هذه المسؤولية.. ومع هذا كله يتوج النبي صلى الله عليه وآله ذلك كله بإعلان ولاية الإمام علي عليه السلام على أمته وبطريقة رسمية معلنة.

ففي ظهيرة يوم الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة من الهجرة تم تنصيبه لهذا المقام العظيم ولياً للمؤمنين من بعده وبطريقة رسمية وعلى رؤوس الأشهاد، بعد أن أعد الرسول صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى ورتب لتنصيب الإمام علي في مراسيم خاصة واحتفالية كبرى تليق بهذه المناسبة المهمة والكبيرة وتجعلها خالدة في ذاكرة التاريخ والأجيال.

(١) روى هذه الأبيات: الخوارزمي في مقتل الإمام الحسين ١/٤٧ الطبعة الأولى، والجويني في فرائد السمطين، من طريقين ١/٧٣ - ٧٤، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسّسة المحمودي، ١٩٧٨م، وابن الجوزي في تذكرة الخواص: ٣٣، والكنجي في كفاية الطالب: ٦٤، تحقيق هادي الأميني، دار احياء تراث أهل البيت، ط٣، وإعلام الوري ١/٢٦٢ - ٢٦٣. مع اختلاف في بعض الألفاظ.

في طريق العودة من حجة الوداع

يعود النبي صلى الله عليه وآله بعد أن قضى مناسك الحج وتهيئة نفسيات المسلمين لتقديم الحدث الأبرز الذي ستعرف الأمة من خلاله المسار السياسي لها ومن هو الذي سيحكمها من بعد رسولها ويولي أمرها ليس من بعد موته فقط وإنما إلى قيام الساعة وبالشكل الذي يشكل ضماناً للأمة من أي اختلاف أو تنازع وبالذات أنها قضية تشرّب إليها أعناق الكثير من محبي السلطة وما أكثرهم وبالذات أن الأمة الإسلامية أصبحت مسيطرة على معظم الجزيرة العربية ويدين لها الناس بالولاء والطاعة.

رسول الله صلى الله عليه وآله يعود من حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة ومعه عشرات الآلاف من جموع المسلمين يتوقف الرسول صلى الله عليه وآله في وادي (حُم) - وهي منطقة بين مكة والمدينة وأقرب ما تكون إلى مكة - بعد أن نزل عليه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَأْتِيهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٧)

مع هذه التوجيهات الصارمة التي وردت في الآية الكريمة تسمّر النبي صلى الله عليه وآله في مكان نزولها ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام وبادر إلى وضع الترتيبات اللازمة والمناسبة لإعلان هذا الأمر الإلهي ولاية الإمام علي عليه السلام بيان كامل وبوضوح تام بما يتناسب ولهجة هذه الآية وبما يليق بهذا الحدث المهم الذي سيكمل الله به دينه لعباده ويتم به نعمته عليهم.

وقبل أن نورد تلك الترتيبات المهمة لا بد أن نقف قليلاً أمام هذه الآية الكريمة لتتساءل أين تقع هذه الآية؟ أليست في سورة المائدة التي هي من آخر السور نزولاً وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وآله الرسالات؟ ألم يكن قد بلغ الرسالات كلها؟ في هذه المرحلة قد عرف التوحيد لله، وعرفت العبادات، وعرف الجهاد، وعرفت تقريباً معظم الأشياء.

هذه الآية المشهور فيما يتعلق بها أنها نزلت في شأن ولاية الإمام علي عليه السلام في (يوم

(١) سورة المائدة: الآية/ ٦٧.

الغدِير) كما روى الإمام الهادي عليه السلام ويذكر (سلام الله عليه) أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة على موقع نزولها؛ لأن عبارتها هنا عبارة هامة، عبارة قوية: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ^(١) إن لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك - قضية معينة - فكأنك لم تعمل شيئاً، فكأنك لم تبلغ شيئاً، أليس هذا يدل على أنها قضية هامة جداً؟.

الآية هذه نفسها توضح لنا ما هي القضية؟ القرآن كتاب أحكمت آياته، من نفس الآيات تعرف أنها قضية لن تكون إلا القضية التي عادة الناس يتنافسون فيها، وتتطلع إليها نفوس الكثير ممن يعشقون السلطة، قضية ولاية الأمر.

الرسول صلى الله عليه وآله قد بلغ التوحيد، أليس التوحيد لله أكبر قضية؟ بلّغه، إذاً بالتأكيد ليست هذه قضية التوحيد.

هنا: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألم يقل: والله يعصمك من الناس؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. بلغ الصلاة، هل ما يزال يحتاج بالنسبة لتبليغ الصلاة إلى عبارات كهذه؟ بلغ الصيام، بلغ الزكاة، الحج، الجهاد، المواريث، الأحكام المتعددة في مختلف القضايا بلغها.

إذا ما هي القضية المهمة التي يبدو وكأن الرسالة كلها مرتبطة بها؟ يعني: إذا لم تكن قائمة فإن الرسالة هذه كلها لا فاعلية لها، تفرغ من مضمونها، أن الرسالة كلها تفرغ من مضمونها.

عندما يقول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أليس هنا فكأنك لم تبلغ؟ أي: معناه أن ما بلغته يفرغ من معناه فكأنه لا معنى له، هذا يعني: أن ولاية أمر الأمة - على أساس القرآن الكريم - تشكل ضماناً أساسية لمسيرة الدين، واستقامة الدين، استقامة الدين، واستقامة الحياة كلها.

ما هي القضية الخطيرة التي نرى بأن الرسول صلى الله عليه وآله بحاجة إلى أن يقال له: ﴿وَاللَّهُ

(١) سورة المائدة: الآية/ ٦٧.

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿﴾ بلغ التوحيد وفي ظروف قاسية، وكان يحتاج في نفس الوقت إلى حراسة وهو في مكة، وهو أيضًا في المدينة كان يحتاج إلى حراسة، بلغ كل الأشياء، لا نعلم بأن هناك قضية يبدو أنه كان يتخوف من تبليغها، أو قضية قد يرى بأنها حساسة أن تبلغ على نحو حاسم تمامًا يعني: يقفل المجالات تمامًا أمام كل من يفكر، ويتطلع للاستيلاء على السلطة، على الخلافة من بعده.

في هذه المرحلة هل كان هناك كافرون يخشاهم؟ هو لم يخشاهم وهو بينهم في مكة، لم يكن يخشاهم وهو في بداية مرحلة المدينة.

نزول سورة المائدة كان في وقت قد أسلمت الجزيرة هذه، بعد الفتح، أسلمت اليمن، وأسلمت الجزيرة، وخصوصًا المنطقة هذه، أين هم الكافرون الذين قال بأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هل يمكن من النبي صلى الله عليه وآله أن يتخوف عن تبليغ شيء خوفًا من الكافرين؟ واضح ماذا قال في مكة عندما عرضت عليه قريش أشياء كثيرة، ألم يقل: ((لو وضعوا الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه)) أليس هذا موقفًا قويًا؟ ألم يتآمروا عليه في نفس الوقت؟ تأمروا عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) (١).

إذا هي في قضية ولاية الأمر بالتأكيد؛ لأن القضية حساسة، وتجلى من بعد موته صلى الله عليه وآله أليست هي التي تجلى فيها التلاعب، حصل أخذ ورد واجتماعات، وخلاف وشقاق، وأشياء من هذه، لم يختلفوا على صلاة، ولا على توحيد، ولا على زكاة، ولا حج، ولا شيء، ألم يكن أول ما اختلفوا عليه هذه القضية، قضية الولاية؟.

أن يقال للرسول صلى الله عليه وآله أن يبلغها على هذا النحو أليس هذا يدل أن القضية بالغة

(١) سورة الأنفال: الآية / ٣٠.

الأهمية، أنها قضية بالغة الأهمية، وأنه إذا لم يبلغ، ويعلن - فيكون الناس جميعاً على معرفة بها، يبلغ في الحج قبل أن يفترق الناس إلى بلدانهم - فكأنه فرغ هذه الرسالة من محتواها، ولم يبق للدين معناه، ولن يكون لهذا الدين أثره في الحياة إذا لم تبلغ هذه.

قد يكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فعلاً هو يعلم بالقضية، وعمل في البداية أشياء كثيرة تبين للناس أن الإمام علياً هو الشخص الذي يؤهله من بعده، لم يكن يؤمر عليه أحدًا، أحاديث كان يقولها مرة هنا ومرة هنا بالنسبة للإمام علي، لكن بقي الإعلان النهائي بشكل صريح على الأمة.

ربما كان يفكر ما هو الأسلوب الأنسب؟ كيف يعمل، وأشياء من هذه.. ليس إلى درجة أن يضعف، هو إنسان قوي، وإنسان لا يخشى أحدًا إلا الله، لكن أحياناً قد يكون هو يتخوف من أشياء، فكيف تكون الطريقة المناسبة التي يمكن أن يبلغ الناس بها، ويفهموا ولا يكون هناك أي احتمالات أخرى؟.

وهنا يأتي البلاغ من جهة الله سبحانه وتعالى بهذه العبارة الهامة: أن عليك أن تبلغ ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أليس هذا يوحي بأنه كان بالإمكان أن يتعرض لاغتيال، أو لاعتداء فعلاً؟ من أين؟ من الكافرين أو من أين؟ من داخل! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الرافضين لما تبليغه، الرافضين لهذه القضية، لن يهتدوا إلى أن يضروك، لن يهتدوا.. وفعلاً لم يهتدوا، لم يتوقفوا.

إن قلنا إن الكافرين معناها: المشركين، فلا يوجد هناك مشركون في تلك الفترة، لا يوجد أحد، قد أسلموا كلهم.

فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلغها على أكمل صورة لأنه كان إنساناً حكيماً يفهم القضية، وكيف يجب أن يتعامل معها بما يليق بأهميتها، وهي القضية الهامة جداً، والواسعة جداً. لاحظ كيف بلغ هذه القضية على أعلى مستوى، ألم يبلغها على أعلى مستوى؟ أوقف الناس جميعاً، ومن تقدموا أرسل إليهم أن يرجعوا، وانتظر للمتأخرين، وفي وقت

حرارة الشمس، حتى لا يقول أحد بأنه لم يره؛ لأن هناك ضباباً أو نحوه، شمس حارقة إلى درجة أنه قال أحد الرواة: ((وإن أحدنا ليضع رداءه تحت قدميه وفوق رأسه من حرارة الشمس وحرارة الرمضاء)).

على ماذا يدل على هذا؟ أليس ذلك يدل على أنها قضية هامة سيبلغهم بها، عندما يوقفهم هنا في هذا المكان الذي لا يوجد فيه شجرة أو حجر، حتى لا يقولوا: إنهم لم يروا النبي، فقط هناك سمرة ثلاث هي التي وقف تحتها، شجر (طلح) أو (قرص). أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله لمن تقدم أن يعودوا، وانتظر في ذلك المكان حتى تكامل الجمع، وبعد ذلك رُصِّتْ له أقتاب الإبل ليصعدَ عاليًا فوقها؛ لتراه تلك الأمة - إن كان ينفعها ذلك - لتراه، لتشاهده، وهي تعرفه بشخصه، لترى علياً ويد رسول الله رافعة ليد، وهي تعرف شخص (علي)، ومن فوق تلك الأقتاب يعلن موضوعاً هاماً، يعلن قضية هامة هي قضية ولاية أمر هذه الأمة من بعده صلى الله عليه وآله.

عندما صعد وبعد أن رفع يد علي عليه السلام خطب خطبة عظيمة إلى أن وصل إلى الموضوع المقصود فقال: ((يا أيها الناس؛ إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

تسلسل هذا الحديث ينسجم انسجاماً كاملاً، الترتيبات التي أعلن فيها الرسول صلى الله عليه وآله هذا الموضوع تنسجم انسجاماً كاملاً مع لهجة تلك الآية الساخنة التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ (١).

موضوع هام بالغ الأهمية، قضية خطيرة بالغة الخطورة، ورسول الله صلى الله عليه وآله يعرف ويقدر كل موضوع حق قدره، ويعطي كل قضية أهميتها اللائقة بها.

(١) سورة المائدة: الآية/ ٦٧.

يخاطب الناس: ((يا أيها الناس؛ إن الله مولاي)) وهذه هي سنة الأنبياء، وخاصة مع تلك الأمم التي لا تسمع ولا تعي، فقد قال نبي من أنبياء الله من بني إسرائيل عندما سأله قومه أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه وتحت رايته في سبيل الله، ماذا قال؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(١) وها هنا بنفس الأداء ((إن الله مولاي)) تساوي ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

ليقول للأمة: إني وأنا أبلغ عندما أقول لكم: ((فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه)) إنما أبلغ عن الله، ذلك أمر الله، ذلك قضاء الله، ذلك اختيار الله، ذلك فرض الله، وذلك إكمال الله لدينه، وذلك أيضًا مظهرٌ من مظاهر رحمة الله بعباده.

((إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم)) هكذا من عند الله إلى عند رسوله صلى الله عليه وآله، ولاية ممتدة، ولاية متدرّجة لا ينفصل بعضها عن بعض.

ثم يقول: ((فمن كنت مولاه)) أليس كل مؤمن فينا يعتقد ويؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو مولاه؟ إن كل مسلم - وليس فقط الشيعة - كل مسلم يعتقد ويؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو مولاه. إذاً ((فمن كنت مولاه)) أي مسلم، أي أمة، أي شخص، أي حزب، أي طائفة، أي فئة، أي جنس من هؤلاء من هذه البشرية كلها يدين بولايتي، يدين أي أنا مولى المؤمنين ((فهذا عليٌّ مولاه)) ((اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

وهكذا قدمت هذه القضية المهمة للأمة بهذا الوضوح الذي لم تشهده أي قضية أخرى بدءًا بلهجة الآية ومرورًا بالترتيبات التي قدمها النبي صلى الله عليه وآله والتي تبين للأمة عظم هذه المسؤولية وخطورة التفريط فيها. ثم يختتم الله هذه المراسيم العظيمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: الآية / ٢٤٧.

(٢) سورة المائدة: الآية / ٣.

وما أجمل ما جمعه السيد العالم الرباني المجاهد / بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه

في أبيات له قال فيها:

أَحِبُّ عَلِيًّا إِذَا شِئْتَ النِّجَاةَ غَدًا	إِنَّ الْعَذَابَ لَعَمْرِي غَيْرُ مَأْمُونٍ
يَكْفِيكَ فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ أَشْهَرُهَا	نَصٌّ بِخُمٍّ وَتَشْبِيهُ بِهَارُونَ
وَيَوْمَ خَيْرَ فِي أَخْبَارِهِ حُجَجٌ	فِي فَضْلِهِ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْبِرَاهِينِ
إِذْ أَنهَا كَشَفَتْ عَنْ طَيْبِ مَخْبِرِهِ	قَطْعًا وَكَمْ بَيْنَ مَعْلُومٍ وَمُظْنُونِ
أَلَا تَحُبُّ حَبِيبَ اللَّهِ حَبَّ رَسُولِ	لِ اللَّهِ ضِدَّ أَعَادِي الْحَقِّ وَالِدِينِ
وَحُبُّهُ آيَةُ الْإِيمَانِ بَيِّنَةٌ	وَبُغْضُهُ صَارَ مِنْ سِيَمَا الْمَلَاعِينِ



الباب الثاني
مكانته وبعض مميزاته
ووصايا الإمام علي عليه السلام



صفات تمتع بها الإمام علي عليه السلام

أشاد الله سبحانه وتعالى بها في كتابه العزيز وخلدها وأكدها النبي صلى الله عليه وسلم على لسانه في أكثر من موطن وهي صفات عظيمة وفضائل جليلة ومن يتأملها يجد:

أنها لم تكن مجرد أوسمة ليس لها واقع من حياة الإمام علي عليه السلام وسيرته العطرة فمن يقرأ سيرة الإمام ومسيرته الجهادية مع معلمه ومربيه وقائده وقدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد بأنها كانت صفات وفضائل تحكي مواقف منسجمة مع هذه الفضائل، فالواقف التي جسدها الإمام علي قولاً وفعلاً وسلوكاً هي مواقف تستحق أن تخلد وتكتب على صفحات كتاب الله العزيز وينطق بها أعظم الأنبياء وخاتمهم.

كما أنها أيضاً تمثل مقاييس ومعايير ومواصفات تبين للناس مستوى أهلية الإمام علي عليه السلام لقيادة الأمة وتحمل هذه المسؤولية العظيمة التي تتطلب رجلاً لديه الجدارة ببناء هذه الأمة وتربيتها وتأهيلها والارتقاء بها وقيادتها في مواجهة أعدائها.

كما أنها مواصفات ومعايير ترسم منهجاً للأمة إلى يوم القيامة تعرف من خلالها أن من يتحلّى بمثل هذه المواصفات والمعايير هو الجدير بولاية أمرها وقيادتها والارتقاء بها لتكون أمة رائدة أمة تسود الدنيا كلها أمة قادرة على مواجهة أمواج الفتن العاتية والوصول بها إلى بر الأمان.

* بعض ما ورد في الإمام علي عليه السلام في القرآن الكريم:

من تلك الفضائل:

آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)
فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت ثوب وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً^(٢).

(١) سورة الأحزاب: الآية/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الحسن والحسين ١٥ / ١٩٤.

آية المودة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١) لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال علي وفاطمة وأبناءهما^(٢).
 آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾^(٣)

بعد أن تحقّق النصر للدعوة الإسلامية ونبیّها الکریم محمد ﷺ في أرجاء الجزيرة، وتمّ فتح مكة والطائف ودُمّرت معاقل الشّرك والوثنيّة وظهر الإسلام كقوّة عقيدية وسياسية وعسكرية؛ أخذت وفود العرب تفتد على رسول الله ليتعلّن إسلامها وولاءها، فوفد على رسول الله ثلاثة وثلاثون وفدًا يمثلون قبائلهم، وأخذ رسول الله يوجّه كتبه ورسله إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام من منطق القوّة والوثوق بالوعد الإلهي بالنصر المؤزّر، وكان ممن وجّه إليهم كتبه، هم أساقفة نجران يدعوهم إلى الإسلام ويعرّفهم بدعوته. ونصّ كتابه المبارك هو: ((بسم الله، من محمد رسول الله إلى أساقفة نجران: بسم الله فإنّي أحمد إليكم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، أمّا بعد ذلكم فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم أذنتكم بحرب، والسلام))^(٤).

حلّ هذا الكتاب الذي خاطب زعماء النصارى في نجران في بلاد اليمن، مثل انطلاقة جديدة تستهدف إحلال الدين الإسلامي - وفق السنن الإلهية - الذي يمثل لبّ الرسائل السماوية محلّ الديانة المسيحية وغيرها باعتبار الإسلام يمثل لبّ الرسائل السماوية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾^(٥) وفي الرسالة نلاحظ أنّ الرسول ﷺ حاول أن يرجعهم إلى أصول

(١) سورة الشورى: الآية/ ٢٣.

(٢) فرائد السمطين ١٣/٢، ومناقب ابن المغازلي ص ١٩١، وشواهد التنزيل ص ١٣٧، انظر (الغارة السريعة ص ٤٤٢).

(٣) سورة آل عمران: الآية/ ٦١.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٨١.

(٥) سورة الشورى: الآية/ ١٣.

العقيدة التوحيدية التي بشر بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لاتفاقهم معه، أن هؤلاء هم رسل الله، وليُثبِتَ لهم أنه نبيُّ يدعو بدعوة الأنبياء.

والقرآن الكريم يؤكد للناس جميعاً بما فيه هؤلاء النصارى بأنه كتاب مهيمن على ما سبقه من الكتب ومصداق لما بين يديه من الكتب، فالإيمان بالقرآن الالتزام بالقرآن هو إيمان والتزام وتطبيق لدين الله الذي أراد أن يتعبد الناس به، وأن يهديهم إليه.

ثم إننا نشاهد في هذه الرسالة منطق القوة التي يُحاطَبُ بها المعاندون، إن لم يستجيبوا لمنطق الحق، ودعوة العقل السليم.

لقد أحدثَ هذا الكتاب هزة عنيفة في كيان النصارى في بلاد اليمن، ورأوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ بوفد يخوض حواراً عقيدياً وفكرياً، توجه الوفد برئاسة أبي حارثة الأسقف ومعه عدد من كبار المسيحيين، فوصلوا المدينة ودخلوا على رسول الله ﷺ في مسجده الشريف وهم متباهون بزينتهم وحليهم ظانين أن ذلك يؤثر على موقف رسول الله ﷺ النفسي. وحين رآهم رسول الله متظاهرين بمظاهر العظمة المزيفة قال لأصحابه: ((دعوهم)). ثم التقوا رسول الله، وبدأ الحوار والمساءلة طوال ذلك اليوم. ثم سأل أبو حارثة رسول الله: (يا محمد! ما تقول في المسيح؟ قال: ((هو عبد الله ورسوله)). فقال أبو حارثة: تعالَى الله عما قلت.

وكان يظنُّ في المسيح ظنَّ الربوبية، وحين اشتدَّ إصرارهم على القوة من عقيدة الشُّرك وتأليه المسيح ورفض نبوة محمد ﷺ، أراد الله سبحانه أن يُظهِرَ لهم نبوة محمد ﷺ بإجابة دعوته وبطلان عقيدتهم ودعواهم، فأنزل الله على نبيه آية المباحلة، قال تعالَى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾﴾^(١).

استمع الرسول ﷺ إلى البيان الإلهي. فأصغى إلى كلمة الفصل والنص السماوي له. إنَّه حجةٌ إعجازيةٌ تُضاف إلى حجته الفكرية والمبدئية، وإذن توجه الرسول ﷺ بالخطاب إلى وفد النصارى: ((إن لم تؤمنوا بي وتصدقوني، فتعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله

(١) سورة آل عمران: الآية/ ٦١.

على الكاذب وَنْتَظِرُ مَنْ سَيَقَعُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَالْعِقَابُ الْإِلَهِي فَهُوَ عَلَى بَاطِلٍ، فَقَالُوا لِلنَّبِيِّ: نُبَاهِلُكَ غَدًا)).

ثم اجتمعوا فتحاوروا وتشاوروا بينهم، فقال أبو حارثة لوفده: (أَنْظُرُوا مَنْ جَاءَ مَعَهُ، وَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ آخِذًا بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ تَتَّبِعُهُ فَاطِمَةُ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَغَدَا الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ بَابْنَيْنِ لَهَا عَلَيْهِمَا الدَّرُّ وَالْحَلِيُّ، وَقَدْ حَقَّقُوا بِأَبِي حَارِثَةَ، فَقَالَ أَبُو حَارِثَةَ: مَنْ هُوَ لَاءِ مَعَهُ؟ قَالُوا: هَذَا ابْنُ عَمِّهِ، وَهَذِهِ ابْنَتُهُ، وَهَذَا ابْنُ ابْنَاهَا، فَجِثَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَى رِكْبَتَيْهِ ثُمَّ رَكَعَ، فَقَالَ أَبُو حَارِثَةَ: جِثَا وَاللَّهِ كَمَا يَجِثُو النَّبِيُّونَ لِلْمَبَاهِلَةِ). وَاللَّهُ إِنِّي لِأَرَى وَجُوهًا لَوْ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَزِيلَ هَذَا الْجَبَلَ مِنْ مَكَانِهِ لِأَرَاهُ، فَلَا تَبَاهِلُوا فَتَهْلِكُوا وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نَصْرَانِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. تَوَجَّهُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ رَأَيْنَا أَلَّا نَبَاهِلُكَ.... قَالَ الرَّازِي: وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الرَّوَايَةَ كَمُتَّفَقٍ عَلَى صَحَّتِهَا بَيْنَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ^(١).

قال الزمخشري في سياق تفسير آية المباهلة: (وقدمهم في الذكر على الأَنْفُسِ لِيُنَبِّهَ عَلَى لُطْفِ مَكَانِهِمْ وَقُرْبِ مَنْزِلَتِهِمْ، وَلِيُؤْذِنَ بِأَتَمِّهِمْ مُقَدِّمُونَ عَلَى الْأَنْفُسِ مُفَدِّونَ بِهَا... وَفِيهِ دَلِيلٌ لَا شَيْءَ أَقْوَى مِنْهُ عَلَى فَضْلِ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ)^(٢).

قوله تعالى: ﴿ج ج ج ج ج ج﴾^(٣) لما نزلت هذه الآية أومى رسول الله ﷺ إلى علي فقال: ((أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي))^(٤).

﴿إِنَّا وَإِيَّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٥)

(١) تاريخ البعقوبي، ج ٢، ص ٨٢. وتفسير الرازي ٣/ ٢٤٧. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. والترمذي ٥/ ٦٣٨. وأحمد ١/ ١٨٥، وغيرهم.
(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف، سورة آل عمران: الآية ٦١، وكذا جاء في تفسير الثعالبي عن مجاهد والكلبي: ويُطلق لفظ أصحاب الكساء على الذين اجتمعوا مع النبي ﷺ تحت كسائه ونزلت فيهم آية التطهير، وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين.
(٣) سورة الرعد: الآية/ ٧.
(٤) ابن جرير في تفسيره، وابن كثير في تفسيره ٤/ ١٢٢، والحاكم في المستدرک، وتاريخ ابن عساکر، والحاكم الحسکاني، وتفسير الطبري ٢٥/ ١٦، وفتح القدير ٤/ ٥٣٧، وغيرها من التفاسير، للمزيد اقرأ: (الغارة السريعة ص ٣٥٤) للسيد بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.
(٥) سورة المائدة: الآية/ ٥٥.

هذه الآية المباركة المشهور فيها أنها نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما تصدق بخاتمه وهو راعع بعد أن دخل فقير يسأل ولم يعطه...^(١) هذه الآية لها دلالات مهمة جداً قدمت بجلاء الروحية العظيمة التي كان يتمتع بها الإمام علي عليه السلام روحية الاهتمام بأمر المحتاجين، نفسية رحيمة، ونفسية تهتم بالناس، تهتم بمن تعرفهم ومن لم تعرفهم.. وسنقف مع دلالات هذه الآية الكريمة في مكانها المناسب من هذا الكتاب.

وغير ذلك من الآيات التي سنتعرض لبعضها خلال بحثنا هذا.

القرآن الكريم يأمر بالصلاة على آل بيت النبي صلى الله عليه وآله: ولما كان الإمام علي عليه السلام من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله فله شأن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢) ومما لا ريب فيه كانت هذه ((الصلاة)) من الواجبات في حال التشهد؛ لما ثبت بالتواتر حينما سألوا الرسول صلى الله عليه وآله: كيف نصلي عليك يا رسول الله؟

فقال: ((قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ)).

وفي هذا الشأن أنشد الشافعي أبياته الشهيرة:

يا أهل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

علي عليه السلام وسورة الدهر:

لم يختلف أهل التفسير على أن سورة ((الانسان)) أو ((هل أتى)) نزلت خاصة في علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، في قصة التصدق على المسكين واليتيم والأسير، ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾^(٣)... إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا^(٤).

(١) ابن كثير في تفسيره ج ٣ ص ١٢٩، وابن جرير في تفسيره، والخطيب البغدادي في تاريخه ٢٨٦/١، والحاكم الحسكاني من عدة طرق، وابن المغازلي في المناقب ص ١٩٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية/ ٥٦.

(٣) سورة الإنسان: الآية/ ١١.

(٤) سورة الإنسان: الآية/ ٢٢.

* بعض ما ورد في الإمام علي عليه السلام في الأحاديث النبوية:
ومما ورد من الأحاديث النبوية في فضل الإمام علي عليه السلام نورد قليلاً من كثير:
قوله عليه السلام لعلي عليه السلام: ((علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي
الحوض))^(١).

وقوله عليه السلام: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتمها من بابها))^(٢).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى علي فقال: ((يا علي أنت سيد
في الدنيا سيد في الآخرة حبيبك حبيبي وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي
عدو الله والويل لمن أبغضك بعدي))^(٣).

عن سلمان - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((من أحب علياً
فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد أبغضني))^(٤).

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي: ((أنت مني وأنا منك))^(٥).

وقوله عليه السلام في المؤاخاة: ((أنت أخي في الدنيا والآخرة))^(٦).

وقوله عليه السلام في حديث الطير: ((اللهم أنتي بأحب خلقك إليك)) فكان الإمام
علي عليه السلام.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/ ١٢٤، وصححه وأقره الذهبي، وأخرجه الإمام أبو طالب في الأمالي:
٥٥ عن أم سلمة، وأخرجه محمد بن سليمان الكوفي صاحب الإمام الهادي عليه السلام في آخر كتاب المناقب.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/ ١٢٦ وقال: هذا حديث صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/ ١٢٨ وصححه على شرط الشيخين، واعترف في تلخيصه بأن رواه
ثقات.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/ ١٣٠ وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وأخرج الحاكم مثله
عن الإمام علي في ٣/ ١٤٢، وصححه وأقره الذهبي، وأخرج المرشد بالله في الأمالي ٥، ١٣٦ نحوه.

(٥) أخرجه البخاري في كتابه المسمى صحيح البخاري في حديث عمرة القضاء ٥/ ٨٥.

(٦) لوامع الأنوار ١/ ٤٦٨.

(٧) الخطيب البغدادي ٩/ ٣٦٩، والترمذي في جامعه، وابن المغازلي في المناقب، وابن كثير في البداية
والنهاية، والحاكم في المستدرک ٣/ ٣٠، والذهبي في تاريخ الإسلام ٢/ ٩٧، وللمزيد انظر الغارة
السرعة ص ٤٠٠.

وقوله عليه السلام علي عليه السلام: ((لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق))^(١).

وقوله عليه السلام: ((يا علي تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله))^(٢).

وقوله عليه السلام قبل فتح خيبر وبعد أن عجز عن فتحها أبو بكر وعمر فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن دعا علياً لفتحها بعد أن منحه هذا الوسام الرفيع الذي يليق به وبما يتحلّى به: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه))^(٣).

لقد تفرّد عليٌّ عليه السلام بخصائص تستحق أن يفرد فيها كتاب لعظمتها وكثرتها، وإنّها لتؤلّف كتاباً جيداً، لا تكرر فيه ولا تشابه.

ولقد جرى، قبل عهود التصنيف، على ألسنة الصحابة، أشياء من ذلك لم تجر بحق غيره، فمنهم من ذكر جملة منها تذكيراً بحقه، وإنكاراً على أناس جهلوه أو تجاهلوه، ومنهم من ذكر له خصالاً يتمنى لو كانت له واحدة منها.

١ - تمنى عمر بن الخطاب لنفسه واحدة من خصال ثلاث اجتمعن في عليٍّ عليه السلام، فقال: لقد أعطي عليٌّ بن أبي طالب ثلاث خصال، لأن تكون لي خصلة منها أحبُّ إليّ من أن أعطي حُمر النعم!

قيل: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟

قال: تزوّجه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وسكناه المسجد مع رسول الله، يحلُّ له فيه ما يحلُّ له، والراية يوم خيبر^(٤).

٢ - وسعد بن أبي وقاص يتمنى لنفسه واحدة من ثلاث أخر اجتمعن في عليٍّ عليه السلام ويردُّها على معاوية اللعين، وهو يراوده على سبِّ أمير المؤمنين عليه السلام!

قال معاوية لسعد: ما يمنعك أن تسبَّ ابن أبي طالب؟

(١) الترمذي ٣ / ١٧٧ ط. الصاوي مصر. وخصائص النسائي: ٢٧ ط. التقدم مصر. ومعرفة علوم الحديث للحاكم: ١٨٠ ط. القاهرة. وبحار الأنوار للعلامة المجلسي ٢٧ / ٨١، ح ٢١. (من كتاب تحرير الأفكار).

(٢) لوامع الأنوار ٤٣٨/١.

(٣) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ

(٤) المستدرک علی الصحیحین ٣ / ١٣٥ ح ٦٣٢٢.

قال سعد: لا أسبُّه ما ذكرت ثلاثاً قاهنٌ له رسول الله ﷺ لأن تكون لي واحدة منهن أحبُّ إليَّ من حُمُر النعم!

قال معاوية: ما هنَّ يا أبا إسحاق؟

قال: لا أسبُّه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي؛ فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: ((ربِّ إن هؤلاء أهل بيتي)).

ولا أسبُّه ما ذكرت حين خلفه في غزوة تبوك، غزاها رسول الله ﷺ، فقال له علي: ((خلفتني على الصبيان والنساء!)) قال: ((ألا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي)).

ولا أسبُّه ما ذكرت يوم خيبر، قال رسول الله ﷺ: ((لأعطينَّ هذه الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويفتح الله على يديه)) فتناولنا لرسول الله ﷺ، فقال: ((أين عليُّ؟)) قالوا: هو أرمَد.

فقال: ((ادعوه)) فدعوه، فمسح عينيه بريقه، ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه^(١).

٣- وسعد أيضاً يذكر ثلاث خصال أخر لعليٍّ عليه السلام يتمنَّى إحداهنَّ، ويشهد منهن بفضل عليٍّ وحقه، رغم أنه قد تخلف عنه في حروبه..

قيل لسعد: إنَّ علياً يقع فيك أنك تخلفت عنه.

فقال سعد: والله إنَّه لرأي رأيته، وأخطأ رأيي! إنَّ عليَّ بن أبي طالب أعطي ثلاثاً لأن أكون أُعطيته إحداهنَّ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها:

لقد قال له رسول الله ﷺ يوم غدير حُـمٍّ، بعد حمد الله والثناء عليه: ((هل تعلمون أنِّي أولى بالمؤمنين؟)) قلنا: نعم. قال: ((اللهمَّ من كنت مولاه فعليُّ مولاه، وإل من والاه وعاد من عاداه)).

وجيء به يوم خيبر وهو أرمَد ما يبصر، فقال: ((يا رسول الله إنِّي أرمَد)). فتغل في عينيه ودعا له فلم يرمَد حتى قُـتِل، وفتح عليه خيبر.

(١) المستدرك ٣/١١٧ ح ٤٥٧٥.

وأخرج رسول الله ﷺ عمه العباس وغيره من المسجد، فقال له العباس: تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك، وتسكن علياً؟!

فقال: ((ما أنا أخرجتكم وأسكنته، ولكن الله أخرجكم وأسكنه))^(١).

٤ - وعبدالله بن عباس، في حديث أكثر جمعاً، يردُّ على نفر ينتقصون من عليٍّ عليه السلام في أيام معاوية، فيقول: أفٌّ، وثفٌّ!! وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليست لأحد غيره!

ثمَّ ينطلق ابن عباس يذكر نواذج من هذه الفضائل، فيبدأ بحديث راية خيبر، ثمَّ يقول: ثمَّ بعث رسول الله ﷺ فلاناً بسورة التوبة، فبعث علياً خلفه فأخذها منه، وقال: ((لا يذهب بها إلا رجل هو منِّي وأنا منه)). ثمَّ يذكر قول النبيِّ له: ((أنت وليي في الدنيا والآخرة)).. وأنَّ علياً أول من آمن.. وحديث الكساء وآية التطهير.. وحديث مبيت عليٍّ في فراش النبي ﷺ في الهجرة.. وقوله ﷺ: ((أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي، إنَّه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي)).. وقوله ﷺ: ((أنت وليُّ كلِّ مؤمن بعدي ومؤمنة)).. وحديث سدِّ الأبواب إلا باب عليٍّ، وحديث الغدير: ((من كنت مولاه...)) الحديث.

ونظائر هذا ممَّا ورد على ألسنة الصحابة فيه عليه السلام كثير وكثير، نكتفي بهذا القدر منه.

وهنا نتحدث عن دلالة بعض ما ورد من الأحاديث الكثيرة والصحيحة لدى الأمة لتكون مقياساً لما تبقى من الأحاديث لنعرف بأنها لم تكن عبارة عن فضائل فحسب وإنما أراد الرسول ﷺ أن يرسم المنهج القويم لأمته من بعده من خلال هذا الرجل العظيم.

وحديث النبي ﷺ: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) يقول السيد عبد الملك حفظه الله حول هذا الحديث:

((النبي صلوات الله عليه وآله) قال نصّاً مهمّاً جدّاً نصّاً موجوداً في تراث الأمة كلها قال: ((لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق)). لا يجب علياً إلا مؤمن وهذا

(١) المستدرک ٣/ ١٢٦ ح ٤٦٠١.

له دلالات ذات أهمية كبيرة: أولاً هو شهادة بكمال إيمان علي ومستواه الإيماني العظيم ((لا يجب علياً إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق)) في مقامه الإيماني العظيم لا يمكن أن يحبه إلا مؤمن هذا النص الذي هو شهادة بكمال إيمان علي ورمزيته لكل مؤمن ولكل مؤمن ارتباط بالإمام علي عليه السلام قائم على أساس المحبة الصادقة المحبة التي فيها اقتداء بعلي التقاء بعلي في مقام العمل التقاء بعلي في مقام القيم التقاء بعلي في المسار الإيماني كله، لا يجب علياً إلا مؤمن لأن المؤمن يجب كل تلك القيم ويرتبط بكل تلك المبادئ التي جسدها علي على أرقى مستوى والتي كان هو السباق إليها.

فحب علي علامة فارقة لأنه هناك صناعة للزيف باسم الإيمان وهناك الكثير من الناس يتحركون باسم الإيمان وتحت عناوين الإيمان عناوين إيمانية ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

((ولا يبغضه إلا منافق)) ما الذي يمكن أن يجعل الإنسان يبغض علياً؟ هل كان علي فيما كان عليه من قيم ومبادئ وأخلاق وفيما يقول وفيما يعلم هل كان في واقعه شيء يجعل الإنسان يبغضه؟.

الإمام علي عليه السلام جسده في واقع حياته وفي تحركه قيم الإيمان والإسلام على أرقى مستوى وكان مع القرآن والقرآن معه، وكان مع الحق والحق معه، فما الذي يجعل الإنسان يستاء من علي ويكره علياً ويبغض علياً ويناوؤه ويتحرك ضد الإمام علي بأسلوب ولو بمسعى للحط من مكانته والتصغير من قدره والتصغير من مقامه ومنزلته؟

النفاق النفاق هو الذي يجعل البعض يصطدمون بعلي ولا يتفقون معه بحال، النفاق هو الذي حرك البعض في عصره مبغضين له مناوئين له مستهدين له وعمدوا إلى القضاء عليه ومن بعد عصره كذلك بقي علي مر التاريخ وإلى زمننا هذا من هو مبغض لعلي ومستاء من علي ويمتعض ويتألم ويبغض وينفر عندما يسمعك تتحدث عن علي ولا يرغب أصلاً أن يكون هناك أي حديث عن علي لا يعجبه، يستاء، لماذا؟ منافق ((ولا يبغضه إلا منافق)).

(١) سورة البقرة: الآية / ٨.

المنافق يحمل في قلبه كل الاستياء من علي، الاستياء من علي بما كان عليه من مواقف بما كان له من دور متميز وعظيم في إقامة الإسلام ومواجهة قوى الكفر أولاً، وقوى النفاق العائدة إلى مسخ هوية الإسلام وتحريف مفاهيمه ثانياً.

ولا يزال المنافقون والمستبدون والطغاة والمجرمون وكل الفئات الضالة المنحرفة لا تزال ترى في علي خطراً عليها حتى الآن، خطراً في فكره ثقافته أخلاقه قيمه سيرته، وترى أن تأثر الأمة به يمثل خطورة عليها؛ ولذلك نرى تغييباً ومحاربة كبيرة لأن يكون لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يستحق من المقام والذكر في سيرته في جهاده في إيمانه كرمز عظيم من رموز الإسلام سواء في المناهج الدراسية في الجامعات أو من خلال الأنشطة الثقافية والتعليمية عند الكثير^(١).

فمن يعرف أهمية هذه الأحاديث وما تهدي إليه وما تفيده وتدل عليه لا يسعه إلا أن يستلهم من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الرؤى الحكيمة، التوجيهات الحكيمة في مختلف الميادين، في مختلف المجالات.

وما ذكرناه من الأحاديث هي غيض من فيض من النصوص الإسلامية والمجمع على صحتها في الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الامتداد الحقيقي للإسلام

عندما نأتي إلى منزلته في الإسلام فلم يكن حاله مؤمناً عادياً كأي مؤمن في دائرة المؤمنين، له موقعٌ متميز الذي نعرفه من خلال ما قاله الرسول بعد ما نعرف من خلال أعماله سلوكياته مواقفه العظيمة والتميزة، تميزه في سلوكه في روحيته في مواقفه في أعماله في سبقه في فضائله فيما كان عليه من صفات وأخلاق عظيمة ثم فيما قاله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، منزلته تحددت في قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطبه: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) فالنبوة اختتمت بخاتم الأنبياء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن

(١) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لعام ١٤٣٤ هـ.

المنزلة المتميزة والفريدة التي كانت لهارون من موسى هي لعلّي من محمد هذه منزلته وهذا مقامه وهذا ما قاله الرسول نفسه ليس استنتاجاً ولا احتجاجاً مذهبياً.

فالإمام علي عليه السلام من خلال هذه المنزلة وفي هذا الموقع وبهذا المستوى كان يمثل الامتداد الحقيقي للإسلام المحمدي الأصيل، الرسول ﷺ قال عنه: ((علي مع القرآن والقرآن مع علي)) قال عنه: ((علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار)) فهو يمثل في مسيرة الإسلام امتداداً صافياً حقيقياً للإسلام المحمدي الأصيل والنموذج الراقى المتكامل الحقيقي للمسلم للمؤمن يقتدى به ويتأسى به وهو يقدم النموذج الراقى المتميز في مدرسة الرسول ومدرسة الإسلام الكبرى^(١).

علي هو الشاهد لعظمة رسول الله ودينه

يقول السيد حسين رضوان الله عليه:

الإمام علي عليه السلام بمؤهلاته وكمالاته وبأعماله ومواصفاته العالية كان علي هذا النحو الذي أصبح فيه فعلاً - وهذه نقطة مهمة يجب أن تفهمها - شاهداً لرسول الله ﷺ؛ لأنه في علي عليه السلام نزل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾^(٢).

الرسول ﷺ كان يتحرك على بينة من ربه، وعلي عليه السلام كان هو الشاهد لرسول الله، هو الشاهد من نفس رسول الله؛ لذا قال عنه ﷺ في مقام آخر: ((أنت مني وأنا منك)) ((علي مني وأنا من علي))، وجاء القرآن الكريم ليؤكد ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) فجاء بنفسه ونفس علي بعبارة واحدة (أنفسنا).

(١) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

(٢) سورة هود: الآية/ ١٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية/ ٦١.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾^(١) هل الشهادة هذه هي فقط تقتصر بأن يشهد - لما رآه من هذه المعجزة أو تلك المعجزة - أن محمدًا نبي صادق؟! هذه شهد بها حتى المشركون في قرارات أنفسهم ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَجْحَدُونَ﴾^(٢).

ما هي شهادة علي للرسول ﷺ

إنها شهادة على مدى سنين، شهادة أداها في مواقفه، شهادة أداها في حياته كلها، أنت تريد أن تعرف عظمة هذا الإسلام، إذا كان هناك أي نظرية - كما يقولون - لا يمكن أن تعرف عظمتها إلا عندما ترى ما تصنعه، ما تقدمه من أثر، ترى نماذج ممن يحملون أفكار تلك النظرية، ثقافة تلك النظرية، توجهات تلك النظرية، فتراهم كيف هم، هنا تحكم على تلك النظرية عندما كانوا يجسدونها بنسبة مائة في المائة.

لقد عدّ كثير من الكتّاب ومن العلماء قالوا عن علي أنه كان معجزة للرسول من هذا الاتجاه.

لأنه ما يُدرينا أن هذا الدين عظيم في واقعه؟ هو دين يخاطبنا، دين يتحدث مع أنفسنا، مع وجداننا، دين له رؤيته في تقديم نموذج للإنسان يريد أن يقدمه، كيف ذلك النموذج الذي سيقدمه الإسلام فعلاً لمن يسير عليه؟ ارجع إلى علي وستعرف ذلك النموذج، الذي لم يبهز فقط المسلمين، بل بهز أيضاً المسيحيين فكتب عنه كتاب مسيحيون أعجبوا بعظمته، أعجبوا بمصداقيته، اعتبروه عبقرياً، عظيماً، اعتبروه مثلاً أعلى حتى من غير المسلمين.

عندما ترجع إلى علي عليه السلام في رؤيته، في مواقفه، في ممارساته، في سلوكياته تجده فعلاً نموذجاً للشخصية العظيمة التي يمكن أن يصنعها هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فهو شاهد لهذا الدين: أنه دين كامل، من إله كامل، اصطفتى لتبليغه

(١) سورة هود: الآية/ ١٧ .

(٢) سورة الأنعام: الآية/ ٣٣ .

رسولاً كاملاً، هو الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١).

دين كامل، رسول الله، الله اصطفاه وأكملاه، هو من قدم هذا الدين كرسول له. نريد أن نرى في الساحة نموذجاً صادقاً يشهد لعظمة هذا الدين؟ ارجع إلى علي عليه السلام ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ (٢) في مواقف علي عندما ترجع إليها تجد عظمة الإسلام، تجد أخلاق الإسلام متجسدة، وهذه لها أثرها في النفوس، كل شيء سيقى نظرية، كل شيء سيقى خاضعاً للاحتتمالات إذا لم يكن هناك على صعيد الواقع ما يشهد لصحته، ﴿سَتُرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٣).

كما تأتي الشواهد في الأحداث، في المتغيرات تشهد لهذا الدين، وهو حق لا شك فيه لكن كمنهجية تربوية لهذا الإنسان، لينطلق إلى أعماق مشاعر هذا الإنسان، ويفرض عظمته على هذا الإنسان من خلال الأحداث، من خلال الآيات، من خلال ما يقدمه من نماذج، فعلى مستوى الإنسان ارجع إلى علي عليه السلام إنه شاهد على أنه حق، ﴿سَتُرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤) وكفى به شهيداً.

ولكن من أجلنا نحن بني البشر الذين قال عنهم: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥) ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٦) إلى آخر ما وصل به هذا الإنسان عندما يتجه إلى العناد؛ فمن أجل رحمة الله به، من أجل لطف الله به، من أجل رافة الله به يُقدِّم له الشواهد في مختلف المجالات على عظمة ما قدمه له من منهج، على عظمة هذا الدين الذي أكمله له، وأتم به النعمة عليه به، ورضيه ديناً يدين به أمام مولاه سبحانه وتعالى.

(١) سورة المائدة: الآية/ ٣.

(٢) سورة هود: الآية/ ١٧.

(٣) سورة فصلت: الآية: ٥٣.

(٤) سورة فصلت: الآية: ٥٣.

(٥) سورة الكهف: الآية/ ٥٤.

(٦) سورة عبس: الآية/ ١٧.

عندما تأتي إلى رؤية علي عليه السلام تجد فيه شاهداً، رؤيته للحياة، رؤيته للإنسان؛ لذا جمع في نهج البلاغة ما قال عنه الكثير: ((بأن علياً عليه السلام برز عالماً فيلسوفاً بل قدوة في كل هذه الاتجاهات فبرز كعالم اجتماع، عالم اقتصاد، عالم نفس، مرشد، معلم في كل الاتجاهات، برز ذلك الشخص عظيمًا يقدم رؤية حقيقية وواقعية للحياة)).

حتى وهو يتحرك في مواجهة أعدائه، وهو يتحرك مع من ينضون تحت لوائه كان يذرهم، كان ينذرهم، كان يعطيهم رؤى، كان يذكرهم بأشياء عرفوا من بعد صحتها، عرفوا صحتها بل مر الكثير منهم بها وعاشوها، كان يقول لأهل العراق: ((والله إني لأخشى أن يُدال هؤلاء القوم منكم لاجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم)).

في هذه العبارة تجد رؤية حقيقية، رؤية واقعية، رؤية صحيحة لدى الإمام علي عليه السلام في النتائج، في المسببات، ما خلفياتها؟ ما أسبابها؟^(١).

الإمام علي القائد والقدوة

لقد كان علي عليه السلام بما حظي به من تأهيل إلهي وتربية نبوية، وإيمان صادق وشخصية فذة ومؤهلات فريدة ومواقف شجاعة وتضحيات أضاء بها تاريخ الأمة الإسلامية كل هذه وغيرها من الأمور جعلت الإمام علياً عليه السلام المؤهل الوحيد لوصاية رسول رب العالمين وخلافة المسلمين وإمرة المؤمنين والقدوة والقائد لهم في كل شيء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد انطوى القرآن الكريم وأقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم على كثير من النصوص والروايات التي بينت مكانة هذا الرجل العظيم وكماله وتأهيله وتنطق كلها بتنصيب الإمام علي أميراً للمؤمنين ووصياً لرسول رب العالمين باعتباره الرجل الكامل والمؤهل لهذه المهمة وتوجب على الناس سلوك سبيله وتوليه وتقديم توليه بأنه امتداد لتولي الله ورسوله.

(١) محاضرة السيد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

كان رجلاً متميزاً

الإمام علي عليه السلام لم يكن مؤمناً عادياً ولا شخصاً عادياً، كان متميزاً في إيمانه وجهاده وجميع مؤهلاته حتى سباه الله صالح المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنْ نُؤَبَّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظْهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٤) (١) لم يكن الإمام شخصاً مغموراً بل كان متميزاً في مساره الإيماني ومنذ البداية (٢).

فهو منذ بداية مشواره مع الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله وسلم) وبحكم ملازمته للنبي وارتباطه الوثيق بالنبي وتميزه ووعيه العالي، كان الإمام علي عليه السلام سابقاً إلى الإسلام ليحوز فضيلة السبق ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٣﴾ (٣) سبق إلى الإسلام منذ انبثاق نوره ومن دون أي تردد أو تأخر أو تلكؤ دخل في الإسلام ودخل الإسلام فيه فكان كل قلبه وكل روحه وكل حياته لقد ذاب في الإسلام وامتزج به فكان خلقه الإسلام وكانت قضيته الإسلام، وكانت حياته للإسلام وكان الفدائي الأول في الإسلام.

ولذلك في واقعه في الإسلام في مسارات الإسلام المتعددة والمتنوعة على مستوى الجهاد والأخلاق والروحية والعلاقة بالله سبحانه وتعالى كان الإمام علي عليه السلام متميزاً ففي مسيرته الجهادية وعطائه في سبيل الله لإقامة الإسلام والإسلام يواجه التحديات والمخاطر الكبرى والمؤامرات ويبدأ غريباً في وسط مشرك وكافر لا يقبل به يتحرك لمواجهة يعمل على طمسه يسعى إلى القضاء عليه يحاربه بكل الوسائل والأساليب برز الإمام علي عليه السلام ذلك الجندي المسلم البطل المتميز المتفاني في سبيل الله سبحانه وتعالى وبمواقف متميزة ذكرها التاريخ وسجلها التاريخ (٤).

(١) سورة التحريم: الآية/ ٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الواقعة: الآيات/ ١٠-١٢.

(٤) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

تميزه في جهاده

حياة علي أمير المؤمنين كلها جهاد في سبيل الله تعالى في مرحلة الدعوة وبعد قيام الدولة الإسلامية وإذا كان قد وقى الرسول ﷺ بنفسه وفداه وتعرض لأخطر تأمر جاهلي على حياة رسول الله ﷺ عند مبيته على فراشه في ليلة الهجرة المباركة من أجل أن يصرف عنه شر عتاة الجاهلية فإن علياً قد تحولت حياته بعد الهجرة إلى المدينة المنورة إلى حلقات متسلسلة من ذلك النوع الجهادي العظيم فقد كان حامل لواء الزحف الإسلامي في كل غزوات أخيه رسول الله ﷺ وطلیعة المجاهدين في ساحات الجهاد. وكانت كل مواقف الجهادية من النوع المصيري الذي يحمي الرسالة ويكشف عنها خطر التصفية المحقق والقضاء الخطير على وجودها وسنورد بعض تلك المواقف العظيمة^(١).

وكم أسطر لك من بطولات علي عليه السلام وصفحات جهاده المشرقة التي تشع بالمجد والعزة والإخلاص.

فدونك تاريخ الإسلام في عصره الأول في عهد رسول الله ﷺ فأنعم النظر في صفحاته كي تحدثك بفضل علي على الإسلام رسالة وأمة وتاريخاً. على أن الجانب المعنوي في جهاد الإمام علي ليس مجداً في حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها فحسب وإنما في صدق النية وحجم الإخلاص الذي امتلأ به قلب علي وهو يخوض تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يرد.

ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض فهذا هو القرآن الكريم يثني على علي يوم فدى نفسه رسول الله ﷺ ويكشف بعمق عن صدق علي عليه السلام ﴿ وَمَنْ

(١) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٤ هـ.

النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ (٢٧) ^(١).
 وها هو كتاب الله العزيز يقطع بأن جهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام وبطولاته
 وتضحياته كانت من أجل الله وإعلاء كلمته وإنقاذ عباده ولا يمكن أن تقرن بأي لون
 من ألوان العمل الآخر فبسبب الثمن الباهظ الذي يتطلبه الجهاد وبسبب الدافع
 الإيماني المخلص الذي يحتله علي في دنيا المتقين: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ^(٢) فعلى إثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبه والعباس بن
 عبد المطلب قال فيه طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي. فقال العباس: أنا
 أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها. وفيما كانا يتفاخران مر الإمام عليه السلام فافتخر
 عليهما بقوله: لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فنزل قول الله تعالى في ذلك
 كاشفاً عن المستوى العظيم الذي يتبوؤه علي عليه السلام من ناحية عمله الإسلامي:
 ضخامة وإخلاصاً بعداً وجوهراً.

يقول السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي:

وباختصار فقد كان في كل مواطن الإسلام الكبرى ومعاركه الفاصلة والحاسمة مع
 أعدائه البطل المتميز الرجل المتميز بفدائيته وتضحيته وتفانيه في سبيل الله سبحانه
 وتعالى، فكان هو الذي يتصدى لصناديد الشرك وأبطال الكفر والمردة المتعنتين الذين
 كان لهم شهرة بطولتهم وبراعتهم القتالية والذين كانوا يمثلون أعمدة وأساطين لقوى
 الشرك والطاغوت يعتمدون عليها في محاولتهم للقضاء على الإسلام منذ انبثاق نوره
 وفجره ^(٣).

(١) سورة البقرة: الآية/ ٢٠٧.

(٢) سورة التوبة: الآية/ ١٩.

(٣) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

مبدئية الإمام علي عليه السلام

بقدر الشجاعة التي كان يحملها الإمام علي عليه السلام كان يحمل أيضًا معها مبدئية عالية في الحرب فجسد بكل جدارة المبدئية التي نص عليها القرآن سواء من حيث الروحية التي يجب أن يحملها المجاهدون في سبيل الله أو من حيث السلوك والعقيدة والممارسات والتعامل مع الخصوم، فقد رسم الإمام بشهادة العديد من المفكرين المنهجية الأقوم في الصراع مع الآخرين حتى إن البطل مالك الأشتر النخعي قال كلمة مهمة في الحرب قال: "علمني الإمام علي عليه السلام كيف أقاتل عدوي دون أن أحقد عليه"^(١).

- مبدئية الإمام علي مع خصومه:

- مع طلحة والزبير:

ومما يدل على ما كان يتحلى به الإمام من قيم عظيمة أن طلحة والزبير عندما بايعا الإمام كانا يطعمان في إمرة البصرة والكوفة وعندما لم يحصلوا على ذلك غادرا المدينة بذريعة العمرة وكان الإمام يعرف تمامًا بأنهما لا يريدان العمرة وإنما الغدر والخديعة وقال لهما ذلك إلا أنه رغم هذه المعرفة لم يفتك بهما وهما في قبضة يده وهو قادر على ذلك. ومما قال: ((حتى اجتمع عليّ ملاًكم وبايعني طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر في أوجهها، والنكث في أعينها، ثم استئذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليسا لعمرة يريدان)).

- مع معاوية بن أبي سفيان:

ومما يدل على عظمة الإمام علي أنه لما بويع عليه السلام بلغه: أن معاوية قد وقف من

(١) الدرس الرابع من دروس رمضان للسيد حسين رضوان الله عليه.

إظهار البيعة له وقال: إن أقرني على الشام وأعمالي التي ولائها عثمان بايعته.
فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين فقال له: يا أمير المؤمنين إن معاوية من قد عرفت وقد
ولاه الشام من كان قبلك فوله أنت كيما تتسق عراً الأمور، ثم اعزله إن بدالك.
فقال أمير المؤمنين: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟!
قال: لا.

قال: لا يسألني الله - عز وجل - عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سواد
أبدًا، وما كنت متخذ المضلين عضدًا، لكن أبعثُ إليه وأدعوه إلى ما في يدي من الحق
فإن أجاب فرجلٌ من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبى حاكمته إلى الله.

- مع عائشة:

كان أمير المؤمنين متهيئًا لغزو الشام، حيث أعلن معاوية التمرد على حكومته
ورفض بيعته، وبينما هو جادٌ في تدبير الأمر.. إذ فاجأه الخبر عن أهل مكة وتمردهم
بقيادة طلحة والزبير وعائشة جاعلين من الطلب بدم عثمان ستارًا يخفون وراءه
الأهداف الحقيقية لمطامعهم.

ورأى الإمام أن خطرهم أقوى من خطر معاوية، وشرهم أقوى من شره، وإذا لم
يبادر لإخماد هذه الفتنة فإنه يوشك أن تتسع ويكثر التمرد والاختلاف، فتجهز
للشخص إِيهِم، وتجهزت لنصرته البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار.

وكان الإمام يهدف إلى أن يقضي على الفتنة قبل أن تتسع، ولكنهم سبقوا الإمام إلى
البصرة، وأرسل الإمام إلى جماهير أهل الكوفة يستنجد بهم ويدعوهم إلى نصرته
والقيام معه لإخماد نار الفتنة، حيث بعث في البداية محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر
وزودهما برسالة إلى أهل الكوفة، ولم يحصل تجاوب من قبل أبي موسى الأشعري
والذي كان واليًا على الكوفة.

وبعد مواجهة عنيفة كان لعائشة وجلها الدور البارز فيه، تنجلي المعركة عن هزيمة

طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من المغرر بهم وأصحاب الأطماع، ورغم ذلك يصفح الإمام عن عائشة وعن جميع المعارضين، بما فيهم عبد الله بن الزبير، ونادى مناديه عليه السلام: أَلَا لَا يَجْهَزُ عَلَيَّ جَرِيحٌ، وَلَا يَتَّبِعُ مَوْلِيَّ وَلَا يَطْعُنُ فِي وَجْهِ مَدْبِرٍ، وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ^(١).

ولم يكتف الإمام بهذا بالنسبة لعائشة بل عمل على أن يعيدها إلى المدينة معززة مكرمة لتقر في بيتها كما أمرها الله سبحانه وتعالى.

[معرفته عليه السلام بعظمة وفضل الجهاد في سبيل الله]

ومن أقوال الإمام علي عليه السلام التي تعكس معرفته بعظمة وفضل الجهاد في سبيل الله قوله:

((إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ)) ^(٢).

ويقول:

((فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتَهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِيًا مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ وَمَنْ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرَزَ لِلطَّعَانِ وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجَلَادِ هَبَلْتَهُمْ الْهَبُولَ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ وَإِنِّي لَعَلِّي يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي)) ^(٣).

وفي فضل الجهاد يقول:

((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِحَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَجَنَّتْهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمَلَهُ الْبَلَاءُ

(١) تاريخ أبي مخنف ١/١٤٩، ومروج الذهب ٢/٣٧٦، وفي ظلال التشيع ١١٥، والعقد الفريد ٤/١٣٠-١٣٢.

(٢) نهج البلاغة ١/١٨٢.

(٣) نهج البلاغة ١/٦٤.

وَدَيْتَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ وَضْرَبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ
وَسِيمِ الْحَسَفِ وَمُنِعَ النَّصْفِ))^(١).

ويقول:

((إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ
وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ))^(٢).

وفي وصيته الأخيرة يقول لأولاده وشيعته:

((اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))^(٣).

من وصايا الإمام المهمة

ومن وصايا الإمام علي عليه السلام في الحروب لجنوده التي تعكس هذه المبدئية والقيم
العالية نورد بعض تلك النصوص.

فمن وصية له عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدو بصفين:

((لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى
يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا كَانَتْ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَلَا
تُصِيبُوا مُعَوَّرًا وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ
وَسَبَبْنَ أَمْرَاءَكُمْ فَأَمْتِنَنَّ ضَعِيفَاتُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ إِنْ كُنَّا لِنُؤْمِرُ بِالْكَفِّ عَنْهِنَّ
وَإِنَّهِنَّ لَمْشِرِكَاتٌ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ فَيَعِيرُ بِهَا
وَعَقْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ))^(٤).

(١) نهج البلاغة ١/ ٦٩.

(٢) نهج البلاغة ١/ ١٦٣.

(٣) نهج البلاغة ٢/ ٤٢٢.

(٤) نهج البلاغة ج ١ ص ٣٧٣.

هذا نموذج لما أثر من تعاليم وآداب وقيم ومبادئ للحرب عند الإمام علي عليه السلام والتي تعكس أيضًا روحية القرآن الكريم وتعاليمه ومبادئه وقيمه.

ومما كان يقول عليه السلام مستنكرًا حالة التخلي عن القيم والمبادئ:

((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْفَى مِنْهُ وَمَا يَغْدُرُ مَنْ عِلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدْ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْسًا وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ قَدْ يَرَى الْحَوَّلَ الْقَلْبُ وَجَهَ الْحِيلَةَ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَمَنْبِهِ فَيَدْعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيحَةَ لَهُ فِي الدِّينِ))^(١).

وتحدث عمن قال في دور حكومته من عبث الشهوات والمناصب بأنه لا دراية له في شؤون السياسة وأن معاوية خبيرٌ بها وخليقٌ بإدارة دفة الحكم.

فقال عليه السلام: ((وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَدَهَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدُرُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدَهَى النَّاسِ وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَعْرِفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أُسْتَغْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ))^(٢).

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٣.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٣١٨.

باب مدينة علم الرسول

الإمام علي عليه السلام كان في كل مواطن الإسلام الكبرى وأمام التحديات والأخطار على وجود الإسلام كان الجندي المتميز بطل الإسلام العظيم والمتميز بأخلاق الإسلام لم يكن وحشًا، الإمام علي عليه السلام لم يكن وحشًا، لا.. كان يحمل أخلاق الإسلام وكانت قوته من قوة إيمانه ومن قوة ما يحمل من مبادئ وأخلاق وعلاقة وطيدة بالله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى أمدّه بمددٍ معنويٍّ عظيمٍ وهائل جعله في ذلك المستوى، ثم هو في بقية الميادين رجل متميز في مدرسة الإسلام الكبرى.

عندما نأتي إلى علمه يبرز متميزًا فالرسول ﷺ يقول: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))^(١) فهو باب مدينة علم الرسول ﷺ لازم الرسول ﷺ وبها منحه الله من ذكاء واستيعاب وأذن واعية كان يستوعب مما يقدمه الرسول ﷺ من العلوم والمعارف والهدى والحق ما لم يكن يستوعبه غيره، وهو ذلك الذي كان الجميع بعد وفاة رسول ﷺ يرجعون إليه عند المعضلات وما كان يرجع إلى أحد منهم، يرجعون إليه يستفتونه يسألونه محل لهم معضلات المسائل، وترك للأمة ميراثًا متميزًا من العلم والحقائق والنور لا يزال قائمًا إلى الآن، وسيبقى قائمًا ما بقي الإسلام، وسيبقى الإسلام قائمًا ما بقيت الحياة وما بقيت الأرض^(٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/١٢٦، وقال: هذا حديث صحيح. والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل. وابن المغازلي في مناقبه ص ٧٢. والسيوطي في اللآلئ المصنوعة، ١/ ٣٣٤. وتاريخ ابن عساكر ٢/ ٤٦٤. وأخرجه العقيلي وابن عدي والطبراني والحاكم، وابن عدي أيضًا والحاكم من حديث جابر. وأخرج الترمذي من حديث علي عليه السلام بلفظ: ((أنا دار الحكمة وعلي بابها)). وللمزيد يرجع: تحرير الأفكار والغارة السريعة، للسيد العالم المجاهد بدر الدين الحوثي رحمه الله.

(٢) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

العطاء المعرفي للإمام:

يقول السيد حسين رضوان الله عليه:

((علي، بطلٌ بدرٍ وأحدُ والأحزابِ وحُنينٍ وخيبرٍ، بطلٌ صفيينَ والجملِ والنهرِوانِ، علي الذي لم يكن فقط يذهل العقول في ميادين الجهاد وإنما كان أيضًا ينير الدروب بكلماته المباركة، بتوجيهاته النيرة، ببلاغته الخارقة. إنه ربيب محمد، وحليف وقرين القرآن)) ملزمة الإرهاب والسلام.

فلم يكن العطاء الفكري العظيم الذي أسداه الإمام ﷺ للإنسان إلا حصيداً طبيعية للإعداد الخاص الذي توفر للإمام من لدن رسول الله ﷺ منذ طفولة الإمام حتى آخر ساعة من حياة الرسول ﷺ. لقد كان ذلك الإعداد النبوي منصباً على جميع جوانب شخصية الإمام من أجل تأهيله فكرياً ونفسياً ليوصل الطريق التي سار عليها النبي ﷺ ويكون امتداداً للنبي ﷺ وبديلاً عنه في غيابه عن مسرح الحياة. ليقول فيه النبي ﷺ: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)) مبيناً المكانة العظيمة والسامية التي يتبوها الإمام علي ﷺ في الجانب المعرفي وتدعو الأمة صراحة إلى وجوب أخذ معارف التشريع الإلهي عن طريقه؛ فمنه تستمد الأمة الهدى، وخلفه تسلك الصراط المستقيم الذي سيوصلها إلى الله سبحانه وتعالى وجنته كما هي السنة الإلهية في الهداية لتبقى الأمة موحدة قوية تعيش الاستقرار التشريعي الذي عاشته أيام النبي ﷺ. لقد كان يقول: ((علمني رسول الله ألف باب من العلم كل باب يفتح لي ألف باب))^(١) كان يخاطب أصحابه بأن صدره يحمل علماً عظيماً تلقاه من رسول الله ﷺ لو وجد له حملة أمناء يتصدون لحملة وتبليغه لأودع بعض علمه لديهم. (إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْمًا جَمًّا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً)^(٢).

ويتحدث عن المخزون العلمي الكبير بما في ذلك علوم قد يختار الناس عند سماعها ومما قال: ((بَلِ انْدَجَجَتْ عَلَيَّ مَكْنُونٌ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَأَضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ فِي

(١) لوامع الأنوار للسيد العلامة مجد الدين المؤيدي رحمه الله عليه ١ / ٤٣٨.

(٢) لوامع الأنوار للسيد العلامة مجد الدين المؤيدي رحمه الله عليه ٢ / ٤٩٦.

الطَّوِيِّ الْبُعِيدَةَ»^(١). ففكر الإمام وإن كان رسالياً هادفاً إلى خدمة الرسالة الإلهية وحملتها وعاملاً على دفع عجلة مسيرة الإسلام التاريخية إلى الأمام فإنه يبقى منهالاً عذباً لتصيب منه الإنسانية بشتى نحلها واتجاهاتها الفكرية وهو كفيل بهدايتها إلى الحق وإلى صراط مستقيم.. وأمامك نهج البلاغة بما حواه من علوم في شتى مجالات الحياة وهو ليس إلا عَرَفَةٌ من ذلك البحر الزاخر بالعلم والمعرفة لكن الأمة خسرت خسارة فادحة إذ فرطت في هذا الإمام العظيم ليكون البديل هو الجهل والضياع والغباء.

عودة أبي بكر وعمر وعثمان إليه في بعض الأمور والمعارف:

وفي عهد أبي بكر واجه - وهو الخليفة - مشكلة في معنى بعض مفردات القرآن أخرجته كثيراً، فقال في التخلُّص منها قولاً عجيباً، فبلغ ذلك أمير المؤمنين فعجب لتوقف أبي بكر في هذه المفردة، ثمَّ لكلامه في التخلُّص منها.

سئل أبو بكر عن معنى ((الأب)) في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾^(٢)، فتحرَّر في معناها، فقال: أيُّ سماء تظلُّني أو أيُّ أرضٍ تقلُّني: أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله تعالى بما لا أعلم؟! أمَّا الفاكهة فنعرفها، وأمَّا الأبُ فالله أعلم به!

فبلغ مقاله هذا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: ((يا سبحان الله! أما علم أنَّ الأبَّ هو الكلاء والمرعى؟! وأمَّا قوله عزَّ اسمه: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾^(٣) اعتدادٌ من الله سبحانه بإنعامه على خلقه فيما غدَّاهم به وخلقهم لهم ولأنعامهم، مما تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم))^(٤).

ونحو هذا في جوابه عليه السلام في معنى الكلالة، بعد أن تحرَّر فيها أبو بكر وتردَّد في معناها^(٤).

(١) نهج البلاغة ١ / ٥٢.

(٢) سورة عبس: الآية / ٣١.

(٣) الإرشاد ١ / ٢٠٠.

(٤) أنظر المصدر السابق ١ / ٢٠٠ - ٢٠١.

عمر يستشير الإمام:

واصل عمر حروب الفتوح، فبعث المشني بن حارثة الشيباني في مواصلة تلك الحروب في نواحي العراق، فهزمهم الفرس ففرُّوا إلى الأطراف، فوقف عمر من أمره حائراً، وأخذ يستشير الصحابة في أن يخرج هو بنفسه في مواصلة الحرب..

ولما استشار علياً عليه السلام نهاه عن الخروج لعلمه بأن هناك من هو أشجع من عمر قائلاً: ((نحن على موعدٍ من الله، والله منجزٌ وعده، وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكانُ النظام من الخرز، يجمعه ويضمُّه، فإذا انقطع النظام تفرَّق الخرز وذهب، ثمَّ لم يجتمع بحذافيه أبداً، والعرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً، واستدر الرحا بالعرب.

إنَّك إن شخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهمُّ إليك ممَّا بين يديك. إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدُّ لقلبهم عليك، وطمعهم فيك))^(١).

وبحقَّ إنَّ كلَّ كلمة من كلمات هذه الخطبة تعكس لنا عظمة علم الإمام عليه السلام.. وتنمُّ عن شخصيته المجلِّلة بالكمال والحكمة والصدق، وكذلك معرفته بأن عمر لن يصمد إن خرج على رأس الجيش، فاستبشر عمر بهذه النصيحة العظيمة وعمل بها لأنها مثلت له مخرجا من ورطة محققة..

أمَّا أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان لا يألوا جهداً ليقدم للمسلمين، ويحافظ على الشريعة المطهرة، ويمنع من مخالفتها قولاً أو فعلاً، في أكثر الموارد التي أوضح فيها المشكلات على عمر وحال دون تطبيق أحكام منها على خلاف الكتاب والسنة، بحيث

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٢/٤٥٨، تاريخ الطبري ٣١/٥، شرح ابن أبي الحديد ١٢/٥٣ - ٥٤، والآيات حسب التسلسل، سورة محمد: ٩، سورة القلم: ٤، سورة الشعراء: ٢١٥، سورة القصص:

لو سكت لكانت أحكاماً تتبّع، حتى قال فيه عمر: ((لولا عليٌّ لهلك عمر))، ((أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن)).

ومن الأمور التي أشار الإمام علي ابن الخطّاب هو أن يدوّن التاريخ الإسلامي، وأن يجعل أول عام في تاريخ المسلمين هو عام الهجرة، حيث لم يكن للناس تاريخ خاص يؤرّخون فيه، فبعضهم كان يؤرّخ بعام الفيل، وآخرون يعتمدون في تاريخهم تأريخ الدول المجاورة لهم.. ممّا سبّب الكثير من المشاكل والخلافات، لذلك عزم ابن الخطّاب علي أن يضع للمسلمين تاريخاً يعتمدونه في أمورهم.

ولمّا رأى اختلاف الصحابة توجّه إلى الإمام عليه السلام - كعادته - بعد أن خاف أن يتفرّق أصحابه؛ لأنهم وقعوا في اختلاف شديد.. لمّا أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام اتّجه إليه يسأله، فقال عليه السلام: ((نورّخ بهجرة الرسول من مكّة إلى المدينة)) فأعجب ذلك الخليفة وكلّ الصحابة، وهتف عمر يقول: ((لازمت موفّقاً يا أبا الحسن))، فأرّخ بأهمّ حدثٍ تاريخي عظيم، هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبداية عهد جديد في انتصارات عديدة، كما مرّ سابقاً..

وفي هذه الفترة ظهر من الإمام عليّ أمور كثيرة وتعلّم الناس منه الكثير من العلوم، وكان مرجع المسلمين والمحافظة على الأحكام.

من روائع الإمام

في رسائل الإمام علي وفي عهوده ووصاياه وفي خطبه وسائر أقواله روائع خالدة مثلت تراثاً عظيماً للإنسانية بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصة والعامة لا تسمو عليه دساتير المفكرين والحكام في مختلف العصور والأمكنة.

ومن تلك الروائع:

من وصيته لابنه الحسن في صفين:

((يَا بَنِيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ؛ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هَدَيْتَ لِقُضْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِزْتِيَادِ وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكُونُ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُؤَاغِبُكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمَلْهُ إِيَّاهُ وَأَكْثِرْ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ وَاغْتَنِمْ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَوُودًا الْمُخِيفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ وَالْمُبْطِئِ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِذَا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ))^(١).

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٩٨.

وَقَالَ عليه السلام: ((أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ))^(١).

وَقَالَ عليه السلام: ((خير المقال ما صدقته الفعال)).

وَقَالَ عليه السلام: ((أقبح الصدق ثناء المرء على نفسه)).

وَقَالَ عليه السلام: ((لا تعمل الخير رياء ولا تتركه حياء)).

وَقَالَ عليه السلام: ((لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: إِنَّ حُزْنَنا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُورِهِمْ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَعْضًا وَنَقَصْنَا حَبِيبًا)).

وَقَالَ عليه السلام: ((مَا ظَفَرَ مَنْ ظَفَرَ الْإِثْمَ بِهِ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ)).

وَقَالَ عليه السلام: ((من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه)).

وَقَالَ عليه السلام: ((أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ)).

وَقَالَ عليه السلام: ((مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اسْتَعْلَى عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَجْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ)).

وَقَالَ عليه السلام: ((لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلعة من يسلكه)).

وَقَالَ عليه السلام: ((عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْذُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ)).

وَقَالَ عليه السلام: ((عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب وبالعدل على الصديق والعدو)).

وَقَالَ عليه السلام: ((كَفَى أَدْبًا لِنَفْسِكَ مَحَبَّتَكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ...)).

وَقَالَ عليه السلام: ((لتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك)).

وَقَالَ عليه السلام: ((خَالِطُوا النَّاسَ مُحَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عَشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ)).

وَقَالَ عليه السلام: ((في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال)).

وَقَالَ عليه السلام: ((لا تكن عبدًا لغيرك وقد جعلك الله حرًا)).

تميزه في الرحمة والإحسان

أما عندما نتحول إلى بعد آخر في شخصية هذا الرجل المتكامل في إيمانه المتكامل في إسلامه فمع أنه في مواطن التحدي في مواجهة الأخطار رجلٌ صلب وثابت ورجل بأس وشدة لكنه في مواطن الرحمة متميز برحمته بعطفه بإيثاره. سطوته وجبروته وقوته في مواجهة الظالمين والطغاة والجبابة والمستكبرين وصناديد الكفر، أما مع المساكين أما مع الناس الآخرين فهو كله رحمة وكله عطف لا يوجد هناك شيءٌ من بأسه وجبروته وقسوته، لا.. كله عطف وكله حنان وكله رحمة وكله لطف؛ ولذلك ذكر لنا القرآن الكريم وسجل موقفاً يدل على مدى رحمته وإيثاره وعطفه وحنانه المتميز سجله في سورة الإنسان في موقفٍ مشهور معروف له ولزوجته فاطمة الزهراء (رضوان الله عليهما) تلك الأسرة النبوية الكريمة العظيمة فيما تحمله من قيم في صيامهم ومع غروب الشمس ودخول الليل وحن وقت الإفطار وأتى وقت العشاء بجوعهم ولديهم القليل من الطعام، في وضع اقتصاديٍّ صعب عاشوه في تلك المرحلة يأتي إليهم ذوو الحاجة من الناس، المسكين واليتيم والأسير فكان الموقف الذي سجله لهم القرآن الكريم ﴿ وَيُطْعَمُونَ الْأَطْعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ ﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ (١) بكل رحمة بكل عاطفة بكل محبة ومن واقع إيماني قائم على الخوف من الله وعلى ابتغاء مرضاته وعلى السعي للحصول على رحمته يقدمون طعامهم وهم في أشد الحاجة إليه ويصبرون على جوعهم ويؤثرون أولئك ذوو الحاجة والفقر والشدة، المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم هكذا يبرزون ويقدمون قيم الإسلام بأرقى صورة بأجمل صورة (٢).

(١) سورة الإنسان: الآيتان/ ٨-٩. أنظر تفسيرهما في الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل من عدة طرق، والمحقق المحمودي في حاشية فرائد السمطين ٥٤/٢ في الفصل من مناقب الخوازمي، ومحمد بن سليمان الكوفي في مناقبه، وللمزيد حول الآيات الكريمة يطالع كتاب الغارة السريعة للسيد بدر الدين الحوثي رحمه الله ص ٣١٦.

(٢) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

تميزه في عبادته

سنورد هنا صورة واحدة من صور الاتصال بالله والتضرع إلى الله تعالى لدى أمير المؤمنين عليه السلام يروي أبو الدرداء في حديث قال: شهدت علي بن أبي طالب بشوحيحات النجار وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات النخل فافتقدته وبعد عن مكانه، فقلت ألحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين، ونغم شجي، وهو يقول: ((إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك ولا أنا براج غير رضوانك)).

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال: ((إلهي أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي)).

ثم قال: ((آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملاء إذا أذن فيه بالنداء)) ثم قال: ((آه من نارٍ تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى)) قال أبو الدرداء: ثم أمعن في البكاء فلم أسمع له حسًا ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر.

فأتيته فإذا هو كالحشبة الملقاة فحركته فلم يتحرك وزويته فلم ينزو فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب فأتيت منزله مبادرًا أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟ فأخبرتها الخبر فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشبية التي تأخذه من خشية الله.

ثم أتوه بقاء فنضحوه على وجهه فأفاق ونظر إلي وأنا أبكي فقال ممّ بكائك يا أبا الدرداء؟ فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثاني: مكانته وبعض مميزاته ووصاياه عليه السلام

فقال: ((يا أبا الدرداء فكيف لو رأيتني وقد دعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ فوقفت بين يدي الملك الجبار قد أسلمني الأحياء ورفضني أهل الدنيا لكنت أشد رحمة بي بين يدي من لا تحفى عليه خافية)). هذا شاهد من شواهد تعلق الإمام عليه السلام بالله تعالى وشدة انشداؤه إليه ورهبته منه.

وهكذا كان علي عليه السلام في شدة تعلقه بالله وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء عليهم السلام إنه ترجمة صادقة لعبادة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تميزه في عدله

عندما نأتي إلى بعد آخر من أبعاد شخصية الإمام علي، علي المؤمن المتكامل في إيمانه عندما نأتي إلى عدله عندما ولي أمر الأمة وأصبحت رقعة جغرافية واسعة تحت حكمه وسيطرته لم يستغل موقعه ليعزز نفوذًا أو ليملك ثروة، أو ليظلم أو لينتقم أو يتجبر، بل سعى بكل جهده وهو يحمل قيم الإسلام وأخلاق الإسلام ليحقق العدل ويقيم الحق في واقع الأمة مواجهًا كل المعاناة والشدائد والمشاق والصعاب والعوائق الكبيرة التي كانت أمامه وبخوف كبير من أن يظلم أي ظلم وقال كلمته المشهورة: ((وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتُ أَفْلَاقِهَا عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ))^(١).

ما فعلت.. هذه روحية الإسلام أخلاقه فهو من موقعه في السلطة وهو يلي أمر الأمة يخاف كل الخوف، وبعيد كل البعد، ويحذر كل الحذر أن يكون من أي ظلم ولو بهذا المقدار، لو كان هناك من وراء قليل من الظلم أن يسلب نملة شعيرة، حبة شعير، نملة واحدة يسلبها قطعة من حبة شعير وأن يكون ما يحققه هذا الظلم القليل القليل مكاسب كبيرة جدًا الأفلاك الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ما فعلت؛ لأنه يرى ولو كان ما يكون من مكاسب مادية أو سياسية وتكون الوسيلة إليها والسبيل للوصول إليها هو قليل قليل من الظلم ليس مقبولًا في أخلاق علي ولا مستساغًا ولا الغاية تبرر الوسيلة، نأتي إلى كثير كثير ممن يحسبون على الإسلام توجهات قيادات تحت مسميات كثيرة مستعدون أن يهلكوا الأمة أن يصادروا الأمة أن يلحق بالأمة أي شيء مهما كان من الظلم أي قدر أي مستوى من الظلم مقابل أن يحصلوا على قليل قليل من المكاسب السياسية قليل قليل من المكاسب المادية، والإمام علي بروحيته العظيمة المتميزة روح الإسلام أخلاق الإسلام أثر القرآن أثر التربية النبوية الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها

(١) نهج البلاغة ج ١ ص (٣٤٧).

بقليلٍ قليلٍ من الظلم لا يلحق بالناس ولا يبشر بل بنملة، بنملة لم يكن ليفعل .
 دخل عليه ابن عباس أحد أنصاره وأحد قاداته دخل عليه (بذي قار) وهو في طريقه
 إلى حرب الجمل وهو يخصف نعله بنفسه فقال عليه السلام يخاطب ابن عباس ((مَا قِيَمَةٌ هَذَا
 النَّعْلِ)) واحدة من حذائه، ما قيمة هذه النعل؟ فقال ابن عباس: ((لَا قِيَمَةَ هُنَا)
 فَقَالَ عليه السلام: ((وَاللَّهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أُدْفَعَ بَاطِلًا))^(١) الإمرة
 والسلطة والموقع الأعلى في القيادة ليس له أي قيمة عند علي عليه السلام إذا لم يكن لإحقاق
 حق إذا لم يكن لدفع باطل إذا كان فقط لمجرد التحكم والسيطرة والتسلط، وأن يكون
 الإنسان يحظى بمسمى وظيفي عالٍ ويكون لديه صلاحيات واقتدار يحقق لنفسه
 مكاسب شخصية، فهو بورٌّ، هو جهنم، هو عذاب، هو شقاء، ليس له أي قيمة بل
 ووبال علي صاحبه ((والله - واحدة مفردة واحدة من حذائه نعل - هي أحب إلي من
 إمرتكم هذه إلا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلًا)) فالقيمة للموقع في السلطة والاقتدار
 الذي يكسبه الإنسان من موقعه في السلطة هي بقدر ما تقيم من الحق وبقدر ما تدفع
 من الباطل بقدر ما تقيم من العدل وتحققه من العدل، فهكذا هو علي عليه السلام في عدله
 وكان فعله مصداقًا لقوله، وسيرته تشهد وتاريخ حكمه - برغم ما واجهه من المشاق
 والعوائق الكبيرة - متميز^(٢) .

لقد جاءت الخلافة للإمام علي عليه السلام في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد فذوو
 النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا إليه وليس يسيرًا أبدًا أن يدعوا لأية
 محاولة إصلاحية تضر بمصالحهم الذاتية.

ثم إن المطامع قد تنبعت لدى الكثير من الرجال بعد أن تحولت الخلافة مغنمًا لا
 مسؤولية لحماية الشريعة والأمة ولقد كان الإمام عليه السلام مدركًا لحقيقة الموقف بدقائقه
 وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل
 عثمان قائلاً: "دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له

(١) نهج البلاغة ج ١ ص (٧٦).

(٢) من محاضرة السيد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣ هـ.

القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت".
 وبعد إصرار من الجميع قبل الإمام بشروط، ومما قال: ((وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَحْبَبْتُكُمْ
 رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أَضْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ))^(١).
 وقد كانت أول مهام الإمام أن يجسد العدالة الاجتماعية في دنيا الناس ويمنح المنهج
 الإسلامي فرصة البناء والتغيير على شتى الأصعدة. ومن جمل الإصلاحات التي قام بها:
 استرجاع الأموال التي تصرف بها بنو أمية من بيت مال المسلمين.
 قام بعزل الولاة الذين أساءوا التصرف وخالفوا أمر الله تعالى وتخطوا نهجه الأقوم
 الذي ارتضاه لعباده.

تبنى سياسة في توزيع المال والحقوق. وكان يقول: ((المال مال الله يقسم بينكم
 بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد)).
 ((ألا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار
 وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرققة إذا منعتم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى
 حقوقهم التي يعلمون: حرنا ابن أبي طالب حقوقنا)).
 وكان يقول:

((وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءَ لَرَدَدْتُهُ فَإِنَّ فِي العَدْلِ سَعَةً وَمَنْ
 ضَاقَ عَلَيْهِ العَدْلُ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ))^(٢).

وكان منهج علي في العدل هو منهج الرسول صلوات الله وسلامته عليه بالذات. كان يقول: ((وَاللَّهِ لَأَنْ
 آيَتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا أَوْ أُجْرَ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ
 وَرَسُولَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ العِبَادِ وَعَاصِبًا لشيءٍ مِنَ الحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمَ أَحَدًا
 لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى البَلِيِّ فُقُوهُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُوهُهَا؟! ... وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ

(١) نهج البلاغة ١/ ١٣٦.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٧.

السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُبْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَدَّةٍ لَا تَبْقَى ..

وَإِيمُ اللَّهِ لِأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ وَلَا تَقُودَنَّ الظَّالِمُ بِخِرَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا))^(١).

على أن تعاهد أمر الأمة من لدن علي عليه السلام ليس محصورًا في إطار المال وتوزيعه وإنما يمتد لكي يشعر الإنسان بكرامته ويعد وعيه في الحياة الحرة الكريمة ويعلمه أن يتمرّد على الظلم والكبت، وكان يقول: ((وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا))^(٢).

وكان يقول: ((فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالَ فِي حَقِّ قِيلَ لِي وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنْ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةٍ بَعْدِلٍ))^(٣) وتمتد ظلال العدالة في عهد أمير المؤمنين عليه السلام فيرعي أسواقهم من ناحية المكايل والمعروض من السلع وطبيعة المعاملات فيها فيخرج كل يوم يتفقد أسواق المسلمين بنفسه فيرشد الضال ويهدي المقصر إلى طريق الحق ويأمر بكل معروف وينهى عن كل منكر.

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) نهج البلاغة ٢ / ٤٠٢.

(٣) نهج البلاغة ١ / ٣٣٦.

أمير المؤمنين يجسد العدل قولاً وعملاً:

لشدة حرص الإمام على تطبيق العدالة الإسلامية بأروع صورها في دنيا الناس وعلى شتى الأصعدة وحرصه على تقديم الدين بجماله وكماله أنه وجد درعه عند رجل نصراني وهو يستطيع أن يأخذه بالقوة ولن يلومه أحد في ذلك فوقف معه أمام قاضيه ليقاضيه في الأمر فقال الإمام: إنها درعي لم أهب ولم أبع، فسأل القاضي الرجل النصراني ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال الرجل: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت القاضي للإمام عليه السلام طالباً بيّنة تشهد أن له الدرع، فضحك الإمام عليه السلام معلناً أنه لا يملك بيّنة من ذلك النوع. ففضى القاضي بأن الدرع للنصراني؛ فأخذها ومضى والإمام ينظر إليه.

إلا أن الرجل عاد وهو يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه.

الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين وقد كنتُ كاذباً فيما ادعيت.

ويعلن الرجل إسلامه ويمنحه الإمام الدرع هدية منه ويخلص في الوقوف تحت راية الإمام عليه السلام مؤمناً مجاهداً ذائداً عن رسالة الهدى.

وقد كان الإمام حريصاً على إلزام ولاته وقضاته وقادة جيوشه وجباة الأموال بالتزام العدل في معاملة الناس وتحري الحق في الحكم والقضاء وإعطاء الحقوق وفي جمع المال حتى في حالات الحرب وسواها.

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة: ((سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ))^(١).

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٦٥.

وكان يوجه ولاته بتحري العدل والإنصاف ومن ذلك ما ورد في عهده لمالك الأشر:

((أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمَ وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَّدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ، وَلَيْكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعْمَقُهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ وَإِنْ سُخِطَ الْخَاصَّةُ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْوَنَةً فِي الرَّخَاءِ وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَأَبْطَأَ عُدْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ))^(١).

وكان يشدد على جنوده في حالات الحرب ألا يبدؤوا بقتال العدو حتى يبدأهم بالحرب ولا يقتلوا من ولى دبره عن قتالهم ولا يقتلوا الجريح ومن عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب ولا يؤذوا النساء بشيء حتى وإن بدأن بسب أو شتم.

أرأيت عدلاً ربيعاً كهذا العدل؟ بل هل حدثك التاريخ الإنساني عن رجل يجب الخير حتى لخصومه الذين ناصبوه العداة؟ إنه علي صاحب القلب الكبير الذي شمل الناس بحب غامر فبسط لهم العدل في حياتهم وأشعرهم بحقيقة الكرامة الإنسانية ووفر لهم غطاء من الأمن والاستقرار في جو الشعور بالحياة الحرة الكريمة.

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٢٩.

وفي وصايا الإمام علي عليه السلام لجيوشه وجباة المال والولاية مؤشرات أخرى على التزامه لمنهاج اللاعدوان على أحد كائنًا من كان.

واسمع عليًا أمير المؤمنين عليه السلام وهو ينص في عهده لمالك الأشر علي وجوب التزام الرفق بالناس وعدم التعامل بأي لون من ألوان البغي والتعالي على الناس وغمط حقوقهم المفروضة في شرع الله العظيم: ((وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَعْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلُّ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْلُ وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا فَاَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ))^(١). ولم يكن منهاج علي عليه السلام هذا خاصًا بأهل مصر وإنما هو منهاجه الشامل لكل البلاد التي رفرت راية دولته الكريمة عليها. ولقد كان الإمام عليه السلام يعهد إلى ولاته في الأمصار مثل الذي عهده إلى مالك الأشر في وجوب إشاعة العدل والرفق بالناس وعدم البغي عليهم بحال من الأحوال أو معاملتهم بأي لون من ألوان الظلم.

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٢٧.

الباب الثالث
مع رسول الله في اللحظات
الأخيرة وما بعدها



الحدث الأول

- سرية أسامة بن زيد -

سرية أسامة بن زيد، هي آخر سرية في حياة النبي صلوات الله عليه واله، جاء في طبقات ابن سعد أنه لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين في صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله صلوات الله عليه واله أمر رسول الله الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد، فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتكم هذا الجيش، فأغر صباغًا على أهل ابني (إحدى المناطق) وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.. وقد أثبتت المصادر التاريخية أن في هذا الجيش أناسًا من كبار الصحابة، منهم أبو بكر وعمر^(١).

يوم الأربعاء بدء رسول الله، فحمّ وصدّع.. والخميس، عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال: أغز باسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله.. فخرج.. فعسكر بالجرف.. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب.. أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم.. تكلم قوم، وقالوا: (يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين)، وفي كامل ابن الأثير تكلم المنافقون في إمارته، وقالوا: (أمر غلامًا على جلة المهاجرين والأنصار)^(٢) وفي تاريخ اليعقوبي: (تكلم قوم، وقالوا: حدث السن وابن سبع عشرة سنة)^(٣) غضب رسول الله، فصعد المنبر، وقال^(٤): لئن طعتم عليه، فقبله طعتم على أبيه وإن كانا لخليقين بالإمارة^(٥) جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه^(٦).

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ٤/٦٦، ترجمة أسامة بن زيد، تهذيب تاريخ دمشق ٢: ٣٩٥، ٣/٢١٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ٢/٣١٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/١١٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١٩٠.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/١١٣ دار صادر بيروت ١٩٦٠. راجع أيضًا: ص البخاري، المغازي ٣٩١٩، صحيح

مسلم، فضائل الصحابة، مسند أحمد، مسند المكثرين ٤٤٧١.

(٦) الشهرستاني، الملل والنحل ١/٢٣، شرح النهج ٢/٢١.

نزل النبي فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول.. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ويمضون إلى العسكر بالجرف.. ثقل النبي.. وراح يقول: أنفذوا بعث أسامة.. الأحد اشتد برسول الله وجعه، فدخل أسامة والنبي مغمور فطأ رأسه فقبله.. رجع أسامة إلى معسكره.. دخل يوم الاثنين.. أصبح رسول الله معفياً، فقال: اغد على بركة الله... ودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فيينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه، أم أيم، قد جاءه يقول: إن رسول الله يموت! فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله وهو يموت، فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة^(١).

لما كثر التنازع عند رسول الله ﷺ، كما رأينا سابقاً بشأن الكتاب، وخرجوا من عنده، قال: ((رُدُّوا عَلَيَّ أَخِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ)). ولما حضر قال: ((ادن مني)) فدنا منه فضمَّه إليه، ونزع خاتمه من يده، فقال له: ((خُذْ هَذَا فَضَعْهُ فِي يَدِكَ)) ودعا بسيفه ودرعه ولائته، فدفع جميع ذلك إليه، وقال له: ((اقبض هذا في حياتي)) ودفع إليه بغلته وسرجها وقال: ((امضِ على اسم الله إلى منزلِك))^(٢).

وكان عليٌّ عليه السلام لا يفارقه إلا لضرورة، ولما خرج لبعض شأنه قال لهم: ((أدعوا لي أخي وصاحبي)) وفي رواية: ((ادعوا لي حبيبي)) فدعوا له أبا بكر، فنظر إليه، ثم وضع رأسه، ثم قال: ((ادعوا لي حبيبي)) فدعوا له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ((ادعوا لي حبيبي)) فقالت أم سلمة: أدعوا له علياً، فدُعي أمير المؤمنين عليه السلام، فلما دنا منه أوماً إليه فأكبَّ عليه، فناجاه رسول الله ﷺ طويلاً^(٣) ولما سُئِلَ عن ذلك قال:

(١) طبقات ابن سعد ٢/١٩٠.

(٢) ذكرت بعدة صيغ في كلِّ من: صحيح مسلم - كتاب الوصية ٣/١٢٥٧ ح ١٦٣٧، مسند أحمد ١/٢٢٢، مسند أبي يعلى ٤/٢٩٨ ح ٢٤٠٩ البداية والنهاية ٥/٢٠٠، الطبقات الكبرى ٢/١٨٨، صحيح البخاري - كتاب المرضى ٧/٢١٩ ح ٣٠، الكامل في التاريخ ٢/١٨٢، إعلام الوري ١/٢٦٥، تاريخ ابن خلدون ٢/٤٨٥ تحقيق الأستاذ خليل شحادة وسهيل زكار، الملل والنحل - المقدمة الرابعة: ٢٩.

(٣) إعلام الوري ١/٢٦٦ - ٢٦٩.

((عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَتَحَّ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ))^(١).

ولما قرب خروج تلك النفس الطيبة إلى جنان الخلد وسدرة المنتهى قال له: ((ضع رأسي يا عليُّ في حجرِك، فقد جاء أمر الله عزَّ وجلَّ فإذا فاضت نفسي، فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثُمَّ وَجَّهني إلى القبلة وتولَّ أمرِي، وصلِّ عليَّ أوَّلَ الناسِ، ولا تفارقني حتَّى تواريني في رمسي، واستعن بالله عزَّ وجلَّ))^(٢).

ثمَّ قضى رسول الله ﷺ، ويد أمير المؤمنين اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه، فرفعها إلى وجهه فمسحها بها، ثُمَّ وَجَّهه وغمَّضه ومدَّ عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره..

ولما أراد عليُّ ﷺ غسله استدعى الفضل بن العباس، فأمره أن يناوله الماء، بعد أن عصَّب عينيه، فشقَّ قميصه من قبل جيبه، حتى بلغ به إلى سرِّته، وتولَّى غسله وتحنيطه وتكفينه، والفضل يناوله الماء، فلمَّا فرغ من غسله وتجهيزه تقدَّم فصلَّى عليه^(٣).

هذه خاتمة ثلاثين عاماً من الجهاد مع هذا الإنسان العظيم المسجى اليوم بين يدي عليِّ بن أبي طالب، فكانت النهاية أن وارى جسده التراب وما أصعبها من نهاية!!

أمَّا البداية فقد احتضن محمَّد بن عبدالله عليّاً في حجره وهو وليد، وها هو عليُّ يحتضن محمّداً على صدره في آخر رفق من حياته..

ولنقرأ ما قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ وهو يصفُ هذه الخاتمة المؤلمة: ((ولقد قبض رسول الله ﷺ، وإنَّ رأسه لعلى صدري، ولقد سألت نفسه في كفي، فأمررتُها على وجهي، ولقد وُلِّيتُ غسله ﷺ والملائكة أعواني، فضجَّت الدار والأفنية: ملاً يهبط،

(١) أنظر الحديث بألفاظه المتقاربة في: ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق ١٧/٣ ح ١٠٣٦، الرياض النضرة ١٤١/٣، ذخائر العقبين: ٧٣، المناقب للخوارزمي: ٢٩.

(٢) كنز العمال ١٣/١١٤ ح ٣٦٣٧٢، ورواه ابن عساكر في تاريخه كما في ترجمة الإمام عليٍّ منه ٤٨٥/٢ ح ١٠١٢، والجويني في فرائد السمطين ١/١٠١ ح ٧٠.

(٣) إعلام الوري ١/٢٦٦-٢٦٩، الإرشاد ١/١٨٧، تاريخ اليعقوبي ٢/١١٤، الطبقات الكبرى ٢/٢٠١ - ٢٠٢، ٢١٢-٢١٥، ٢٢٠، تهذيب الكمال ١٣/٢٩٨، مجمع الزوائد، باب إسلامه ٩/١٠٣.

وملاً يعرج، وما فارقته سمعي هيئمة منهم، يصلُّون عليه، حتَّى واريناه ضريحه^(١).
وبعد هذه النهاية المفجعة تتساقط قطرات الدمع من عليٍّ عليه السلام حزناً منه على فراق أخيه محمد بن عبدالله، الرسول، الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، فيضجُّ صدره بالآلام والمحن، ويقف على شفير قبر أخيه مطأطأ رأسه، والدمع يجري كحبات لؤلؤ تناثرت على خديّه، وهو يقول: ((بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء، خصّصت حتى صرت مسلّياً عمّن سواك، وعمّمت حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع؛ لأنفدنا عليك ماء الشؤون))^(٢).

ولما توفي النبي كان عمر حاضرًا وأبو بكر في منزله بالسنع^(٣).

بعد وفاة النبي وتولي أبي بكر زمام الخلافة، عزموا على إلغاء البعث بالمرّة، وكلموا أبا بكر في ذلك وأصرّوا عليه غاية الإصرار^(٤) ثم جاءه عمر بن الخطاب يلتمس منه بلسان الأنصار أن يعزل أسامة ويولي غيره فوثب أبو بكر، وأخذ بلحية عمر، وقال شكلك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب. استعمله رسول الله وتأمّرني أن أنزعه^(٥).

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٣٥.

(٣) كامل ابن الأثير ٢/ ٣٢٣.

(٤) أنظر: كتر العمال ١٠/ ٥٧٥، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٤/ ١٨٣، السيرة الحلبية ٣/ ٢٣٦،

الكامل ٢/ ٣٣٤-٣٣٥.

(٥) أنظر: تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٦، كامل ابن الأثير ٢/ ٣٣٥، السيرة النبوية بهامش الحلبية ٢/ ٣٤٠.

مناقشة النصوص:

من النصوص السابقة يمكن أن نستنتج ما يلي:

١ - عندما أحس النبي صلوات الله عليه واله بدنو أجله، أصر على إنفاذ سرية أسامة بن زيد التي أشرك فيها معظم وجوه المهاجرين والأنصار ولعن من تخلف عنها لرغبته، بتسوية أمور خلافته في غياب مراكز القوى التي قد تثير خلافات بعده حول مسألة الحكم: وهذا ما حصل فعلاً.

٢ - لاختياره أسامة بن زيد الشاب أميراً على شيوخ المهاجرين والأنصار معنى هام للغاية، فهو ترويض لهم، غالباً، كي يدعوا للولاية من يختاره النبي بعده، أيًا كانت سنه.

٣ - إحساس مراكز القوى بما يخطط له النبي، وثقلهم بالتالي عن الخروج في سرية أسامة، ورغم إلحاح النبي المتواصل، وجدنا هؤلاء، عند وفاة النبي صلوات الله عليه وآله متناثرين في أرجاء المدينة.

الحدث الثاني - رزية الخميس -

❖ النص الأول:

لما حضر رسول الله وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجد وعندكم القرآن! حسبنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت، فاخصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتابًا لن تضلوا بعده! ومنهم من يقول ما قاله عمر، فلما كثر اللغو والاختلاف عند النبي، قال لهم رسول الله قوموا! قال عبيد الله ابن مسعود: فكان ابن عباس يقول: (إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم)^(١).

❖ النص الثاني:

لما حضرت رسول الله الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده. فقال عمر كلمة معناها أن الوجد قد غلب على رسول الله ثم قال: عندنا القرآن، حسبنا كتاب الله^(٢).

(١) البخاري ٧/٩، ٨/١٦١، مسلم ٥/٧٥، مسند أحمد ٤/٣٥٦ ح ٢٩٩٢، البخاري، العلم ١١١، المغازي ٤٠٧٩، المرضي الاعتصام بالكتاب، ص مسلم، الوصية ٣٠٩١، مسند أحمد، مسند بني هاشم ٢٨٣٥، ٢٩٤٥.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ٦/٥١.

❖ النص الثالث:

اشتد برسول الله وجعه، فقال: ((أتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي التنازع))، فقالوا: هجر رسول الله^(١).
في نص ثان فقالوا: ما شأنه؟ أهجر^(٢)، وفي نص ثالث فقالوا: إن رسول الله يهجر^(٣).

❖ النص الرابع:

لما مرض النبي، قال: ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا من بعده أبداً، فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله؟ قال عمر: انكن صويحبات يوسف، إذا مرض رسول الله عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبتن عنقه! فقال رسول الله: دعوهن فإنهن خير منكم^(٤).

❖ النص الأخير:

ولما مات رسول الله، قال قبل موته: إيتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم إشكال الأمر وأذكر لكم المستحق لها بعدي. قال عمر: دعوا الرجل فإنه ليهجر؛ وقيل: يهدو^(٥).

(١) البخاري كتاب الجهاد، باب جوائز الوفد، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، مسلم كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس عنده شيء، مسند أحمد ١/ ٢٢٢، صحيح البخاري، الجهاد والسير ٢٨٢٥.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٢-١٩٣، صحيح البخاري، الجزية والمواذعة، المغازي ٤٠٧٨، صحيح مسلم، الوصية ٣٠٨٩، مسند أحمد، مسند بني هاشم ١٨٣٤. في النص الأخير نجد القول: ((قالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ قال سفيان: يعني، هذي)).

(٣) مسند ابن حنبل ١/ ٣٥٥، الكامل ٢/ ٣٠٢. صحيح مسلم، الوصية ٣٠٩٠، مسند أحمد، مسند بني هاشم ٣١٦٥.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٥) الإمام الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص ٢١، مطابع النعمان ط/ ٤، سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص، ص/ ٦٢، ط الحيدرية، أنظر أيضاً كتاب الغزالي ذاته، ((سر العالمين وكشف ما في الدارين المسمى بالسر المكنون)) ط بندر بومبي، نسخة الظاهرية، باب المقالة الرابعة ص/ ٩.

مناقشة النصوص:

١- النصوص الخمسة السابقة تظهر بجلاء أسلوب تعامل معظم المؤرخين الإسلاميين مع الحدث التاريخي فمن المعروف أن عمر بن الخطاب واحد من أهم الشخصيات في التاريخ الإسلامي، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يتعاملون بحذر حيناً، وتمويه أحياناً، مع بعض ما صدر عنه ففي النصوص السابقة، نجد النص الأول يقول عن لسان عمر إن النبي قد غلب عليه الوجد؛ والتي صارت في النص الثاني قال عمر كلمة معناها أن الوجد قد غلب على رسول الله وهي في النص الثالث ظهرت تلك الكلمة التي معناها: أن الوجد قد غلب على رسول الله وهي هجر رسول الله لكنها لم تنسب إلى عمر، بل إلى شخص مجهول فقالوا: ما شأنه؟ أهجر لكن الغزالي في النص! الخامس يوضح المسألة برمتها حين يقول، ان عمر ابن الخطاب هو الذي قال، ان النبي ليهجر.

٢- إن كلمة يهجر بمعنى يخلط أو يهدو - تتنافى تماماً مع أبسط المعايير الموضوعية والدينية، بل حتى الأخلاقية. فسياق النص، يظهر أن النبي يوم وفاته، وقبل ذلك، حين كان يجهز لسرية أسامة بن زيد، كان بكامل وعيه؛ دينياً، تتعارض كلمة يهجر تماماً أيضاً مع ما جاء في القرآن الكريم عن النبي ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (١) ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (٢).

٣- رفض عمر لوصية النبي، متذرعاً بأن القرآن الكريم حسبه يتنافى أيضاً، مع ما يقوله القرآن الكريم ذاته ﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٣) ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٤).

(١) سورة النجم: الآيتان/ ٣-٤.

(٢) سورة التغابن: الآية/ ١٢.

(٣) سورة الحشر: الآية/ ٧.

(٤) سورة الأحزاب: الآية/ ٣٦.

لكن من وجهة نظر تاريخية، كثيراً ما تصادف مثل هذه الأحداث، عند غياب مؤسسي الحركات؛ الدينية والفكرية الكبرى، في معظم الأزمنة والعصور، وقد ذكر القرآن موضوع الانقلاب على الأنبياء من داخل صفوف الأتباع كقضية بديهية حصلت مع معظم الأنبياء (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم).

٤- في النصوص السابقة نجد بذور الانحراف والصراع على الحكم ما بعد النبي صلوات الله عليه وآله، والتحزبات والصراعات وقد وضحت تماماً. فالنبي من جهة يصر على كتابة وصيته وهو الحريص على هداية الأمة، وعمر، بالمقابل، يصر على الرفض. الأمر الذي أدى إلى انقسام الناس بين مؤيد للنبي صلوات الله عليه وآله ومؤيد لعمر. ففي النص الأول، نقرأ فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي، ومنهم من يقول ما قاله عمر وفي النص الثالث نقرأ فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي التنازع وفي النص الرابع، تظهر نساء النبي بين الحلف المؤيد لكتابة الوصية، مقابل عمر الرفض لذلك.

٥- إن موقف عمر ومؤيديه في سرية أسامة بن زيد، ثم من كتابة الوصية، لا بد أن يدفعنا إلى التساؤل: ماذا كان هدف عمر من البقاء في المدينة لمتابعة مجريات الأمور عند وفاة النبي رغم إلحاح النبي على إنفاذ السرية، ولماذا رفض كتابة الوصية؟

الحدث الثالث

- سقيفة بني ساعدة -

قصة السقيفة:

اجتمع بعض وجهاء الأنصار بعد أن علموا بأن الأمر لن يؤول إلى الإمام علي ليبايعوا واحدا منهم، (قال عمر بن الخطاب إنه كان من خبرنا حين توفي الله نبيه، أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معها^(١))، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى اخواننا الأنصار. فانطلقنا في سقيفة بني ساعدة، وتركوا جنازة الرسول يغسله أهله^(٢) وكان الأنصار قد اجتمعوا حتى أتيناهم فقالوا: نؤي هذا الأمر بعد محمد، سعد بن عباد. وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض، فحمد الله واثنى عليه، وذكر سابقة الأنصار في الدين وفضيلتهم في الإسلام، وإعزازهم للنبي وأصحابه وجهادهم لأعدائه، حتى استقامت العرب، وتوفي الرسول وهو عنهم راض، وقال: استبدوا بهذا الأمر (الحكم) دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، نؤليك هذا الأمر. ثم أنهم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم (الأنصار): فإننا نقول إذا منا أمير ومنكم

(١) الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة: علي بن أبي طالب، العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس، عتبة بن أبي لهب، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، عمار بن ياسر، المقداد، البراء بن عازب، أبي بن كعب، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، خزيمة بن ثابت، فروة بن محمد الأنصاري، خالد بن سعيد بن العاص، سعد بن عباد، وجاعة من بني هاشم (أنظر: تاريخ الطبري ٣/٢٠٨، الكامل في التاريخ ٢/٣٢٥، تاريخ يعقوبي ٢/١٠٣، السيرة الحلبية ٣/٣٥٦، أسد الغابة ٣/٢٢٢، مروج الذهب ٢/٣٠١، شرح النهج للمعتزلي ١/١٣١-١٣٤، العقد الفريد ٤/٢٥٦).

(٢) البخاري كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا ٤/١٢٠.

أمير! فقال سعد ابن عباد: هذا أول الوهن^(١).

وكما أشير سابقاً سمع أبو بكر وعمر بذلك، فأسرعا إلى السقيفة مع أبي عبيدة بن الجراح، وانحاز معهم أسيد بن حضير^(٢) وعويم بن ساعدة^(٣) وعاصم بن عدي^(٤)(٥).

يقول عمر بن الخطاب حين أتيناهم، فإذا رجل مزمل، فقالوا: هذا سعد بن عباد يوعك فلما جلسنا قليلاً، تشهد خطيبهم فأثنى على الله، ثم قال: أما بعد! فنحن أنصار الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط... فأردت أن أتكلم، فقال أبو بكر: على رسلك ٢٤ تكلم أبو بكر - بعد أن منع عمر عن الكلام - فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر سابقة المهاجرين في التصديق بالرسول دون جميع العرب، وقال: فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم. ثم ذكر فضيلة الأنصار، وقال: فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء^(٦) عن حديث أبي بكر، قال عمر والله ما ترك من كلمة في تزويري إلا قال في بديته مثلها أو أفضل^(٧) فقام الحباب بن المنذر^(٨) وقال: يا معشر الأنصار! املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، ويتنقض عليكم

(١) أنظر: تاريخ الطبري، ط أوروبا ١/١٨٣٨، ابن الأثير ٢/١٢٥، تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ١/٥.

(٢) أسيد، أحد السابقين للإسلام، وأحد النقباء ليلة العقبة. اختلف في شهوده بدرًا. أخى رسول الله (ص) بينه وبين زيد بن حارثة، وكان ممن ثبت يوم أحد، وجرح يومئذ سبع جراحات. قال النبي (ص): نعم الرجل أسيد بن حضير. وكان أبو بكر لا يقدم أحدًا من الأنصار على أسيد بن حضير. ولما مات، حمل عمر نعشه بنفسه، وباع ماله ثلاث سنين، فوفى دينه، وقال: لا أترك بني أخي عالة (أنظر: الإصابة ١/٨٣، الاستيعاب ١/٣١-٣٣).

(٣) صحابي أنصاري كان مؤاخياً لعمر بن الخطاب (الاستيعاب ٣/١٧٠).

(٤) من خلفاء الأنصار.

(٥) سيرة ابن هشام ٤/٣٣٩.

(٦) راجع الحاشية ١٩.

(٧) البخاري، المرجع السابق.

(٨) أحد زعماء الأنصار (الإصابة ١/٣٠٢).

أمركم، فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم، فمننا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منهم. ولنا بذلك على من أبي الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة.

فقام الحباب بن المنذر، وقال: يا معشر الأنصار! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم، فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأتتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به. أنا والله جدي لها المحكك وعذيقها المرجب أما والله لو شئتم لنعيدنها جذعة.

قال عمر: إذا يقتلك الله!

قال: بل إياك يقتل!

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار! إنكم كنتم أول من نصر وأزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

فقام بشير بن سعد الخزرجي، فقال: يا معشر الأنصار! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك.. ألا إن محمداً (ص) من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً. فاتقوا الله، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم!

فقال أبو بكر: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا.

فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك^(١).

وفي رواية لعمر، أن أبا بكر، قال ما ذكرت فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم. فأخذ بيدي ويدي أبي عبيدة، فلم أكره مما قال غيرهما.

فقال قائل من الأنصار: أنا جديلهما المحكك وعديقهما المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش!

فكثر اللغظ وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر!

فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار^(٢).

ويروى أن عبد الرحمن بن عوف قام، فقال يا معشر الأنصار! إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي.

وقام المنذر بن الأرقم، فقال: ما ندفع فضل ما ذكرت، وإن فيهم لرجلا لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد - يعني علي بن أبي طالب. (فقلت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا عليًا)^(٣) قال عمر فكثر اللغظ وارتفعت الاصوات حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك لأبايعك^(٤).

فلما ذهب (عمر وأبو عبيدة) لبايعاه، سبقها إليه بشير بن سعد، فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد، عقت عقاق في رواية ابن أبي الحديد المعتزلي: (عقك عقاق)^(٦) أنفست على ابن عمك (سعد ابن عبادة) الامارة؟

(١) الطبري ط دار سويدان ٣/ ٢٢٠-٢٢١.

(٢) البخاري، المصدر السابق.

(٣) في نص الطبري (ط أوروبا ١/ ١٨١٨) وابن الأثير (٢/ ٢٣): ((ان الأنصار قالت ذلك بعد أن بايع عمر أبا بكر)).

(٤) أنظر: تاريخ يعقوبي، ط دار صادر ٢/ ١٢٣، الموفقيات للزبير بن بكار، ٥٧٩.

(٥) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣٦.

(٦) شرح النهج ٢/ ٢.

فقال: لا والله؛ ولكنني كرهت أن أنزع قومًا حقًا جعله الله لهم!.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد الخزرجي وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء: والله لئن وَّليتها الخزرج عليكم مرة، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا

فبايعوا أبا بكر وفي رواية المعتزلي: لما رأت الأوس أن رئيسًا من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير، وهو رئيس الأوس، فبايع حسدًا لسعد ومنافسة له أن يلي الأمر^(١).

فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم. فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سعد بن عبادة في رواية عمر في البخاري: نزونا على سعد بن عبادة^(٢). فقال أناس من أصحاب سعد: اتقوا سعد لا تطؤوه!

فقال عمر: اقتلوه! قتله الله! ثم قام على رأسه، فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك! فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، فقال: والله لو حصصت منه شعره ما رجعت وفي فيك واضحة!

فقال أبو بكر: مه لا يا عمر! الرفق هاهنا أبلغ. فأعرض عنه عمر. وقال سعد: أما والله لو أن بي قوة ما، أقوى على النهوض، لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرًا يحجرك وأصحابك؛ أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع؛ احمولني من هذا المكان! فحملوه وأدخلوه في داره^(٣).

وكان عمر يومئذ محتجزًا يهرول بين يدي أبي بكر، ويقول: ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر^(٤).

(١) شرح النهج ٢/٢.

(٢) البخاري، المرجع السابق.

(٣) تاريخ الطبري، ط سويدان، ٣/ ٢٢١-٢٢٢.

(٤) شرح النهج للمعتزلي ١/ ١٣٣.

مواقف المعارضة الثابت والمتحول

١- المعارضة الأنصارية:

شعر بعض الأنصار بما يدبره بعض قريش من أجل الاستيلاء على السلطة وأن المسألة ربما لا تتم للإمام علي عليه السلام وبدلاً من أن يلتفوا حول الإمام علي عليه السلام لتتم له المسألة اجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة، في يوم وفاته، واختاروا أحد زعماء الأنصار، وهو سعد بن عبادة الخزرجي أميراً وخليفة للمسلمين^(١) في بداية الأمر، ظهرت المعارضة الأنصارية قوية متماسكة. لكنها سرعان ما انهارت تحت وطأة الصراعات الخزرجية الداخلية، والخزرجية الأوسية. وكان رأس هذه المعارضة الأمير الخزرجي سعد بن عبادة. فمن هو سعد، وماذا كانت مواقفه من البيعة، وماذا كانت مواقف جماعة الحكم منه؟

جاء في الإصابة، سعد بن عبادة: (سيد الخزرج، شهد العقبة، واختلف في شهوده بدرًا، فأثبته البخاري، وقال ابن سعد كان يتهبأ للخروج، فنهس فأقام)^(٢). قال ابن سعد: وكان يكتب بالعربية، ويحسن العلوم والرمي، فكان يقال له الكامل، وكان مشهورًا بالجوود وهو وأبوه وجده وولده.

كما رأينا، رفض سعد مبايعة أبي بكر. فتركوه أيامًا ثم بعث إليه أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي فلا أفعل. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي^(٣) فلما أتى أبو بكر بذلك، قال عمر: لا تدعه حتى يبايع.

(١) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) طبقات ١٤٢/٣.

(٣) أنظر: تاريخ الطبري ٤٥٦/٣، كنز العمال ١٣٤/٣، ابن الأثير ١٢٦/٢، الإمامة والسياسة ١٠/١، السيرة الحلبية ٣٩٧/٤.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فقال له بشير بن سعد: إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فتركوه فليس تركه بضاركم، إنما هو برجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه، فكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجتمع معهم، ولا يحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم. فلم يزل كذلك حتى توفي أبو بكر وولي عمر^(١).

ولما ولي عمر الخلافة، لقيه في بعض طرق المدينة، فقال له: إيه يا سعد؟!!

فقال له: إيه يا عمر؟!!

فقال له عمر: أنت صاحب المقالة؟

قال سعد: نعم! أنا ذلك! وقد أفضى إليك هذا الأمر! كان والله صاحبك أحب إلينا منك، وقد أصبحت والله كارهاً لجوارك!

فقال عمر: من كره جوار جار تحول عنه!

فقال سعد: ما أنا غير مستسر بذلك، وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك!

فلم يلبث قليلاً حتى خرج إلى الشام في أول خلافة عمر^(٢).

وفي الشام، التي كانت وقتئذ تحت حكم عمر، وجد سعد مقتولاً. وقد اتفق كثير من كبار المؤرخين الاسلاميين على أن الجن قتلتة!!!!^(٣).

لكن البلاذري يرفض رواية الجن السابقة فيقول إن سعد ابن عباد لم يبايع أبا بكر وخرج إلى الشام، فبعث عمر رجلاً، وقال: ادعه إلى البيعة واختل له، فإن أبى فاستعن بالله عليه!

(١) الرياض النضرة ١/ ١٦٨.

(٢) أنظر: السيرة الحلبية ٣/ ٣٩٧، تاريخ ابن عساكر ٦/ ٩٠، طبقات ابن سعد ٣/ ٢/ ١٤٥، كنز العمال ١٣٤/ ٣.

(٣) أنظر: العقد الفريد ٤/ ٢٥٩-٢٦٠، الرياض النضرة، الاستيعاب.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فقدم الرجل الشام، فوجد سعدًا في حائط بحوارين إحدى قرى الشام، فدعاه إلى البيعة، فقال: لا أبايع قرشيًّا أبدًا!

قال: فإني قاتلك!

قال: وإن قاتلتني؟

قال: أفخرج أنت مما دخلت فيه الأمة؟!

قال: أما من البيعة فإني خارج!

فرماه بسهم، فقتله! (١).

وفي تبصرة العوام قيل أنهم أرسلوا محمد بن مسلمة الأنصاري فرماه بسهم، وإن خالدًا ابن الوليد كان في الشام يومذاك، فأعانه على ذلك (٢) قال ابن سعد (٣) المعارض الأنصاري الشهير الآخر، كان الحباب بن المنذر وهو خزرجي شهد بدرًا. وإذا كان سعد بن عباد قد دفع حياته ثمناً لمعارضته، فإن الحباب ابن المنذر اختار أن يسالم، فاستسلم للضغوط، وبايع (٤).

فقال الأنصار: لا نبايع إلا عليًّا، وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتى يُبايع علي، وانظم وانحاز في بيت عليٍّ وفاطمة عليهما السلام: المقداد بن عمرو، وخالد بن سعيد، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وابن التيهان، وعبادة بن الصامت (٥)، كلُّهم يرفضون البيعة لابن أبي قحافة، للسبب الآنف ذكره..

(١) أنساب الأشراف ١/ ٥٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٣) طبقات ٣/ ١٠٩.

(٤) الإصابة للعسقلاني ط دار الجليل ٢/ ١٠-١١. راجع أيضاً: تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٦٦، جمهرة ابن حزم ٣٥٩، أسد الغاية ١/ ٣٦٤.

(٥) تاريخ يعقوبي ٢/ ١٢٤، تاريخ أبي الفداء ٢/ ٦٣، ابن أبي الحديد ٢/ ٤٩، ٥٦، ١١/ ٦، وزاد في ١/ ٢٢٠ حذيفة وابن التيهان وعبادة بن الصامت، وتاريخ الطبري ٣/ ١٩٨، الكامل في التاريخ ٢/ ١٨٩، ١٩٤، تاريخ الخلفاء ٥١ ولم يذكروا الأسماء.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

إضافةً إلى ذلك فقد اعتصم جماعة من الأنصار في أحيائهم، فجاء عبدالرحمن بن عوف يعاتبهم على تخلفهم عن بيعته الخليفة، ويذكر لهم حقه بقربته من رسول الله، وما شابه ذلك من الحجج التي يتشبثون بها، من أجل إثبات حق أبي بكر بالخلافة، وأنه أولى بها من غيره، فردَّ عليه جماعة الأنصار: ((إِنَّ مَن سَمَّيت من قريش، مَنْ إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: عليُّ بن أبي طالب))!

هذا أحد المواقف ضد الاتجاه الذي نال خلافة رسول الله بالغلبة! وموقف آخر يمكن أن نقتبس منه بعض الأقوال، كقول الفضل بن عباس، الذي قام خطيباً وأجاد حيث قال: ((يا معشر قريش: إنَّه ما حَقَّتْ لكم الخلافة بالتمويه! ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم))^(١)، ويقصد بصاحبنا عليَّ بن أبي طالب عليه السلام.

٢- اعتراض أهل البيت وبعض الصحابة:

كان بنو هاشم منشغلين وحدهم تقريباً^(٢) بغسل النبي وتجهيزه حين كان الصراع على أشده، حول خلافة أبي بكر بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة. وبعد مبايعة أبي بكر أقبلت الجماعة التي بايعته تزفوه إلى مسجد رسول الله (ص)، فصعد على المنبر فبايعه الناس حتى أمسى، وشغلوا عن دفن رسول الله حتى كانت ليلة الثلاثاء^(٣).

سمع العباس وعلي التكبير في المسجد ولم يفرغوا من غسل رسول الله (ص) فقال علي: ما هذا؟

قال العباس: ما رأيي مثل هذا قط! أما قلت لك^(٤).

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٢٤.

(٢) الرياض النضرة ١/ ١٦٤، تاريخ الخميس ١/ ١٨٨، الموفقيات ٥٧٨.

(٣) أنظر: العقد الفريد ٤/ ٢٥٨، شرح النهج للمعتزلي ١/ ١٣٢، الموفقيات ٥٧٧-٥٨٠.

(٤) الموفقيات ٥٨٠.

وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم، وقال: يا معشر بني هاشم!
بويع أبو بكر!

فقال بعضهم لبعض: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمد!
فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة!

وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر، منهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام^(١) فدخلا بيت فاطمة ومعهما السلاح: لقد اجتمعوا على أن يبايعوا علياً^(٢) ولما كان اليوم الثاني، وبعد أن واروا جثمان النبي الطاهر، انحاز مع علي بن أبي طالب عليه السلام بنو هاشم جميعاً، ومعهم طائفة من المهاجرين والأنصار، اعتقاداً منهم بحق علي في الخلافة^(٣).

بلغ أبا بكر وعمر أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في بيت^(٤) فاطمة بنت رسول الله^(٥) وفيه طلحة والزبير.

فبعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم^(٦) أما عن علي، فقد قال أبو بكر لعمر ائتني به بأعنف العنف ٥٩ اقتحموا بيت علي عليه السلام.. وقد ثبت عن أبي بكر قوله، حين حضرته الوفاة: ((وددت أني لم أكشف عن بيت فاطمة، وتركته ولو أغلق على حرب))^(٧).

(١) تاريخ الخميس ١٦٩/٢، الرياض النضرة ٢١٨/١، شرح النهج للمعتزلي ٢١٣/١.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ١٣٤/١، ابن شحنة بهامش الكامل (١١٣/١١) بلفظ: ((ومالوا مع علي بن أبي طالب)).

(٣) صحيح مسلم - الجهاد والسير ١٣٨٠/٣ ح ٥٢، صحيح البخاري - باب غزوة خيبر ٢٨٨/٥ ح ٤٥٦، الكامل في التاريخ ٢٣١/٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي ١٢٦/٢.

(٥) تاريخ الخميس ١٨٨/١، الرياض النضرة ١٦٧/١، كنز العمال ١٢٨/٢، تاريخ الطبري ٤٤٢/٢ -

٤٤٦، عباس العقاد، عبقرية عمر ١٧٣.

(٦) تاريخ أبي الفداء ١٥٦/١، العقد الفريد ٦٤/٣.

(٧) الإمامة والسياسة ٢٤/١، تاريخ الطبري ٤٣٠/٣.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

أتى قنذ - رسول الخليفة الجديد - علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يدعوك خليفة رسول الله. فقال عليه السلام: ((لسريع ما كذبتم على رسول الله!!))

فرجع فأبلغ أبا بكر قوله، فبكى أبو بكر طويلاً! فبعثه مرةً أخرى بتحريض من عمر، فقال: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع، فقال عليه السلام بصوت مرتفع: ((سبحان الله! لقد ادعى ما ليس له)). فرجع قنذ وأبلغه كلام علي فبكى أبو بكر طويلاً..

أمّا عمر فتعجّل الأمر، وأتى بيت عليّ مع جماعة وطرقه بشدة، فلمّا سمعت فاطمة أصواتهم نادت: ((يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة))؟!

فانصرف القوم باكين لبكائها ومناجاتها أباهما، إلا عمر لم يتصدّع قلبه لبكاء ابنة رسول الله وبضعته، فبقي معه جماعة، فخرج عليهم الزبير مصلاً بالسيف، فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه، فأخذوه^(١) وكان الزبير: يقول لا أحد أولى بهذا الأمر من علي بن أبي طالب^(٢) وفي رواية أخرى، سأل عمر الزبير ما هذا السيف؟ قال: أعددته لأبايع علياً! وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في عليّ عليه السلام^(٣).

حتى أخرجوا علياً عليه السلام فمضوا به إلى أبي بكر، وعرضوا عليه البيعة فأجابهم بكلّ ثبات وعزيمة: ((أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي)).

فقالوا: نضرب عنقك!!

فقال عليه السلام: ((إذن تقتلون عبد الله وأخا رسوله!!))

فقال عمر: أمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا!

وأبو بكر ساكت! ثمّ قال عمر لأبي بكر: ألا تأمر فيه بأمرك؟!

فأجابه الخليفة: لا أكرهه على شيء مادامت فاطمة إلى جنبه!

(١) تاريخ اليعقوبي ١٢٦/٢.

(٢) الإمامة والسياسة ٥٧/١، العقد الفريد ٢٧٨/٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٢٤/٢، شرح نهج البلاغة ٢١/٦ وغيرها.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فذهب عليٌّ عليه السلام إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يردد بصوت شجي: ((يا ابن أمِّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني))^(١).

وهكذا وقع سريعاً تأويل ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام.

قال الإمام علي عليه السلام: ((إنَّ ممَّا عهد إليَّ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الأمة ستعذر بي بعده)).

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: ((بينما كنَّا نمشي أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيدي.. فلَمَّا خلا له الطريق اعتنقني ثمَّ أجهدش باكياً، قلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: ضغائن في صدور أقوام، لا يبدوها لك إلا من بعدي)).

انطلق عمر وخالد بن الوليد إلى بيت فاطمة حتى هجموا على الدار^(٢).

وفي بعض الروايات كان في البيت ناس كثير منهم المقداد وجمهور من الهاشميين، فاخترط عمر السيف وضرب به صخرة في البيت فكسره، ثم أخرجوا الزبير إلى خالد ومن معه، وكان معه جمع كثير^(٣)، أرسلهم أبو بكر ردةً لعمر وخالد وقيل أيضاً، ان عمر جاء بقبس من نار على أن يضرهم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة، فقالت: يا ابن الخطاب! أجنئت لتحرق دارنا؟!^(٤) (قال: نعم! أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة).

وفي رواية أخرى أن فاطمة تلقت عمر على الباب، فقالت فاطمة: يا ابن الخطاب! أترأك محرقةً علي بابي؟! قال: نعم.

ويذكر عروة بن الزبير أن أُرهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لتحريقهم^(٥) إذا هم أبوا البيعة^(٦) في ما سلف.

(١) أنظر: شرح النهج ٥٦/٢، ١١/٦، الإمامة والسياسة: ١٢-١٣، تاريخ يعقوبي - مختصراً - ١٢٦/٢، الفتوح ابن أعثم ١٣/١، دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٠٦ هـ.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ١٩/٢.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ١٩/٢.

(٤) تاريخ أبي الفداء ١٥٦/١، العقد الفريد ٦٤/٣.

(٥) من أجل تهديد عمر علياً وفاطمة بالإحراق، أنظر: تاريخ الطبري ٣/٢٠٢، الإمامة والسياسة ١٢/١، العقد الفريد ٤/٢٥٩، تاريخ أبي الفداء ١٥٦/١، تاريخ ابن شحنة بهامش الكامل ٧/١٦٤، أعلام النساء ٣/١٢٠٧.

(٦) مروج الذهب ٢/١٠٠، شرح النهج ٢/٤٨١.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

في واقع الأمر، كان تهديد عمر للإمام عليًا بالإحراق وسيلة لإجباره على المبايعة. فقد قال عمر لعلي:

والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم^(١).

قم فبايع! فتلكأ علي واحتبس. فأخذ بيده)). لكن عليًا لم يرضخ للتهديد. فعاد عمر، ليقول وقال: قم! فأبى. فحملوه، ودفعوه إلى خالد كما دفعوا الزبير؛ وساقهما عمر ومن معه من الرجال سوقًا عنيًا، واجتمعت الناس ينظرون، وامتألت شوارع المدينة بالرجال؛ فلما رأت فاطمة ما صنع عمر صرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثيرات من الهاشميات وغيرهن، فخرجت إلى باب حجرتها، ونادت: يا أبا بكر! ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله^(٢).

٣- دور العباس: محاولة الحكم كسر تحالف جبهة الحق:

بدا تماسك بني هاشم مع الإمام علي عليه السلام كأنه يشكل عقبة فعلية في وجه خلافة أبي بكر، فما كان من الخليفة إلا أن راح يستفسر عن وسيلة يكسر بها هذا التحالف. هنا، قال له المغيرة بن شعبة الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيبًا يكون له ولعقبه من بعده فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب وتكون لكم (أبو بكر وعمر) حجة على علي إذا مال معكم^(٣).

فانطلق أبو بكر وعمر والمغيرة حتى دخلوا على العباس ليلا، فقال له أبو بكر: ان الناس اختاروني عليهم والياً؛ وما أنفك يبلغني عن طاعن بقول الخلاف على عامة المسلمين يتخذكم لجأ ولقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيبًا يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك! على رسلكم يا بني هاشم! فان رسول الله منا ومنكم^(٤).

(١) العقد الفريد ٤/ ٣٣٥، شرح النهج ٣/ ٤١٥.

(٢) شرح النهج ٢/ ١٩.

(٣) أنظر: تاريخ يعقوبي ٢/ ١٤٢-١٥٢، الإمامة والسياسة ١/ ١٤.

(٤) أنظر: تاريخ يعقوبي والإمامة والسياسة

مقابل محاولة الرشوة الاسترضائية السابقة، قال عمر بحزم، ضمن إطار لعبة الحمايم والصقور: إنا لم نأتكم لحاجة إليكم، ولكن كرهًا أن يكون الطعن في ما أجمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم، فانظروا لأنفسكم^(١).

أجاب العباس إن كنت برسول الله طلبت، فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين أخذت؛ فنحن منهم. ما أبعد قولك من أن طعنوا عليك من قولك انهم اختاروك ومالوا إليك؛ وما أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك. فأما ما قلت انك تجعله لي، فإن كان حقًا للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه أو: فان يكن حقًا لك فلا حاجة لنا فيه، وان كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض، وعلى رسلك! فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها^(٢) فخرجوا من عنده.

٤- دور فاطمة الزهراء:

ما كاد ينتهي هجوم الحكم على بيت فاطمة بنت النبي رسول الله ومحاولتهم إحراقه، حتى تفجرت أزمات جديدة، ساهمت في تعميق الهوة بين الزهراء والحكم. ولعب أبو بكر الدور الأبرز في خلق تلك الهوة، عن طريق خلق مصاعب أمام أهل البيت ومن وقف معهم من الصحابة لدفعهم في النهاية إلى مبايعته.

فعلى سبيل المثال، اختار أبو بكر، بعد وفاة النبي، أن يسقط سهم الرسول وسهم بني هاشم من الخمس^(٣) وكان النبي يخص ذاته بسهم من الخمس، ويخص أقاربه من

(١) أنظر: تاريخ يعقوبي والإمامة والسياسة

(٢) أنظر: تاريخ يعقوبي والإمامة والسياسة.

(٣) أنظر: تفسير القرطبي ١٠/٨، فتح القدير ٢/٢٩٥، تفسير الطبري ٦/١٠، الدر المنثور ٣/١٨٧،

الكشاف ٢/١٥١، سنن النسائي كتاب الفيء باب ١ ج ١٢١/٧، شرح النهج للمعتزلي ١٦/٢٣٠،

مقدمة مرآة العقول ١/١٤٤.

بني هاشم بسهم آخر منه، ولم يعهد بتغيير ذلك حتى توفي^(١) اعتمادًا على الآية الكريمة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢).

مثال آخر: هو فذك. وفذك أرض كانت ملكًا للنبي^(٣).

ولما مات رسول الله (ص) ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فذكًا؛ فقال لها أبو بكر: أنتِ أعز الناس عليَّ فقراء، وأحبهم إلي غنى، ولكني لا أعرف صحة قولك، فلا يجوز أن أحكم لك! فشهدت لها أم أيمن ومولى لرسول الله فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع، فلم يكن^(٤).

أما المولى الذي تهيب الرازي عن ذكر اسمه، فهو علي بن أبي طالب^(٥).

مثال ثالث: مطالبة فاطمة بحصتها من خبير وإرثها مما أفاء الله على الخليفة في المدينة. فرفض أبو بكر ذلك محتجًا بحديث نبوي يقول إن الأنبياء لا يورثون، فما تركوه صدقة^(٦). لكن الزهراء احتجت عليه بآية قرآنية تقول عن لسان زكريا في حديثه عن ابنه يحيى ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٧).

(١) أنظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٨٢/١٢، الأحكام السلطانية لأبي يعلى ١٨١-١٨٥، الأحكام السلطانية للماوردي ١٦٨-١٧١، مقدمة مرآة العقول ١/١١٣، أحكام القرآن للجصاص ٣/٦٠، الأموال لأبي عبيد ٣٢٥، تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ج ١٠، تاريخ الطبري ٣/١٩، سنن النسائي كتاب الفيء باب ١ ج ٧/١٢٠-١٢٢، الكشاف للزمخشري ٢/١٥٨، تفسير القرطبي ٨/١٠، فتح القدير للشوكاني ٢/٢٩٥، تفسير الطبري ٤/١٠-٥ و٧، الدر المنثور ٣/١٨٥-١٨٦، تفسير المنار ١٥/١٠ و١٦.

(٢) سورة الأنفال: الآية/٤١.

(٣) أنظر: سيرة ابن هشام ٢/٣٥٣، شرح النهج ١٦/٢١٠، تاريخ الطبري ٢/٢٠، الكامل في التاريخ ٢/٢٢٤، معجم البلدان ٤/٢٣٨-٢٤٠، وفاء الوفاء ٣/٩٩٧ و٩٩٨، فتوح البلدان للبلاذري ٤٢، ٤٣، سنن أبي داود ٢/٤٧، الأموال ٩، الاكتفاء ٢/٢٥٩، شواهد التنزيل ١/٣٣٨ و٤٤٣، المغازي للواقدي ٧٠٦، الأحكام السلطانية لأبي يعلى ١٨٥، الأحكام السلطانية للماوردي ١٧٠.

(٤) تفسير الفخر للرازي ٢٩/٢٨٤.

(٥) أنظر: السمهودي، وفاء الوفاء ٣/٩٩٩ ط مصر، تحقيق محمد محيي الدين.

(٦) البخاري ٣/٣٧، مسلم ٢/٧٢، مسند أحمد ١/٦.

(٧) سورة مريم: الآية/٦.

موقف فاطمة عليها السلام من البيعة:

اجتمعت أمور كثيرة، أثارَت سخط الزهراء ثمَّ جاء عمر وأبو بكر إليها يلتزمان رضاها فقالت لهما: ((نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبَّ فاطمة ابنتي فقد أحبَّني، ومن أَرْضَى فاطمة فقد أَرْضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني! ؟)) فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله.

فقالت: ((فإنِّي أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتاني، وما أَرْضيتاني، ولئن لقيتُ النبيَّ لأشكوكما إليه))^(١)^(٢).

فما زالت غضبي عليها حتى توفيت^(٣).

وعن ابن قتيبة قال: وخرج عليٌّ - كرم الله وجهه - يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصر. فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أنَّ زوجك وابن عمِّك سبق إليها قبل أبي بكر ما عدلنا به.

فيقول عليٌّ كرم الله وجهه: ((أفكنت أدعُ رسول الله ﷺ في بيته لم أَدْفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه))؟!

فقالت فاطمة: ((ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيهم وطالبهم))^(٤).

أمَّا عليٌّ عليه السلام، فقد خاصمهم بقوله: ((الله الله يا معشر المهاجرين، لأتخرجوا

(١) المستدرک ٣/ ١٤٠، ابن عساکر ٣/ ١٤٨ ح ١١٦٤ - ١١٦٨، تذکرة الحفاظ ٣/ ٩٩٥، ابن أبي الحديد ٤٥/ ٦، كنز العمال ١١ ح ٣٢٩٩٧، الخصائص الكبرى ٢/ ٢٣٥.

(٢) الإمامة والسياسة ١/ ١٤.

(٣) مستدرک الحاكم ٣ ح ١٣٩، ابن أبي الحديد ٤/ ١٠٧، مجمع الزوائد ٩/ ١١٨، كنز العمال ١٧٦١٣ ح ٤٦٥٣٣، صحيح البخاري ٥/ ٢٨٨ ح ٢٥٦، صحيح مسلم ٣/ ١٣٨ ح ٥٢.

(٤) الإمامة والسياسة ١/ ١٢ وكذا شرح النهج ٢/ ٤٧.

سلطان محمد عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولاتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به، لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا: القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المصطلع بأمر الرعيّة، القاسم بينهم بالسويّة، ووالله إنّه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحقّ بعداً).

فلما سمعوا منه هذا الكلام قال بشير بن سعد الأنصاري - الذي أقر بنود السقيفة -: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان^(١).

وأنشد عليّاً معرضاً بأبي بكر:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم
وإن كنت بالقربى حججت
فكيف بهذا والمشiron غيبُ
فغيرك أولى بالنبى وأقرب^(٢)

ولما بلغه عليّاً احتجاج قريش بأنهم قوم النبي وأولى الناس به، قال: ((احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة))^(٣).

لقد عانى الإمام علي عليه السلام معاناة شديدة سواء معاناته في فراق الأحبة ورفاق الدرب وأولهم رسول الله الذي فاضت نفسه الشريفة في حجر الإمام علي وواراه الثرى بنفسه وعاش مأساة فراقه بكل أبعادها وها هو يخاطب رسول الله وهو يلي غسله وتجهيزه بكلمات حزينة تدمي القلب وتزرع الأسى: ((بأبي أنت وأمي، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسلماً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواءً، ولو لا أنك أمرت بالصبر، وتميتت عن الجزع، لأنفدنا^(٤) عليك ماء الشؤون^(٥)، ولكان الداء

(١) الإمامة والسياسة: ١٢.

(٢) نهج البلاغة: ٥٠٣ ح ١٩٠.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة الثالثة بتصرف.

(٤) لأنفدنا: أي لأنفينا.

(٥) الشؤون: منابع الدمع من الرأس.

السِّيْرَةُ الْعُلُوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

مُطَاطَلًا^(١)، وَالكَمْدُ مُحَالِفًا^(٢)، وَقَلًّا لَكَ^(٣)! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رَدَّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!))^(٤).

وإذا أعدنا إلى الأذهان ما يحظى به رسول الله ﷺ من حب وتعظيم في نفس أمير المؤمنين علي عليه السلام لأدركنا حجم الأسى الذي صب على الإمام بفقده رسول الله فعلي قد حظي بتربية الرسول ﷺ ورعايته وإعداده ومصاحبته منذ الصبا حتى فارق رسول الله ﷺ الدنيا.

ولقد كانت تلك التربية وتلك الأخوة بينهما مليئة بضروب الود والحنان والوفاء والإخلاص مما ليس له نظير.

وتستمر معاناة الإمام:

لم يكد الإمام علي عليه السلام يمسح دموع الحزن والأسى على فراقه لرسول الرحمة والخير، ولم يكد ينفض التراب العالق بيديه بعد مواراة الرسول ﷺ في مثواه الأخير حتى فوجئ بالمؤامرة التي عصفت بالأمة فكان يتألم عندما يرى أن تلك الجهود التي بذلها الرسول ﷺ وبذلها هو تحت لوائه، في مكة، وفي المدينة، في معارك الإسلام، كلها معرضة لأن تصير هباء منثورًا تحت أقدام، وعلى أيدي من لم يكونوا يجرؤون في يوم من الأيام أن ينزلوا إلى ساحات الوغى لمواجهة أعداء الله.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يخوض غمار الموت، ويقتحم الصفوف، في بدر، في أحد، في كل معارك الإسلام، بينما كان أولئك يجلسون جانبًا، وليتهم جلسوا جانبًا من بعد ممات الرسول ﷺ لقد كانوا في أثناء احتدام مواجهة الكفر يجلسون جانبًا، وعندما نزل ﷺ إلى قبره، بل من قبل وهو لا يزال على فراش الموت بدؤوا يتحركون

(١) لكان الداء مطاطلاً: مطاطلاً بالشفاء.

(٢) الكمد: الحزن، ومحالفته: ملازمته.

(٣) قلًا: فعل ماض متصل بألف التثنية، أي مماثلة الداء ومحالفة الكمد قليلتان لك.

(٤) نهج البلاغة / ١ / ٣٥٥.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

وينزلون إلى ساحة هذه الأمة؛ لينحرفوا بها عن نهج محمد ﷺ الذي من أجله كان يقتحم ساحات الوغى، يقتحم الصفوف، وهو يواجه المشركين ويواجه الرومان، ويواجه اليهود، ويواجه كل أصناف أعداء الإسلام!.

هناك عبارة قالها أحد العلماء بالنسبة لعلي عليه السلام: ((لو كانت الأمور تُقاس بمقاييس الدنيا لما رأينا أحداً يُعَدُّ مظلوماً أكثر مما حصل على علي من الظلم)) يجاهد، يعاني، يتعب في سبيل دين هو يعلم أنه دين عظيم، وفي خير هذه الأمة، وفي مصلحة هذه الأمة، وفي عزة هذه الأمة، ثم يرى أيادي تعبت بهذا الدين.

لقد اتجه الإمام علي عليه السلام إلى تلك الأمة نفسها التي من أجلها جاهد، ومن أجلها عانى، ومن أجل عزتها تعب، يحاول أن يحركها قبل أن يعظم الخطب، في مرحلة كان يمكن أن يتلافى فيها ما حصل له استجابة، حرّك الزهراء (صلوات الله عليها)، حرك الجانب العاطفي، ماذا عمل أولئك عندما خطبت فيهم الزهراء؟. بكوا وقالوا: إن خطوتها ما تحرم خطوة رسول الله، تذكروا رسول الله ﷺ في خطوة فاطمة، وخطأ فاطمة، ومنطق فاطمة، ولم يتذكروا رسول الله ﷺ فيما ذكرتهم به فاطمة!.

بكوا لغياب الرسول ﷺ ولم يبكوا لغياب دينه، لم يبكوا لغياب الدين الذي كان الرسول مستعداً من أجله أن يُقتل، وواجه المخاطر الشديدة من أجل هذا الدين.

فكيف لا يتألم الإمام علي عليه السلام، وكيف لا يرى نفسه مظلوماً وهو يرى الأمور تسير على هذا النحو الذي يضيع كل الجهود التي بذها الرسول ﷺ، وكل الجهود التي بذها هو وبذها عظماء آخرون من خيار صحابة رسول الله ﷺ^(١).

لقد كان مما خاطب به الناس في تلك المرحلة الحرجة قوله:

((أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُنَنِ النَّجَاةِ، وَعَرَّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَصَعُّوا تَيْجَانَ الْمَفَاخِرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ مَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَّاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ^(٢)، وَلُقْمَةٌ

(١) ملزمة ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام للشهيد القائد.

(٢) الآجِنُ: المتغير الطعم واللون، لا يستساغ، والإشارة إلى الخلافة.

يَغْصُ بِهَا آكُلُهَا، وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةَ لِعَيْرٍ وَقْتٍ إِينَاعِهَا^(١) كالزَّارِعِ بغيرِ أَرْضِهِ. فَإِنْ أَقْلَ يَقُولُوا: حَرَّصَ عَلَى الْمَلِكِ، وَإِنْ أَسْكُتَ يَقُولُوا: جَزَعٌ^(٢) مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ^(٣) بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي^(٤)! وَاللَّهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَجَّتْ^(٥) عَلَى مَكْتُونٍ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لِأَضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ^(٦) فِي الطَّوِيِّ^(٧) (البَعِيدَةِ!!)^(٨).

يقول الدكتور سعيد عاشور أستاذ التاريخ بجامعة الكويت وهو يتحدث عن صور التشويه في التاريخ الإسلامي وعند ذكره هذه الحقيقة التاريخية يقول:

((أين كان الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في ذلك الوقت؟ أين كان؟ كان مشغولاً بتجهيز الرسول ﷺ ودفنه، وهناك تبدو فكرة السمو، السمو الخلفي، فكرة النزاهة، النزاهة وعدم التكالب وراء الحكم أو الجري وراء منصب، كيف يترك جثمان الرسول ﷺ ويجري ليجتمع مع المجتمعين ليطلب لنفسه شيئاً؟! هنا الخلق هنا المتانة، كان ينبغي أن يقف المؤرخ وقفةً عند هذه المسألة، عند هذه النقطة بالذات؛ فإذا لم يكن هناك تفريط من الإمام علي - رضي الله عنه - بأي حال من الأحوال، ولكن كان هناك ما هو أهم، ما هو أسمى، الصلة التي تربطه برسول الله ﷺ في الوقت الذي انصرف فيه المنصرفون وتناقشوا وتحادوا واختلّفوا حول الخلافة، وعن مقربة منهم جثمان الرسول ﷺ شُغِلَ عليُّ بن أبي طالب بتجهيزه ودفنه؛ إذا لم يكن هناك تفريط من الإمام علي في المطالبة بحقه في الخلافة، وإذا كان الإمام علي - رضي الله عنه وكرم وجهه - قد طالب بالخلافة فينبغي أن ينزه من أنه كان يجري وراء متاع،

(١) إِينَاعُهَا: نضجها وإدراك ثمرها.

(٢) جَزَعٌ: خاف.

(٣) هَيْهَاتَ: اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُدَ، والمراد نفي ما عساهم يظنون من جَزَعِهِ مِنَ الْمَوْتِ عند سكوته.

(٤) بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي: بعد الشدائد كبارها وصغارها.

(٥) انْدَجَّتْ: انطويت.

(٦) الْأَرْضِيَّةُ: جمع رشاء بمعنى الحبل.

(٧) الطَّوِيُّ: جمع طوية وهي البئر، والبئر البعيدة: العميقة.

(٨) نهج البلاغة / ١ / ٥٢.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

لو كان يجري وراء متاع لانصرف من أول الأمر وكان أسبق السابقين إلى السقيفة إلى سقيفة بني ساعدة ليرفع صوته مع من رفعوا أصواتهم^(١).

وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام

توالت النكبات على علي وفاطمة عليهما السلام ويبدو أن توالي النكبات على فاطمة الزهراء عليها السلام سارع في وفاتها، فقد أمت بالزهراء سيدة نساء العالمين العلة التي توفيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها حيث كان الإمام عليه السلام طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة عليها السلام يعايش ما تعاني ملء كيانه؛ فهي وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله وهي الصابرة المحتسبة، وهي بعد ذلك زوجته الوفية التي عايشته معه آماله وآلامه طوال حياتها.

وأوصت - سلام الله عليها - قبيل وفاتها ألا يحضر جنازتها ولا الصلاة عليها أبو بكر ولا عمر، وشددت على الإمام علي بأن ينفذ وصيتها؛ وذكر في بعض الكتب ((فلم تعش بعد أبيها غير ستة أشهر، قضتها محاصمة لأبي بكر، فلم تكلمه حتى ماتت، ولما ماتت، دفنها زوجها علي ليلاً وصلّى عليها ولم يؤذن بها أبابكر^(٢))).

كان هذا القرار الذي اتخذته فاطمة عليها السلام حكيماً فقد أرادت أن توصل رسالة عبر مراحل التاريخ أن هناك انحرافاً حصل في تاريخ هذه الأمة وبقاء قبر الزهراء مجهولاً حتى هذه اللحظة سيثير تساؤلاً مستمراً عن سبب ذلك ويوصل إلى معرفة الانحراف وجذوره الضاربة في تاريخ هذه الأمة.

فخرج علي عليه السلام مع عمار ومجموعة خاصة من أوليائه ليدفنها في الليل ويعملون عدة قبور ليعمّوا حتى قبرها عنهم.

(١) سعيد عاشور، محاضرة قيمة، دار العالم الإسلامي، بيروت، لبنان، ص ١٧-١٩. (أحمد محمد الهادي، التاريخ الإسلامي ٩/١).

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٦٧، وانظر: الإمامة والسياسة: ١١.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

وفاطمة هي كما قال الرسول ﷺ: ((هي سيدة نساء العالمين)) (فاطمة بضعة مني يُرِيْبُنِي ما رابها، يؤذيني ما يؤذيها، يغضبني ما يغضبها، من أذاها فقد آذاني، من أغضبها فقد أغضبني)) على اختلاف ألفاظ الحديث أو تعدد رواياته^(١).

الإمام علي - سلام الله عليه - يرى ويشاهد هذه الزوجة الوفية بضعة رسول الله ﷺ تُقتل كمدًا وقهراً وهي ترى هذا الدين يُعصف به من أول يوم بعد وفاة والدها رسول الله ﷺ فيزداد ألمه وحزنه.

لم تبك السيدة فاطمة الطاهرة وتتألم على مصادرتهم لما نحلها أبوها من أراضي واسعة في (فدك) كما يصور البعض، صحيح بأن (فدك) قضية تؤلمها لكن لم تبك عليها، ولم تمت كمدًا على فدك، إنما ماتت كمدًا وحزنًا على هذه الأمة.

رأى الإمام علي عليه السلام زهراء الإسلام بعد رسول الله ﷺ وهي تعيش مرارة الأسي على ما حصل من ضياع لدين أبيها، ثم وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها وتتردى أوضاعها الصحية يومًا بعد يوم، ثم يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها الطاهرة ثم يقف على شفير قبرها مودعًا ولا ينسى أن يحملها رسالة إلى أبيها رسول الله ﷺ بعبارات تكشف عن ألمه وحزنه، شاكياً إلى أخيه ومربيه ومعلمه رسول الله ما ألم به وما يعانيه قائلاً:

((السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجْلُدِي، إِلَّا أَنْ لِي فِي النَّاسِي (١) بَعْظِيمٍ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحٍ (٢) مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّ (٣)، فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ (٤)، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ.

(١) البخاري، ج ٥ / ص ٢٦، باب مناقب فاطمة، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢) يريد بالناسي: الاعتبار بالمثل المتقدم.

(٣) الفادح: المثقل.

(٤) التعزي: التصبر.

(٥) مَلْحُودَةُ القبر: الجهة المشقوقه منه.

السِّيْرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأَخَذَتِ الرَّهْيِنَةَ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ^(١)، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتَبْتَبُّكَ ابْنَتُكَ (بِتَضَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا)^(٢)، فَأَخْفِهَا السُّؤَالَ^(٣)، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَحُلْ مِنْكَ الذِّكْرُ. وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْمَا سَلَامَ مُودَعٍ، لَا قَالٍ^(٤) وَلَا سَمٍ^(٥)، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَائِكَةٍ، وَإِنْ أَقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ^(٦))).

موقف المجتمع في مكة والمدينة

وبعد أن بويع لأبي بكر بالخلافة تميّز في مجتمع المدينة ومكة، عن سائر الناس، فريقان: الفريق الأول: فريق أظهر كل ما كان يخفيه من نفاق وسعى إلى إثارة الفتنة، يقابله فريق آخر لم يظهر الحق بكل ما يملك من قدرة..

فأمّا الفريق الأول: فهم الكائدون للإسلام، أولهم وعلى رأسهم أبو سفيان الذي قدم على أمير المؤمنين عليه السلام يجرّضه من مناجزة القوم الذين كانوا مع أبي بكر، فيقول له: والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورَجِلاً. فردّه عليه السلام: ((والله إنك ما أردت بهذه إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك))^(٦).

ومن هذا القسم أيضاً مسلمو الفتح: - الطلقاء، والمؤلفة قلوبهم - وكان في طليعتهم: سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، سعوا في الفتنة أيضاً، يجرّضون قريشاً على الأنصار لهاتفهم باسم عليّ، يريدون إلزامهم بتجديد البيعة وإلا فليقتلوههم!

(١) مُسَهَّدٌ: أي ينقضي بالسهاد وهو السهر.

(٢) هَضْمُهَا: ظلمها.

(٣) إِخْفَاءُ السُّؤَالَ: الاستقصاء فيه.

(٤) الْقَالِي: المبعوض.

(٥) السَّمُّ: من السامة وهي الضجر.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب ٦٢.

وظهر أبو سفيان مرّةً أخرى قائلاً: يا معشر قريش، إنّه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس، حتى يُقرّوا بفضلنا عليهم.. وأيم الله لئن بطروا المعيشة، وكفروا النعمة، لنضربنّهم على الإسلام كما ضربونا عليه!

هؤلاء هم الذين طالما كادوا للإسلام بسيوفهم عشرين عاماً أو تزيد فدخلوا الإسلام عنوةً، فلمّا لم يجدوا بداً من الكيد بأيديهم كادوه بألسنتهم.

وما أجمل قول حسن بن ثابت:

وعرمة الشاني لنا ابنُ أبي جهل	تنادى سهيلٌ، وابن حرب
على خطّةٍ ليست من الخططِ الفضلِ	أولئك رهطٌ من قريشٍ تبايعوا
يقول اقتلوا الأنصار، يا بئس من فعل	وكلّهم ثانٍ عن الحقِّ عطفه
كأنّا اشتملنا من قريش على ذحل ^(١)	وأعجب منهم، قابلوا ذاك منهم

أمّا الفريق الآخر: فهم المناصرون لعليّ عليه السلام، الداعون إلى حقّه بالإمامة، ويلحق بهذه الطائفة المهاجرون والأنصار الذين مالوا عن مبايعة أبي بكر، حيث كانوا لا يشكّون أنّ الأمر صائر إلى عليّ عليه السلام، وكان شعارهم الذي رفعوه بأصواتهم: ((لا نبايع إلاّ عليّاً)) ومنهم: عتبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب الذي أنشد يقول:

عن هاشم، ثمّ منها عن أبي الحسن	ما كنتُ أحسبُ أنّ الأمرَ منصرفٌ
وأعلم الناس بالقرآنِ والسُننِ	عن أوّل الناس إيماناً وسابقةً
جبريلُ عونٌ له في الغسل والكفن	وآخر الناس عهداً بالنبِيِّ ومَنْ
وليس في القوم ما فيه من الحسن ^(٢)	مَنْ فيه ما فيهم لا يمترون به

ومنهم: المقداد وعمّار وسلمان وأبو ذرّ وحذيفة بن اليمان وخالد بن سعيد بن العاص وأبو أيوب الأنصاري، وسائر بني هاشم.

ولا ننسى موقف الحسن السبط من أبي بكر، حين رآه يرقى منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٠٩، الكامل في التاريخ ٢/١٨٩.

(٢) الموقفيّات للزبير بن بكّار: ٥٨٥.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

وهو ما يزال في الثامنة من عمره، يناديه: ((إنزل عن منبر أبي، واذهب الى منبر أبيك))^(١)! ومنهم: ابن عباس في حديثه مع عمر، حين سأله عمر عن عليٍّ عليه السلام، فقال: أيزعمُ أن رسول الله نصَّ عليه؟!

قال ابن عباس: نعم، وأزيدك: سألت أبي عن ذلك، فقال: صدق^(٢) وغيرها من المواقف التي سنأتي عليها في موضوع لاحق.

ومنهم: قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، إذ ذكر - سعد بن عبادة - علياً عليه السلام، فذكر من أمره نصّاً بوجوب ولايته، فقال له ابنه: أنت سمعت من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول هذا الكلام في عليٍّ بن أبي طالب، ثمَّ تطلب الخلافة، ويقول أصحابك: منّا أمير ومنكم أمير؟! لا كلّمتمك والله من رأسي بعد هذا كلمةً أبداً^(٣).

وفي ما وراء المدينة ومكة هناك قبائل من المسلمين، لم يرضوا بالبيعة لأبي بكر، فامتنعوا عن أداء الزكاة له، لا جحوداً بالزكاة، ولكن إنكاراً لزعامته^(٤)، فعزم أبو بكر على مقاتلتهم بحجّة أنّ هذا الأمر تعطيل لفريضة الزكاة التي أوجبها الله على المسلمين، غاصّاً بصره عن السبب الأصلي الذي دعاهم إلى هذا الموقف الصلب، وهو اعتراضهم على الخلافة!

فمع أحد شيوخ كندة في حضرموت، الحارث بن سراقه يقول: ((نحن إنّما أطعنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ كان حيّاً، ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه، وأمّا ابن أبي قحافة فلا والله، ما له في رقابنا طاعة ولا بيعة))! ثمَّ أنشد أبياتاً، كان أوّلها:

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٢/ ٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة ٦/ ٤٤.

(٤) وهؤلاء غير المرتدين الذين خرجوا من الإسلام كأتباع مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي.

اليقوي ٢/ ١٢٤، الموقّيات: ٥٨٠.

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجباً مَنْ يطيع أبا بكر^(١)

ومنهم: زعيم كندة الأشعث بن قيس، الذي أمر قومه بمنع الزكاة، وأن يلزموا بلادهم، ويتحدوا على كلمة واحدة، ((فإني أعلم أن العرب لا تقرُّ بطاعة بني تيم بن مرّة، وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيرهم...))^(٢).

والأنكى من ذلك كان الأمر مع مالك بن نويرة، الذي استعمله رسول الله ﷺ على صدقات قومه، فلمّا نُعي له رسول الله ﷺ قام بتوزيع الصدقات على فقراء قومه، ولم يبعثها إلى الخليفة الجديد..

وأنشد يقول:

فقلتُ خذوا أموالكم غير ولا نظِرَ فيما يجيء من الغدِ
فإن قام بالدين المحوَّق قائمٌ أطعنا، وقلنا الدين دينُ محمَّد

إذن هؤلاء لم تطمئن قلوبهم للخليفة الجديد، هذه هي مشكلتهم التي من أجلها ارتكب خالد بن الوليد أبشع مجزرة في ظلّ الخلافة الجديدة، فضرب أعناقهم صبراً واحداً بعد الآخر وارتكب أيضاً أقبح كبيرة، إذ واقع زوجة مالك في ليلة قتله^(٣).

(١) انظر: الفتوح لابن أعمش ١/ ٥٨، معجم البلدان لياقوت الحموي، ((حضر موت)).

(٢) الفتوح ١/ ٥٩ - ٦٠.

(٣) الفتوح ١/ ٢١ - ٢٣، أسد الغابة والإصابة ترجمة خالد بن نويرة، تاريخ يعقوبي ٢/ ١٣١ - ١٣٢، سير أعلام النبلاء (سير الخلفاء الراشدين): ٤٣.

مواقف بني هاشم

كانت مواقف بني هاشم عموماً تنم عن قناعتهم الراسخة بأن الخلافة لعلي عليه السلام، وأن أبا بكر أخذها منه عنوة. فكانت الزهراء تقول (ويجهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة؟ ألا ذلك الخسران الممين ما الذي نقموا من أبي الحسن؟ استبدلوا والله الذناب بالقوادم والعجز بالكاهل؟ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يعلمون) ^(١).

أما ابن عباس فكان يرى أن النبي أثناء مرضه الأخير، أراد أن يصرح باسم علي خليفة له من بعده، لكن عمر منعه عن ذلك. ويبدو هذا واضحاً في قول ابن عباس لعمر (كان النبي يربع في أمره وقتاً، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه (علي) فمنعته من ذلك) ^(٢).

كذلك كان عقبه بن أبي لهب يطالب بالخلافة لابن عمه، علي بن أبي طالب ^(٣). لهذا لا نستغرب إذا وجدنا الحسن بن علي، يقول لأبي بكر، وهو على منبر النبي انزل عن مجلس أبي فيرد أبو بكر صدقت والله! انه مجلس أيبك ^(٤).

ابن عباس في حوارهِ مع عمر:

إن الملاحظ للتاريخ بعد وفاة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سيعرف أن هناك قصداً في تجنب الأسرة الكريمة - وخاصة علي - من هذا الشأن الذي يخصه بالدرجة الأولى حيث لم

(١) بلاغات النساء لابن أبي طيفور ٢٠/١٩، أعلام النساء لعمر كحالة ٢١٩/٣، شرح النهج للمعتزلي ٨٧/٤.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ١٤١/٣، أنظر أيضاً: تاريخ بغداد.

(٣) مختصر أبي الفداء ٨/٢.

(٤) أنظر: الصواعق المحرقة لابن حجر ١٧٥، الإتحاف بحب الأشراف، الشبراوي ط الحلبي ص ٧، الرسول الأعظم مع خلفائه ٣٥، شرح النهج ١٧/٢.

السِّيْرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

تغرب شمس ذلك اليوم حتى أُبرم الأمر وتمت البيعة لأبي بكر خليفة المسلمين وانتهت فصول السقيفة بهذا الحدث التاريخي وأعقب الحدث أمر صارم من الخليفة أو مؤيديه بأن كل من لم يبايع فمصيره القتل ولأنه كما يرى أن هذا الحكم للمصلحة العامة..

وتوالى التبريرات لموقفهم، فقد ادعوا بأن النصوص التي وردت في الإمام علي قد جهدت للمصلحة العامة! فأى مصلحة عامة هذه تقف قبالة النص الشرعي وتقدم عليه؟!..

ولم تكن التبريرات التي ساقها القوم كافية مقنعة، وبقي السؤال يلتاع على الشفاه فترة ظامئاً إلى الجواب الشافي، حتى كان يوم أن اجتمع فيه الخليفة عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس ودار بينهما الحديث التالي:

عمر لابن عباس: أتدرى ما منع قومكم منكم بعد محمد؟

ابن عباس - وهو يكره أن يخوض في هذا الحديث مع الخليفة -: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني..

عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا^(١) على قومكم بجحاً بجحاً فاخترت قريش لنفسها فأصابت ووفقت.

ابن عباس: أما قولك (فاخترت قريش لنفسها فأصابت ووفقت) فلو أن قريشاً اختارت لنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ومحسود.. أما قولك (إنهم كرهوا أن تكون النبوة لنا والخلافة) فإن الله عز وجل وصف قومًا بالكراهية فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾^(٢).

عمر: هيهات: والله يا بن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء وكنت أكره أن أخبرك عنها فتزيل منزلتك عندي..

(١) تبجحوا: أي تتفاخروا.

(٢) سورة محمد: الآية/ ٩.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

ابن عباس: وما هي؟.. فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزول منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمثلي من أباط الباطل عن نفسه..

عمر: بلغني أنك تقول إنها حذفوها حسداً وظلماً.

ابن عباس: أما قولك (ظلمًا) فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك (حسدًا) فإن إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون.

عمر: هيهات أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول، وضغناً وغشاً ما يزول.

ابن عباس: مهلاً، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً بالحسد والغش.. فإن قلب رسوله الله ﷺ من بني هاشم.
عمر: إليك عني (١).

هذه المحاوره تكشف بوضوح الأسباب الرئيسية التي دعت القوم أن يصرفوها عن صاحبها الذي نص عليه رسول الله ﷺ صاحب الرسالة كراهة أن تجتمع في بيت عبد المطلب النبوة والخلافة..

ويقول الإمام علي عليه السلام مصوراً ما حدث: ((حتى إذا قبض رسوله رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتكلوا على الولايج^(٢) ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رص أساسه، فبثوه في غير موضعه معادن كل خطيئة، وأبواب كل ضارب في غمرة))^(٣).

يقول علي عليه السلام مخاطباً أحد عماله ومتحدثاً عن مظلوميته: ((بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلتها السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحكم الله، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفوس مظانها في غد جدث^(٤) تنقطع في ظلمته

(١) تاريخ الطبري ٣١ / ٥، والكامل لابن الأثير ٣ / ٣١، وشرح النهج لابن أبي الحديد ٥٧ / ٢.

(٢) الولايج: جمع وليجة، وهي بطانة الإنسان وخاصته.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤٨ / ٢.

(٤) الجدث: القبر.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم))^(١).

لقد استأثروا بالأمر، ونقلوه عن أهله ومعدنه، ووضعوه في غير محله وقد فاجؤوا أهل البيت عليهم السلام والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، بصرف الأمر عنهم والاعتداء عليهم، وتركوهم يتجرعون الغصص ويتوسدون الأرق، وتساورهم السموم، فما أعظم رزيتهم! وما أشد محتتهم وبلاءهم!!^(٢).

وامتنع أمير المؤمنين عن البيعة، وأعلن سخطه البالغ مما حدث، وقدم الأدلة والاحتجاجات على أحقيته مع علمه أن محله من الخلافة محل القطب من الرحن دون جدوى... حتى لقد مورس في حقه وأهل بيته الحصار الاقتصادي مع العزل السياسي وتحمل الإمام عليه السلام كل ذلك بصبر وثبات وحكمة.

وكيفما كان فإن حوادث السقيفة انتهت، وحملت بين طياتها سحابة قاتمة ومأساة مفجعة، ونيراناً تستعر لهباً مزقت المسلمين وشوشت الصورة الواضحة للإسلام، وعلى كلٍّ فقد اقتضت الحكمة أن يصبر الإمام كما قال على طخية عمياء..

(١) نهج البلاغة، ٥٩٢.

(٢) حياة الإمام الحسن ١/١٢٧.

الإمام علي بن أبي طالب: الثابت والمتحولات

كان الإمام علي بن أبي طالب يحاول أن يذكر الآخرين بخطورة الانحراف عن توجيهات الرسول في موضوع ولاية الأمر ويورد لهم نصوصا لعلمهم يتذكرون ويتراجعون عن موقفهم ، من تلك النصوص الشهيرة؛ نص يوم الإنذار في دار أبي طالب، حين دعا النبي عشيرته الأقربين، ((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾))^(١) وانتهى بأن أخذ بيد علي، وكان صبياً صغيراً، وقال ((هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا))^(٢) كذلك تذكر مصادر عديدة، أن النبي، قال لعلي: ((لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي))^(٣) من هنا، كان رفض علي الواضح لخلافة أبي بكر. فحين جاؤوا إليه، وقالوا له بايع! قال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم، وأنتم أولى بالبيعة لي؛ أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، والافبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

قال عمر: إنك لست متروكاً حتى تبايع^(٤).

يبدو أن علياً كان يفهم سبب إصرار عمر على المبايعة، فقد قال علي لعمر أحلب

(١) سورة الشعراء: الآية/ ٢١٥.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٣١٩/٢-٣٢١، الكامل لابن الأثير ٦٢/٢ و٦٣، شرح النهج للمعتزلي ١٣/١٢٠ و٢٤٤، السيرة الحلبية ١/٣١١، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٤١/٥ و٤٢، شواهد التنزيل للحسكاني ١/٣٧١، كنز العمال ٦/٣٩٢، تاريخ ابن عساكر ١/٨٥، حياة محمد حسين هيكل ١٠٤ ط عام ١٣٥٣هـ، تفسير الخازن ٣/٣٧١ و٣٩٠، التفسير المنير للجاوي ٢/١١٨، تفسير الطبري ١٢١/١٩.

(٣) تاريخ ابن عساكر ١/١٨٣، أنساب الأشراف ٢/١٠٦، مستدرک الصحيحين ٢/١٣٢، مسند ابن حنبل ٥/٢٥، الإصابة للعسقلاني ٢/٥٠٩.

(٤) شرح النهج للمعتزلي ٢/٢.

حلبًا لك شطره، والله ما حرصك على إمارته إلا ليؤثرك غداً^(١). وفي نص آخر (أحلب يا عمر حلبًا لك شطره؛ أشدد له اليوم ليرد عليك غداً. لا والله لا أقبل قولك ولا أتابعه! فقال له أبو بكر (بأسلوبه اللين): فان لم تبايعني لم أكرهك.

فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن! إنك حدث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واضطلاًغاً به؛ فسلم له هذا الأمر وارضى به؛ فإنك إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر لخليق وعليه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك. فقال علي: يا معشر المهاجرين! لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم! نحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم. فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا عن الحق بعداً.

فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان، ولكنهم قد بايعوا.

وانصرف علي إلى منزله ولم يبايع^(٢)، لكن يبدو أن الرياح كانت تسير بعكس ما يشتهي علي. وتخبّرنا بعض المصادر، مثلاً، أن جماعة اجتمعت إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: اغدوا علي محلّقين الرؤوس فلم يغد إلا ثلاثة نفر^(٣).

كذلك يخبرنا مرجع آخر، أن علياً كان يحمل فاطمة على حمار ويسير بها إلى بيوت الأنصار يسألهم النصر، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله! قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به.

فقال علي: أفكنت أترك رسول الله (ﷺ) ميتاً في بيته لم أجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه؟!!

(١) أنساب الأشراف ١/ ٥٨٧.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ٢/ ٢-٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٢٦، شرح النهج للمعتزلي ٢/ ٤.

فقالت فاطمة: ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه^(١).

لعب أسلوب الترغيب مثال العباس والترهيب مثال سعد بن عباد، الذي استخدمته جماعة الحكم، دوره الأبرز في تقاعس الناس عن نصرته علي - أسلوب استمر طويلا بعد استقرار الحكم لأبي بكر في المدينة، فعلى سبيل المثال، رفض خالد بن سعيد بن العاص مبايعة أبي بكر، وانحاز إلى علي.

لكنه خضع بعد ذلك لضغط الظروف، وبايع وبعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل علي ربيع منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع ما صنع وقال ما قال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان^(٢) مع ذلك، فإن حادثين هامين كانا السبب المباشر لرضوخ علي للأمر الواقع ولو مرحليا :
١- وفاة فاطمة الزهراء بما كان لها من مكانة اجتماعية وثقل مساند لعلي عليه السلام.

٢- ما اصطالحوا على تسميته بارتداد العرب.

(١) الإمامة والسياسة ١/١٢، شرح النهج للمعتزلي ٦/٥-٢٨.
(٢) تاريخ الطبري ط أوروبا ١/٢٠٧٩، تهذيب ابن عساكر ٥/٥١.

مناقشة نصوص السقيفة وبعض نتائجها

- بيعة أبي بكر كانت فلتة:

وهكذا تمت عملية الاستيلاء على السلطة التي تم التخطيط لها من قبل، مستغلين انشغال الإمام علي عليه السلام والمخلصين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تغسيل وإعداد الجثمان الطاهر لمواراته الثرى، ففيما كان الإمام علي ومن يعرفون عظمة رسول الله منشغلين بوداع رسول الله كان هناك في سقيفة بني ساعدة من يعد نفسه ليحكم المسلمين وتمت لهم العملية بالتضليل والإرهاب وبالتعاون مع أمراض النفوس حتى إن عمر نفسه اعترف وقال: ((إن بيعة أبي بكر كانت فلتة))^(١) يعني هكذا (تَلَجَمَتْ ومشت)، يعني لم يكن هو المؤمل فيه، ولا المتوقع لمثله هو أن تستقيم له المسألة، وكان المتوقع أن يأتي اضطراب كبير، وكان المتوقع أن يأتي أشياء كثيرة.

(فَلْتَةٌ لكن وقى الله شرها) كما قال!! هذا يدل على أن أبا بكر نفسه لم يكن هو الشخص المؤهل لأن يلي أمر الأمة؛ لأن عمر نفسه وأبو بكر نفسه كانا متخوفين ألا تتم المسألة ولكن سيجربون فربما تمضي المسألة من خلال إدراكهم للناس، وفهمهم للآخرين من بني أمية والمنافقين.. فكانت فلتة.

الشخص الذي يكون محط إجلال وإكبار الناس جميعاً لا تكون بيعته فلتة. الإمام علي ألم يتجهوا إليه كلهم بعد ما قُتل عثمان؟ حتى كادوا يطأوا ابنه الحسن! اتجهوا كلهم إليه من بعد يبايعونه جميعاً؛ لأنه لا أحد يشك في أن علي بن أبي طالب ليس أهلاً للولاية، لكن كان عمر نفسه ممن يشك بالنسبة لأبي بكر؛ لأن الناس يعرفون بأنه ليس أهلاً للخلافة ولكن ربما تنجح المسألة.. فكانت فلتة ومشت المسألة.

لكن قوله: ((وقى الله شرها)) ليس صحيحاً ما زال شرها إلى الآن، وما زال شر تلك

(١) انظر: البخاري ٦/٢٥٠٥، وابن حبان ٢/١٥٥، وسنن البيهقي ٤/٢٧٢، ومسند البزار ١/٤١٠.

البيعة التي قال أنها ((فلتة)) ما زال شرها إلى الآن، وما زلنا نحن المسلمين نعاني من آثارها إلى الآن.

هي كانت طامة بشكل عجيب، هي سبب المشكلة وهي المعمّي على حل المشكلة، لا يوجد قضية مثلها، أن تكون هي سبب المشكلة، والذي يعمي على ألا تعرف حلها. ألا ترى المسلمين كيف أنهم لم يستطيعوا أن يخلصوا إشكالياتهم نهائياً، ما أكثر المسلمين خصوصاً من إخواننا أهل السنة وهم متولون لأبي بكر وعمر؟، لم يستطيعوا أن يصلوا إلى حل إطلاقاً في قضيتهم هذه في صراعهم مع أعداء الإسلام، والأمة في كل سنة تهبط نحو الأسفل نحو الأسفل جيلاً بعد جيل بعد جيل إلى أن وصلت تحت أقدام اليهود، من عهد أبي بكر إلى الآن وهي تهبط جيلاً بعد جيل.

كيف تكون هذه المشكلة سبباً لمشاكل المسلمين، ثم هي من يعمّي على الحلول أمام المسلمين، يكون أحياناً سبب المشكلة هنا والحلول هناك، يوجد مشاكل كثيرة تكون سبب المشكلة هنا وحلها هناك، ولا تكون المشكلة نفسها هي من يعمّي على الحل. أما هذه المشكلة فكانت من هذا النوع، قضية أبي بكر وعمر كانت هي سبب مشاكل المسلمين ثم هي من غطى على أعينهم عن أن يعرفوا الحل والمخرج منها.

ألف وأربعمائة سنة أليست فترة طويلة؟ ألف وأربعمائة سنة والمسلمون لم يجلسوا جلسة واحدة ليناقشوا لماذا؟ ما هو الخلل؟. ما الذي حصل حتى أصبحنا على هذا النحو؟ إلى تحت، إلى تحت، بعد كل مائة سنة هبوط هبوط، وكم قد جاءت من ضربات للأمة هذه ضربها الصليبيون ضربات شديدة، ضربها التتار والمغول ضربات شديدة، الصليبيون من قبل، والصليبيون في فترات الاستعمار المتأخرة، وهكذا ضربة بعد ضربة حتى أصبحوا الآن تحت أقدام اليهود، ولم يجلسوا ليناقشوا المسألة من جديد، ويرجعوا إلى القرآن الكريم لينظروا هل فيه حل؟ هل هو وضع حلاً؟ هل عالج المشكلة هذه؟ هل تحدث عن أسباب هذه المشكلة؟ أبداً.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

ولن يتخلوا عن أبي بكر وعمر حتى آخر ذرة من البلاد العربية، حتى آخر ذرة من تراب الوطن العربي، ما معنى إلى آخر ذرة؟ يعني إلى آخر ذرة تستعمر وتستذل وتقهر^(١).

- الأنصار كانوا أول من دفع ثمن التفريط:

يقول السيد حسين - رضوان الله عليه -:

((ولقد كان الأنصار في طليعة من دفعوا ثمن تفريطهم؛ لأنه كان من المفترض عليهم أن يجتمعوا مع الإمام علي عليه السلام؟ لا أن يجتمعوا هناك وحدهم، ويأتمروا وحدهم خوفاً منهم أنه ربما لا تتم المسألة للإمام علي! فكان الصواب أن يذهبوا هم إلى الإمام علي ويقفوا معه حتى تتم المسألة، لا أن يقولوا: ربما لا تتم المسألة فالأحسن أن نكون قد انتبهنا لأنفسنا حتى لا يأتي آخرون فيمسكوا بزمام الأمور فيظلمونا.

لم تنفعهم هذه. ظلّموا، وأهينوا في أيام أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية، ويزيد اجتاح المدينة إجتياحاً رهيباً جداً قتل حوالي سبعمائة شخص أو أكثر منهم، وانتهك أعراضهم ودمر بيوتهم، قضية رهيبة جداً حصلت لهم.

هذه العواقب السيئة التي نالتهم بسبب تفريطهم وهي قضية قائمة في دين الله، هذا هدى الله هل الناس سيقبلونه؟ يجب أن يقبلوه وإلا فيجب أن يعرفوا بأن البديل هو الحزبي، والعواقب السيئة في الدنيا والآخرة)).

استكمال مناقشة نصوص السقيفة:

قال عمر بن الخطاب (كانت بيعة أبي بكر فلتة وقي الله شرها) لماذا؟

قد لاحظنا أولاً أن أبا بكر وعمر بن الخطاب تناقلا عن المضي في سرية أسامة بن زيد لشعورهما، على الأرجح، بدنو أجل النبي وخوفهما بالتالي من أن يتوفى النبي ويعين الخليفة في غيابهما.

(١) درس من هدي القرآن الكريم، سورة المائدة، الدرس الأول.

من ناحية أخرى، أراد النبي، وقد رأى أن خطته بإنفاذ هؤلاء في سرية أسامة بن زيد لن تكتمل، أن يملي على المسلمين وصيته التي كانت ستتضمن حتمًا أشياء لن تعجب عمر بن الخطاب - كان أبو بكر غائبًا - فاحتج عمر بقوله، إن النبي يهدو.

غاب بنو هاشم عن السقيفة ومجريات الأمور فيها لانشغالهم بغسل النبي وتجهيزه. لكن بعض الأنصار، الذين لم ينتظروا حتى يدفن النبي ويكتمل حضور الجماعة الإسلامية الأولى، اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للنبي منهم. وحين سمعت مراكز القوى القرشية بذلك، تدافعت إلى السقيفة كي تحبط مسعى الأنصار.

بدا الموقف الأنصاري ضعيفًا منقسمًا منذ البداية الأولى. يضاف إلى ذلك الحس القبلي عند بعض الأنصار، الذي كان يقول، إن الأنصار، رغم أنهم هم الذين أعزوا النبي وأصحابه وجاهدوا أعداءه حتى استقامت العرب، إلا أن قريش أهله وعشيرته، وهم الأحق بخلافته؛ لذلك اقترح في البداية أن يكون أمير أنصاري وأمير قرشي، فرد سعد بن عباد: هذا أول الوهن.

مقابل ذلك، بدا الموقف القرشي، في غياب بني هاشم، متراصًا خلف عمر بن الخطاب. وحين حضر القرشيون إلى السقيفة، احتج أبو بكر بأن قريش أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بالخلافة من بعده؛ وحاول استرضاء الأنصار، بالقول: نحن الأمراء وأنتم الوزراء؛ فوقف الحباب بن المنذر، وقد أضعف وضع سعد بن عبادة الصحي موقف الأنصار، ليحتج على القرشيين، بالقول، إن البلاد بلاد الأنصار، وطالب بإجلاء قريش عن المدينة. بعدها، جاء أول تنازل أنصاري والذي جر وراءه تنازلات كثيرة: منا أمير ومنكم أمير. لكن عمر رفض ذلك بحسم، محتجًا أيضًا بالحس القبلي ذاته: نحن أولياء النبي وعشيرته. فجاء رد الحباب العنيف: أجلوهم عن هذه البلاد، فبأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به.

لكن التنافس الأوسي الخزرجي من جهة، والتنافس الخزرجي الخزرجي من جهة أخرى، قضايا على أي أمل للأنصار في تسلم سدة الحكم. فقد كانت ذكرى حرب

البعث، التي لم يكن قد مضى عليها سنوات كثيرة، بين الأوس والخزرج، ماثلة في البال.

لذلك خاف الأوس من سلطة الخزرج؛ وخافوا أكثر من أنهم إذا دعموهم للوصول إلى سدة الحكم، أن لا يجعلوا لهم فيه نصيباً، وتكون لهم بذلك فضيلة. فوقف بالتالي زعيم الأوس: أسيد بن حضير، أبرز منافسي سعد بن عبادة وحساده، ليطالب بمبايعة أبي بكر، دون أن ننسى طبعاً العلاقة المميزة التي كانت تربط أسيد بن حضير بأبي بكر وعمر. ومن ناحية أخرى، فقد بايع بشير بن سعد الخزرجي أبا بكر، حتى لا تذهب الخلافة إلى ابن عمه ومنافسه سعد بن عبادة. وعلل ذلك بقوله إنه يكره منافسة قوم حقاً جعله الله لهم رغم هذا، كان موقف بشير غير مستقر، يتذبذب بين تأييد أبي بكر والانتصار لعلي.

أخيراً، كان لمجيء قبيلة أسلم التي ملأت شوارع المدينة ومبايعتها أبي بكر، أثره الحاسم، في دعم موقف جماعة الحكم ضد الأطراف الأنصارية المعارضة.

- الهاشميون:

بدا أن معظم كبار القرشيين - عدا بني هاشم - ومعظم وجهاء الأنصار كانوا منشغلين بصراعات الحكم إلى درجة أنهم نسوا غسل النبي وتجهيزه، رغم استمرار ذلك من الاثنين حتى عصر الثلاثاء^(١). بل إن انشغال أبي بكر وعمر بأفراح التنصيب منعهما من حضور مراسم دفن النبي^(٢).

لم يعلم بنو هاشم، وبينهم الإمام علي، بمجريات الأمور في السقيفة وما بعد، حتى تعالت أصوات الفرع بمبايعة أبي بكر في المسجد: كان بنو هاشم منشغلين بتجهيز النبي للدفن. وبعد استقرار البيعة لأبي بكر، حاولت جماعة الحكم، فرض الأمر على علي وبني هاشم بالقوة، لكنهم فشلوا.

(١) طبقات ابن سعد ٢ ق ٢/٧٨ ط ليدن.

(٢) كنز العمال ٣/١٦٠.

وكان لفاطمة الزهراء، ابنة النبي الوحيدة آنذاك، بما تشكل من ثقل معنوي كبير، أبرز الأثر في إفشال مخطط جماعة الحكم. لذلك، كانت محاولاتهم المتكررة للضغط على الزهراء:

* حرمان بني هاشم من الخمس، الذي كان سيتيح لهم فرصة الاستقلال المادي عن جماعة الحكم، ويساعدهم بالتالي على الاستقلال الفكري العقائدي أيضًا.

* رفضهم إعطاء فاطمة حقها من الإرث في فدك.

- هذا يقودنا إلى السؤال المشروع التالي: هل يعقل أن يطالب أبو بكر، فاطمة الزهراء، ابنة النبي وخديجة وزوجة علي وأم الحسن والحسين، بتقديم أدلة على صحة أقوالها أيًا كانت؟ وإذا كانت فاطمة بحاجة إلى دلائل على صحة أقوالها، فمن هو ذا، في طول التاريخ الإسلامي وعرضه، الذي سنصدق أقواله دون دلائل قاطعة؟

فقد نقلت تلك الكتب عن أبي بكر قوله، فيما يتعلق بالإرث النبوي، ان الأنبياء لا يورثون؛ ونسب هذا القول للنبي ذاته. مع ذلك، فاحتجاج الزهراء بالقرآن الكريم ﴿بِرَثْنِي وَبِرَثِّ مَنِ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(١) حجة كافية فإذا افترضنا أن المقصود بالإرث في الآية الكريمة هو الإرث المادي، فذلك يعني أن لفاطمة الحق الكامل في الإرث النبوي؛ وإذا كان المقصود بذلك الإرث المعنوي، لكان لها أيضًا الحق الكامل في هذا الإرث المعنوي (وراثته الكتاب) كذلك فإن رفض أبي بكر شهادة علي بن أبي طالب في قضية الميراث يتناقض تمامًا مع قول النبي عن علي، إن الحق معه، يدور حيثما دار^(٢).

أما التناقض الأبرز الذي سيدخل فيه من يدافع عن جماعة الحكم فيبدو صارخًا في تضارب الأقوال التالية، الذي لا سبيل إلى حله عندهم نقل عن النبي صلوات الله

(١) سورة مريم: الآية/٦.

(٢) أنظر: الترمذي ٢٩٧/٥، المستدرک للحاکم ١٢٤/٣، تاریخ ابن عساکر ١١٧/٣، شرح النهج ٥٧٢/٢.

عليه وآله قوله لابنته الزهراء ((الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك))^(١)؛ ((فاطمة بضع مني يؤذيني ماأذاها ويريني مارابها))^(٢)؛ ((فاطمة بضع مني يغضبني ما أغضبها)) وقال النبھاني: وفي رواية ((فمن أغضبها أغضبني))^(٣)؛ ((فاطمة بضع مني يقبضني مايقبضها ويسطني مايسطها))^(٤).

من ناحية أخرى، جاء في الكتب التراثية التابعة لكل المذاهب الإسلامية أن فاطمة ((وجدت على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتى مات))^(٥)؛ وجاء أيضاً: ((غضبت فاطمة بنت رسول الله (ص) فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت))^(٦)؛ وأيضاً: ((غضبت فاطمة على أبي بكر فهجرته، فلم تكلمه حتى مات))^(٧).

العباس والإمام:

يكشف الحوار المذكور في نص السقيفة، الذي دار بين جماعة الحكم والعباس، عم علي عليه السلام، عن أكثر من وجه. فالمغيرة بن شعبة، رأى في رشوة العباس بأن يجعل له نصيباً من الخلافة، غايتين: فهم يضعفون موقف الإمام علي من جهة، وتكون لهم حجة إذا مال العباس معهم، من جهة أخرى. كذلك فإن حوار أبي بكر وعمر مع العباس يكشف عن توزيع أدوار، صقور وحمام، بين جماعة الحكم، لا سبيل إلى إنكاره. أبو

(١) أنظر: الإصابة ٤/٣٦٦، كنز العمال ١١/١٢ و ١٣/٦٤٦، المستدرک للحاکم ٣/١٥٤، أسد الغابة ٣٢٢/٥.

(٢) أنظر: الباري ٧/٤٧، مسلم ٤/١٩٠٢، الترمذي ٥/٦٩٨، الإصابة ٤/٣٦٦، ابن ماجة ١/٦٤٤، كنز العمال ١٢/١٠٧ و ١١٢.

(٣) البخاري ٥/٢٦ و ٣٦، الجامع الصغير للمناوي ٢/١٢٢.

(٤) المستدرک للحاکم النيسابوري ٣/١٥٨، الجامع الصغير للمناوي ٢/١٢٢، كنز العمال ٢/١٠٨ و ١١١.

(٥) البخاري ح ١٧٥٩.

(٦) البخاري ح ٢٩٢٦، ح ٦٣٤٦، ٦/١٣٩، ١٤١، ٣/١١٢٦، ١٢: ٤، ٧: ١٢٥٩.

(٧) أنظر: الترمذي، كتاب السير، باب ٤ ج ٤، ٤/١٥٧، مسلم، كتاب الجهاد، باب ١٦، مسند أحمد ١/٦ و ٢/٣٥٣، شرح النهج للمعتزلي ١٦/٢١٧، النسائي، كتاب الفیء، باب ١ ج ٧/١٢٠.

بكر يتحدث إلى العباس، بأسلوب يختلف عن حديثه للأنصار (إن رسول الله منا ومنكم لكن عمر يقول بصرامته المعهودة، إنهم لم يأتوه لحاجة، أي ليسوا بحاجة لاسترضائه، بل حتى لا يتفاهم الخطب. وبالمنطق ذاته الذي خاطب فيه أبو بكر وعمر الأنصار، رد العباس، فقال إنه إذا كان أبو بكر يطلب برسول الله، فقد أخذ حقهم، وهو لن يرضى برشوته ببعض هذا الحق دون بعض. وكما يقطع عليه الطريق، أردف أنه إذا كان هذا الحق للمؤمنين، فليس لأحد أن يحكم فيه وحده، فبنو هاشم من المؤمنين، وهم لم يكونوا موجودين أثناء المبايعة. وأنهى كلامه بقوله: إن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها من ناحية أخرى، كان علي يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن ما حصل انقلاب على مبادئ وقيم الإسلام وكان له مبرراته المنطقية دينياً في المطالبة بالخلافة ورفض مبايعة أبي بكر؛ فالنبي، كما أشرنا، تحدث في مناسبات عديدة أن خليفته هو علي ليس إلا. كذلك فقد كشف الإمام علي تناقض جماعة الحكم مع أنفسهم: فهم حجّبوا الخلافة عن الأنصار محتجين عليهم بالقرابة من النبي - فلماذا حجّبوا عنه؟

لقد حاول أبو عبيدة، دون جدوى، التركيز على عامل السن لتبرير حجب الخلافة عن علي وحاول استمالته بالقول: هؤلاء مشيخة قريش قومك إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليف هنا، لا بد أن نتذكر نظرة النبي الصائبة وبصيرته النافذة حين أمر، قبيل وفاته بأيام، أسامة بن زيد وهو الشاب الأصغر من علي بسنوات، على كل هؤلاء الشيوخ.

متى ظهرت بوادر التخلي؟

يقول السيد حسين - رضوان الله عليه - معلقاً على ما جرى في مرض النبي (صلوات الله عليه وآله):

((لماذا فرط المسلمون رغم ما عمله النبي ﷺ من تأكيدات على خلافة الإمام علي عليه السلام والتي توجّها بهذا الإعلان الهام في يوم الولاية! المسلمون الذين فرطوا هم

فرطوا لأنهم لم يكن إيمانهم بالله بالشكل الذي يجعلهم يلتزمون حرفياً، إيماناً واعياً. هم كانوا مؤمنين بالله وبرسوله، لكن الإيمان درجات، الإيمان درجات، لم يكونوا بمستوى أن يعوا، أن يعوا من خلال القرآن، ومن خلال محمد ﷺ عظم المسؤولية الكبرى، وكيف يكونون بمستواها، ولم يأت التقصير، لا من خلال القرآن، ولا من خلال رسول الله ﷺ الذي هو أفصح العرب، أفصح العرب، وأنشط الأنبياء في عمله، أكثرهم نشاطاً، وأعظم البشر تبليغاً بوسائله، وبمنطقه.

عندما لم يعوا مسألة الإيمان بالشكل الذي يجعلهم يلتزمون حرفياً بتوجيهات الرسول ﷺ بالقرآن الكريم بدأ التفريط من أيامهم، بدأ التفريط ورسول الله ﷺ على فراش الموت مريض في آخر أيامه، عندما قال: ((هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده))^(١) فجاء عمر مع مجموعة كبيرة داخل مجلس رسول الله ﷺ ليعارضوا بأن يقدم لرسول الله قلم ودواة، فيأمر بكتابة ما لا تضلوا بعده، ما لا تضل الأمة إن تمسكت به، فعارض عمر، وأثاروا ضجة في مكان رسول الله ﷺ وقالوا: ((حسبنا كتاب الله))! لو كانوا يعرفون كتاب الله بالشكل المطلوب لكان عليهم أن يقدموا لرسول الله ﷺ قلمًا ودواة حتى يكتب ذلك المكتوب الذي يريد أن يكتبه، يأمر بكتابه حتى لا تضل الأمة من بعده.

لقد كان رسول الله ﷺ كما وصفه الله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) يهمة أمر الأمة من بعده لا تضل لا تختلف لا تتمزق لا تتفرق، لا

(١) عن ابن عباس، قال: لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ: ((هلموا لكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده)). فقال عمر: إن رسول الله قد غلب عليه الوجد، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا له يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال: ((قوموا عني، فلا ينبغي عندي التنازع)). فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب باختلافهم ولغظهم. ولا ينبغي عند نبي تنازع. أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم بلفظ مقارب.

(٢) سورة التوبة: الآية/ ١٢٨.

يبرز أشخاص يضلونها يدمرونها يهلكونها، وعلى الرغم مما قد عمل في الغدير وغيره يقول: ((هَلُمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ)) والحُمى تلهب جسمه، لكنه لا يزال يحمل اهتمامًا بأمر المسلمين بأمر الأمة يريد أن يعمل ما يمكن أن يعمل حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، أليس هذا هو يهيمه أمر الأمة؟ حريص عليها مشفق عليها؟.

في مجلسه عمر ومجموعة كبيرة، يقول عمر: لا، حسبنا كتاب الله ويثير ضجة وآخرون يلتفون نحو عمر ويفهمون ماذا يريد عمر ويفهمون ماذا يمكن أن يقول رسول الله ﷺ هم يعرفون أنه سيركز الوصية حول علي، يرّمز علي يشد الناس نحو علي إذاً هو سيكتبها لعلي.. لا. لا، حسبنا كتاب الله، دعوا الرجل فقد غلبه الوجد، دعوا الرجل فإنه يهجر (١).

آخرون يقولون: قربوا قلمًا ودواة يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، يقول عمر: لا، وبإصرار: لا. لا. ألم يسمع أن الرسول ﷺ يقول: ((لا تضلوا بعده))؟. إن كان يهيمه أمر الأمة فسيكون حريصًا جدًا على شخطة قلم، كلمة واحدة يكون فيها أمان للأمة من الضلال، والسلامة للأمة من الضلال؛ لأنه يعلم أن الذي تكلم بهذه العبارة هو رسول الله ﷺ، لكن لا، هو يعلم ما سيعمل النبي ﷺ وسيعارض لأن له أهدافًا، له آمالًا أخرى، هو لا يهيمه أمر الأمة تضل أو لا تضل فيحول بين أن يكتب الرسول ﷺ هذا الكتاب بعد أن سمع ((أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده)) ألم يكشف لنا هنا نفسية عمر أنه إنسان لا يهيمه أمر الأمة، أنه إنسان لا يتألم فيما إذا ضلت الأمة، أنه إنسان يحول دون كتابة كلام يحول دون ضلال الأمة، يؤدي بالأمة إلى ألا تضل؟ هل هذا إنسان في أعماق نفسه يهيمه أمر الأمة وأمر الدين؟. لا.

(١) الهَجْرُ: الْهَدْيَانُ. وَكَانَ الصَّوَابُ التَّسْلِيمَ لِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنَّهُ هُوَ الْوَاحِيُّ يُوحِي (٤)﴾ (النجم: ٤، ٣).

اللامبالاة والبساطة وخطورتها

رغم وضوح حديث الغدير ((أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين)) هذا التسلسل شبيه بقول النبي في بني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ (البقرة: من الآية ٢٤٧) ((فمن كنت مولاه فهذا - هذا - عليّ مولاه))، هل هناك أوضح من هذا البيان؟ لا يوجد أوضح من هذا. ذلك المجتمع الذي سمع هذا الكلام هل أحد يستطيع أن يفرض عليه موقفاً آخر؟ هل كان لدى أبو بكر وعمر مثلاً، وتلك المجموعة ما يفرضونه أمام هذا البيان؟.

إذاً موقف الإمام علي هو نفس موقف هذه الآيات القرآنية، لقد سمع المجتمع وفهم كل شيء، وذكرهم الإمام علي بالحقيقة وكذلك ذكّرهم الزهراء والعوام، وآخرون ولكنهم لم يتذكروا. إذاً فليجربوا أنفسهم. هذه سنة إلهية، هذه سنة إلهية داخل الأمم، الناس إذا لم يستجيبوا لهدى الله فليجربوا أنفسهم، وسيدوقون العواقب السيئة نتيجة تقصيرهم ونتيجة مخالفتهم.

ألم يقيم الإمام علي بكل ما لديه من وسائل؟ حتى في الجانب العسكري قال هو: ((فطفقت أرتئي بين أن أصول بيدِ جدّاء)). الكثير بسطاء أثر عليهم آخرون؟ ونحن نقول أكثر من مرة: يجب أن نفهم الأمور على هذا النحو لا نفع في الإحراجات التي وقع فيها الآخرون ما بين مقدس للصحابة على الرغم مما هم عليه، وما بين من له موقف سلبي تماماً يعتبر بأنهم كفروا بما تعنيه الكلمة. نقول: لا، يوجد حالة أخرى، حالة أخرى هي حالة البساطة، حالة الالمبالاة، التي يمكن أن تحصل مع إيمانك بالقضية، مع إيمانك بالقضية.

كل الناس كانوا مؤمنين بأن الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) قال هكذا لعلي سلام الله عليه في [يوم الغدير] ويعرفون ما قال سابقاً، لكن لم يعطوا القضية الأهمية اللائقة بها، كانوا ضحية للآخرين عندما ضلوا، وقلنا أكثر من مره: التضليل عادة في مواقف معينة، لا يلامس القضية الأساسية لديك فيدفعك إلى أن تكفر بها، هذه لا

تحصل . هل إبليس ذهب إلى آدم ليقول له: أكفر بمسألة النهي عن أكل الشجرة؟. هل قال له هكذا؟ لا. [مجاور ثانية والموضوع هناك]. هل قدموا لهم أن يكفروا بما قاله الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) لعلي؟ قدموا أسلوباً آخر [علي قد قتل أناساً وعلى كذا، وهناك أناس آخرون ويمكن نجرهم والمقصود واحد ورسول الله همه واحد، وهؤلاء الناس تعرفونهم كانوا قريبين من رسول الله] وأشياء من هذه تجعلك تتقبل المسألة التي تعتبر مخالفة، ولا يطلب منك الكفر بما سمعته من النبي، وهذه من أخطر الأشياء، من أخطر أساليب الضلال هذه الطريقة.

لم يرضوا يسمعوا ولا يتفهموا!! الإمام علي تركهم يجربون، جربوا أبا بكر، عمر، عثمان، وفي الأخير ذاقوا هم وبال أمرهم، وأهينوا، الأنصار أولاً، الذين اجتمعوا في السقيفة! ألم يكن المفروض لأولئك أن يجتمعوا مع علي؟ لا أن يجتمعوا هناك لوحدهم، ويأتروا لوحدهم على أساس أنه ربما لا تتم المسألة لعلي! لأنه إجلسوا أنتم معه تتم، عندما يكونون مثلاً ولو ثلاثين شخصاً، ولو خمسين شخصاً يذهبون إليه، لا أن يقولوا: [ربما لا تتم المسألة أحسن أن نكون قد انتبهنا لأنفسنا حتى لا يأتي آخرون يمسكون بزمام الأمور فيظلموننا] ما نفعتهم هذه، ظلموا، وأهينوا في أيام أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية، ويزيد اجتاحت المدينة إجتياحاً رهيباً جداً قتل حوالي سبع مائة شخص أو أكثر منهم، وانتهك أعراضهم ودمر بيوتهم، قضية رهيبة جداً حصلت لهم، أي: هذه القضية قائمة في دين الله، هذا هدى الله هل الناس سيقبلونه؟ يجب أن يقبلونه وإلا فيجب أن يعرفوا بأن البديل هو الخزي، والعواقب السيئة في الدنيا والآخرة)).

سورة البقرة الدرس الحادي عشر.

هل يمكن أن يضل صحابة تربوا على يد نبي الله

((عندما يكون الإنسان غير مهتم، ولو كان في عصر مليء بالأنبياء، ولو كانت آيات الله تنزل، ولو يشاهد عصا موسى تتحول إلى ثعبان، إذا لم تبني عليها قاعدة أساسية عندك: التزام، وفهم، ووعي، ستكون عرضة للتضليل، هؤلاء ناس ضلُّوا وموسى ما

زال حياً، وضلُّوا بعد أن قضى موسى معهم فترة طويلة في التبيين، وبعدهما قد رأوا الآيات الكثيرة.

عندما يقول البعض: إنه كيف يمكن أن يكونوا ضلُّوا ناس من الصحابة بعد رسول الله! أليس هؤلاء صحابة ضلُّوا وما زال موسى حياً، إنما ذهب لفترة أربعين يوماً منهم، صحابة من داخل بني إسرائيل، من الذين اصطفاهم الله على العالمين، أمكن أن يضلُّوا مع وجود النبي، ثم تقول لي: كيف أنه يمكن أن يضلُّ ناس من بعد النبي؟! أليس احتمال أن يضلُّوا بعد نبي أكثر من احتمال أن يضلُّوا في وقته؟ هذه الآيات نفسها كانت هي هامة جداً بالنسبة للصحابة أيام رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، أن يكون كل واحد منهم منتبهاً عندما يعرف أنه أمكن أن يضلُّ ناس وما زال نبيهم موجوداً، وآيات قاهرة معه، عصا تتحول إلى ثعبان، يده تتحول إلى عمود من النور، وأممكن أن يضلُّوا، وقال لهم: إنه أضلُّهم السامري. هذه الآية ألم يقرأها الصحابة؟ لكن أي ناس كائنا من كان إذا لم يتفهموا، ويعوا، سيكونون عرضة للضلال.

فهي تعتبر حالة خطيرة في حد ذاتها، إذا ما هناك تفاعل بإيجابية مع هدى الله، قد يكون الناس في حالة، قد فعلاً يضلُّهم فعلاً، من يتأمل موقف الإمام علي في تلك الحالة يعرف المسألة - مثلما قلنا سابقاً - يعرف الإمام علياً، أشياء كثيرة من سنن الله، عندما لا يكون هناك اهتمام أثناء تقديمه، وهو يقدم على أرقى صورة، ويبين على أحسن تبيين، ويقدم على أجمل صورة، وأيضاً يعطى في نفس الوقت، يعطى الناس حتى وإن كانوا بسطاء أشياء واضحة للالتزام، واضحة مثل: اتبعوا، أطيعوا.. أليست عبارات واضحة؟.

لكن في الأخير، عندما لا يكون هناك اهتمام بالشكل المطلوب، هذه النوعية تكون عرضة لأن تضل، وأن تكون ضحية المضللين. قوم موسى أضلُّهم واحد، السامري، وجعلهم يعبدون عجلاً! ألا يمكن أن يأتي من بعد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) من يضلُّهم، ويجعلهم يعملون خليفة آخر، قد أمكن شخص يجعلهم يعبدون إلهاً

آخر.. أين أكبر؟ ألم يستطع أن يضلهم حتى يجعلوا لهم صنماً؟ إذاً بالتأكيد يستطيع أي شخص أن يضلهم فيتخذون لهم شخصاً آخر خليفة بدل ذلك الشخص الذي أعلنه على مرأى، ومسمع منهم. لكن إذا ما هناك اهتمام فهي في حد ذاتها حالة خطيرة.

كذلك في أي زمان لا يتصور واحد، مثلاً تتصور بأنه كأنك لا تسمع شيئاً، الناس إذا لم يكن عندهم اهتمام أن يصغوا بجديّة، ويتفهموا، قد تأتي في مسيرة الناس أشياء كثيرة يكون من لا يهتمون عرضة لأن يضلوا فعلاً، ليست قضية سهلة. هنا يبين لنا أشياء، بين للناس في أيام رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) بهذه الأشياء، ولم يأخذوها على محمل الجد فضلوا فعلاً! هنا قال: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ} (طه: من الآية ٨٥) فنتمهم.)) الشهيد القائد ملزمة الأعراف الدرس الثامن والعشرون

النبي ﷺ في آخر أيامه لا يزال حريصاً على هداية الأمة.

رسول الله ﷺ الذي هو إنسان قرآني يتحرك بحركة القرآن ويعرف قدرة القرآن على كشف الآخرين، يكشف للناس في آخر أيامه نفسية عمر، ويكفيها أن يكشف لنا نفسية عمر؛ لأن عمر أصبح علماً للخط الآخر، عمر هو مهندس كل تلك المتغيرات من الصعود بأبي بكر.. والإمام علي كشف المسألة أيضاً فقد قال لعمر ((إحلب حلباً لك شطره، شدها له اليوم يردها عليك غداً)). هو الذي قال لأبي بكر: (امدد يدك أبايعك) أليس هو الذي رفع أبا بكر بين الضجة؟.

هو الذي هندس أن تصل الخلافة إلى عثمان؟ هو الذي هندس ورتب أوضاع معاوية أن يكون في الشام هو الشخص الذي يمكن أن يكون مؤهلاً لأن يضرب علياً متى ما تحرك هو أو أحد من أهل بيته في أي فترة، هو الذي رفع بني أمية بعد أن وضعهم الإسلام، وأصبحوا مجتمعاً منحطاً في نظر الأمة؟ هو الذي رفعهم من جديد فأصبحوا يمتلكون الأموال الهائلة، وأصبح لهم علاقات واسعة في أوساط كثير من زعماء العشائر في هذه الأمة!.

إذاً من خلال أن يكشف لعمر سيعرف عمر وكل من يدور في فلك عمر أنهم ليسوا جديرين بأن يلوا أمر الأمة ولا أن يهتموا بأمر الأمة، أليس هذا ما حصل؟. وبعد ذلك فليقولوا ما يقولون: فاروق، صديق، أشياء من هذه، لو يقولون ما يقولون. كلمة (فاروق) أليست كلمة كبيرة؟ فاروق.. فيظهر لك عمر يرتفع إلى هناك، لكن تعال إلى القضية التي رواها البخاري وغيره رويها هم مؤرخون ومحدثون أنه عارض أن يكتب رسول الله كتاباً لا تضل الأمة من بعده، ألم يشهد عمر هو على نفسه أنه لو كان لديه احتمال بأن رسول الله سيكتب شيئاً يتعلق به وبصاحبه وأنه قد يرفعهم لقدم برميلاً وليس دواة ولحاول أن يقدم أي شيء يكتب به النبي ﷺ ليكتب المكتوب إذا كان سيكتب شيئاً يتعلق بأبي بكر أو عمر يجعلهم أعلاماً للأمة، لكن هو يعرف أنه لن يكتب شيئاً إلا وهو يقصي الأمة عنهما، أنه سيكتب ما يقصي الأمة عن أبي بكر وعمر، إذاً فهو يريد ألا يعمل لهم الرسول ورطة ثانية بعد ورطة الغدير.

في الغدير صعد هو وعلي فوق الأقتاب ورفع يد علي وقال: ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)) فهو أيضاً يريد أن يعمل لنا ورطة ثانية ويكتب ما يشد الناس إلى علي.. تلك الحادثة يمكننا أن نقول: مولاه، يعني كذا ويعني كذا.. لا يزال معنا فرصة.

والمكتوب الذي كان يريد الرسول ﷺ أن يكتبه ألم يعمل عمر دعاية تضرب المكتوب، وهذا الذي جعل النبي فعلاً يتوقف ويقول: اخرجوا إنه لا ينبغي عند نبي تنازع، وأصبح الغالب في القاعة، في المجلس عند رسول الله هم يدورون في فلك عمر عندما قال: حسبنا كتاب الله، دعوا الرجل فقد غلبه الوجع، إنه يهجر.

فلو كتب النبي ﷺ كتاباً أليس عمر قد عمل الدعاية ضد هذا الكتاب؟ سيقول هذا الكتاب لا ينفع؛ لأنه كتبه وهو في حالة هذيان لا يعرف ما يتكلم به فلا يعمل به، لم يكتبه في حالة الصحة والاختيار شرعاً! فيضرب المكتوب، لكن النبي ﷺ بهذا الموقف المهم كشف لنا عمر بشكل رهيب.

بل هو بين لنا بياناً لا يضل الناس بعده إن فهموا حتى وإن لم يكتب في الأوراق فقد كتب في أعماق الكون وفي التاريخ وكتب في القلوب إن كانت تفهم، أي كشفت لكم عمر أنه لا يهمله أمركم أن تضلوا، فلتضلوا، فإذا كان لا يهمله أمركم أن تضلوا فعمر وكل من يدور في فلك عمر ليسوا أمناء على الأمة، ولا يمكن أن يكونوا هم الأعلام الذين تقتدي بهم الأمة، ولا يمكن أن يؤيد الإسلام ولا كتابه ولا رسوله ﷺ أن تلتف الأمة حول عمر ويكون علمًا لها كما يصنع الآخرون.

لم يكشف الرسول هذا كما كشف القرآن نفسية علي عليه السلام؟. فمن خلال نفسية علي هنا تعرف نفسية عمر هناك.

بوادر التخلي عن المسؤولية، عن المسؤولية الكبرى بدأت ورسول الله ﷺ كان لا يزال حيًا بكامل وعيه، وهو في آخر أيامه، مريضًا على فراش الموت^(١).

(١) دروس من هدي القرآن الكريم، سورة آل عمران - الدرس الرابع.

الحدث الرابع - خلافة أبي بكر -

رأينا في حدث السقيفة كيف قال علي لعمر بن الخطاب، بشأن خلافة أبي بكر ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤترك غداً
لكن: هل وقف دور عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر عند هذا الحد، أي، الدفاع عن خلافة أبي بكر حتى يستخلفه أبو بكر بعده، أم تعداه إلى خطوات أبعد؟

من كان الخليفة الفعلي؟:

للإجابة على هذا السؤال الهام، سنضرب الأمثلة التالية:

لما ولي أبو بكر جاء المؤلفة قلوبهم^(١) (وكان النبي يعطي قوماً أسلموا وقلوبهم ضعيفة، كأبي سفيان وابنه معاوية والأقرع بن حابس، سهماً من الزكاة، فيؤلف قلوبهم بإجزال العطاء - لاستيفاء سهمهم هذا جرياً على عادتهم مع النبي فكتب لهم أبو بكر بذلك، فذهبوا بكتابه إلى عمر ليأخذوا خطه عليه، فمزقه، وقال: لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا السيف بيننا وبينكم، فرجعوا إلى أبي بكر، فقالوا له: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: بل هو إن شاء الله تعالى. وأمضى ما فعله عمر)^(٢).

ومرة جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر، فقالا له: إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة وقد رأينا أن تقطعناها لعل الله ينفع بها بعد اليوم.

فقال أبو بكر لمن حوله: ما تقولون؟

فقالوا: لا بأس!

(١) من أجل المؤلفة قلوبهم، أنظر: تفسير القرطبي ٨/ ١٧٩-١٨٠، تفسير المراغي ١٠/ ١٤٤، التفسير الكبير للرازي ١٦/ ١١٠، فتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٧٣، تفسير الطبري ٤/ ٣١٢، جامع البيان ٦/ ١٦٠.

(٢) النص السابق من الجوهرة النيرة على مختصر القدوري في الفقه الحنفي ١/ ١٦٤، أنظر أيضاً: تفسير المنار ١٠/ ٤٩٦، الدر المنثور ٣/ ٢٥٢.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فكتب لهم كتاباً بها، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهم ما فيه، فأخذه منهم، ثم تفل فيه فمحاها، فتذمرا وقالوا له مقالة سيئة، ثم ذهبوا إلى أبي بكر وهما يتذمران، فقالوا: والله ما ندري أنت الخليفة أم هو؟!

وجاء عمر حتى وقف على أبي بكر وهو مغضب، فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين، أهي لك خاصة أم بين المسلمين؟

فقال: بل بين المسلمين!

فقال: ما حملك على أن تخص بها هذين؟

قال: استشرت الذين حولي!

فقال: أوكل المسلمين وسعتهم مشورة ورضي؟!!

فقال أبو بكر فقد كنت قلت لك أنك أقوى على هذا الأمر مني، لكنك غلبتني^(١).

وكنا رأينا في السقيفة أنه لما بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، وكان أول من استعمل على ريع منها خالد بن سعيد أحد المعارضين السابقين لخلافته، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع بك ما صنع وقال ما قال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان^(٢).

إذاً، لقد عرف عمر بن الخطاب، بذكائه الفطري، أن استلامه مقاليد السلطة في تلك المرحلة بالذات، كان سيفتح باب معارك لا قبل للجماعة الإسلامية الوليدة لها، بسبب شخصية عمر الحادة العنيفة. فاختار أن يولي أبا بكر الخلافة، لأنه من جهة أقدر بشخصه اللين على امتصاص ضربات المعارضين، ولأن عمر، من جهة ثانية، يستطيع إجبار المعارضين، كطرف محايد ظاهرياً، بشخصه القوي، على المبايعة: فالبيعة ليست له. لكن الأمثلة السابقة وغيرها كثير، تشهد على أن الخليفة الفعلي، كان عمر بن الخطاب. فمن غير عمر كان ملجأً لأبي بكر في المشورة!

(١) أنظر: شرح النهج للمعتزلي ١٢/١٩٨، العسقلاني في ترجمة عيينة بن حصن من إصابته.

(٢) الطبري ط أوروبا ١/٢٠٧٩، تهذيب ابن عساكر ٥/٥١.

لكن ثمة حدثاً تواجه فيه الرجلان.

حروب الردة:

والتسمية غير دقيقة، هي تلك الحروب التي خاضتها قوات من جماعة الحكم ضد الذين رفضوا خلافة أبي بكر وعبروا عن رفضهم بالامتناع عن تأدية الزكاة إلى مركز الخلافة، أو ضد أشخاص ارتدوا عن الدين الإسلامي.

بشأن الجماعة الأولى، قال أبو بكر والله لو منعت عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه^(١).

فاعترض عمر، بقوله كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ص): ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها، وحسابهم على الله))^(٢) وكان النبي قد أبدى عدم رضاه عن أسامة بن زيد حين قتل رجلاً بعدما قال لا إله إلا الله^(٣).

أرسل أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جند الحكم. وكانت لخالد بعض التصرفات غير المبررة حول قضية مالك بن نويرة المسلم الذي قتله خالد، مدعيًا أنه ارتد لمجرد أنه أعجب بزوجته الجميلة. وأخذ الزوجة ليلة مقتل زوجها. ومالك بن نويرة هو أحد سادات العرب أسلم وأسلم بنو يربوع بإسلامه؛ وياه النبي على صدقات قومه ثقة به واعتماداً عليه^(٤).

قال عمر لخالد، بعدما قتل مالكاً وأخذ زوجته قتلت امرؤاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالحجارة^(٥).

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١ ج ١ ص ٥١.

(٢) ابن ماجه، كتاب الفتن، ب ١ ج ٢/١٢٩٥، سنن البيهقي ١٩/٨ و١٩٦، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ١ ج ١ ص ١٥.

(٣) البخاري ١٨٣/٥، مسلم ٩٧/١، ابن حنبل ٢٠٠/٥.

(٤) أسد الغابة ٤/٢٩٥، الإصابة لابن حجر ٣/٣٣٦.

(٥) أنظر: تاريخ الطبري ٣/٢٨٠، الإصابة ٣/٣٣٦، تاريخ يعقوبي ٢/١١٠، تاريخ أبي الفداء ١/١٥٩.

لكن أبا بكر اختار أن يدافع عن خالد، بقوله إن خالدًا تأول فأخطأ^(١).

من ناحية أخرى، يقول محمد حسين هيكل، في كتابه؛ (الصديق أبو بكر) لقد صهرت اليايمة خالدًا وطهرته وإن تزوج في أعقابها بنتًا كما فعل مع ليلي زوجة مالك بن نويرة، ولما تحف دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة. ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه، بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلي^(٢) فمن تكون هذه الفتاة؟

إنها ابنة مجاعة بن مرارة. كان مجاعة قد خرج في سرية، أثناء حروب الردة فمرت عليهم جيوش العرب وهو في ثأر في بني تميم وبني عامر. فلما جيء بهم إلى خالد عن آخرهم اعتذروا إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم، سوى مجاعة فإنه استبقاه مقيدًا عنده، لعلمه بالحرب والمكيدة، وكان سيدًا في بني حنيفة، شريفًا مطاعًا^(٣).

وحين ذهب خالد لمتابعة حروبه، استبقى مجاعة مقيدًا، وجعله في الخيمة مع امرأته^(٤). وهذه المرأة كانت أم تميم ابنة المنهال التي أخذها خالد من مالك بن نويرة. وحين دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وهموا بقتل أم تميم، أجارها مجاعة، فقال: نعم الحرة هذه^(٥). أنا جار لها. فتركوها^(٦).

وحين عاد خالد، كان رده على جميل مجاعة أن قال له زوجني ابنتك!

فقال له مجاعة: مه لا، إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك.

قال: أيها الرجل! زوجني! فزوجه. فبلغ ذلك أبا بكر، فكتب له كتابًا يقطر الدم: يا ابن أم خالد، انك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد!

(١) أنظر: المصادر السابقة، وأيضاً: كنز العمال ١٢٣/٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٦/٥، فوات الوفيات ٦٢٧/٢، تاريخ ابن شحنة بهامش الكامل ١١٤/١١.

(٢) ص ١٦٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/٣٢٦-٣٢٩.

(٤) أنظر: المصدر السابق.

(٥) أنظر: المصدر السابق.

(٦) تاريخ ابن كثير ٢/٣٦٣.

فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعرس - يعني عمر بن الخطاب^(١).
يبقى السؤال: ما هو السر الكامن خلف موقف أبي بكر المتساهل من خالد حتى أنه
رفض رأي عمر بتوقيع العقوبة عليه؟ وكيف يمكن تفسير تناقض اعتبار خالد أنه قد
تأول حين قتل رجلا وتزوج امرأته في الليلة ذاتها ثم نزا على امرأة أخرى، وعدم اعتبار
الرافضين تأدية الزكاة متأولين؟

إنه الحكم لم يكن أمام أبي بكر خيار، وقد اندلعت الثورات ضد حكمه، سوى
غض الطرف عن تصرفات خالد؛ خاصة وأننا لم نلاحظ في جيش الحكم، في حروب
الردة أي اسم بارز من طليعة الصحابة كذلك، ربما كان أبو بكر بحاجة إلى خالد بن
الوليد، كأحد الصقور، في لعبة الحمام والصقور التي كانت دائرة آنذاك في المدينة.
لذلك، كان عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش، رغم انتصاراته، أول قرارات عمر
بن الخطاب الهامة، بعد استلامه مقاليد الحكم.

وهناك حروب داخلية - دينية وسياسية - غير هذه التي ذكرناها، لا بد من الوقوف
عليها ولو بشيء من الاختصار، تلك التي جرت مع المرتدين حقاً، الذين أعلنوا
ارتدادهم عن الإسلام جهرةً، ومالوا إلى أديان أخرى، وبعض رؤوساء هذه القبائل
ادّعى النبوة، وكان على رأسهم: مسيلمة الكذاب، الذي كان على قبيلة بني حنيفة،
ادّعى النبوة، قبل وفاة النبي ﷺ، ثمّ الأسود العنسي بصنعاء، ثمّ ادّعى النبوة طليحة
بن خويلد الأسدي في بلاد بني أسد، في مرض النبي ﷺ الذي توفي فيه.

ثمّ ادّعت النبوة سجاح بنت الحارث التميمية، بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان
رجل من أصحابها ينشد:

أَمَسَتْ نَبِيَّتَنَا أَنْشَى نَطِيفُ بِهَا
وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا
وانتهى أمرها أن تزوّجها مسيلمة^(٢).

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٠٠.

(٢) أنظر: سيرة ابن هشام ٤/ ١٨٢، تاريخ الطبري ٣/ ١٤٦ - ١٤٧، ٢٧٣ - ٢٧٤.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فكانت هذه الحروب حروب المرتدّين الحقيقيين، أهمّ دواعي توحيد الصفّ في المدينة المنوّرة، إذ كانت هذه الحروب طويلة وكثيرة، وقد اتّفقوا كلّهم على مقاتلتهم يداً واحدة.

أبو بكر يستشير الإمام علي عليه السلام في حرب الروم:

في مطلع سنة ١٣ هـ عزم أبو بكر على محاربة الروم، فشاور جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقدموا وأخروا، فاستشار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأشار عليه أن يفعل، وقال له: ((إن فعلت ظفرت)) فقال: ((بُشّرت بخير))^(١).

لكنّ الناس تباطؤوا عن تلبية أمر أبي بكر، فقال عمر: لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبتعموه!

فاختار أبو بكر خالد بن سعيد على قيادة الجيش وعقد له اللواء، لكنّ عمر - وكعادته - اعترض، بحجّة أنّه تباطأ في بيعته للخليفة؛ فقال: أتوليّ خالداً وقد حبس عنك بيعته، وقال لبني هاشم ما بلغك؟! فحلّ لواءه وجعل الجيش تحت إمرة يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وأبي عبيدة الجراح، وعمرو بن العاص، بالإضافة إلى خالد وجنده.

فحقّق المسلمون انتصارات متوالية، افتتحوا خلالها عدّة مدن، وهذه كانت بشارة أمير المؤمنين عليه السلام.

ولكن سنرى قريباً كيف كانت سياسة أبي بكر في تعيين الولاة والأمراء قد حقّقت مطامع بني أمية، وفتحت أمامهم أبواب الخلافة الواسعة، حتى تربّع أوغاد بني أمية وغيرهم من الطلقاء على رؤوس المسلمين، وجرت وراءها فتن وبحور من الدماء العظيمة!!

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٣٢ - ١٣٣.

فائدة حول الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر

يقول الشهيد القائد ((عبارة) فتوحات) نفسها تقدم بشكل كبير تعطي المسألة أكثر من واقعها، ولكن فلندعها فتوحات، ولندعها عظيمة، ثم لنقول لأولئك: من الذي قاد هذه الفتوحات؟.

سيقولون: عمر. سلمنا: عمر.

من الذي تحرك في تلك الفتوحات؟ هل هم الجيش الذي تحرك مع النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في [غزوة تبوك]؟ هل هم أصحاب رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؟ هل هم أولئك الناس الذين كانوا في أيام النبي؟. سيقال: نعم الصحابة، هم أولئك. سلمنا أيضاً، ولكن قفوا لتأمل قليلاً.

تحركوا في أيام عمر بنشاط أليس كذلك؟ تحركوا بنشاط وفاعلية، بينما سورة التوبة التي تحدثت عن آخر غزوة جماعية للأمة.

ومن خلالها تلاحظ حنكة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وتحركه القرآني ونظرته العميقة إلى الأمة إلى آخر أيام التاريخ، كيف وضع الدروس؟.

سورة التوبة تحدثنا عن وضع غير طبيعي حصل في أيام إعداد الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أولئك الناس، ذلك المجتمع لمواجهة الروم في غزوة تبوك، ما الذي حصل؟ ثقائل، تباطؤ، تخلف، قعود، وآيات القرآن في سورة التوبة تهاجم، وتدفع بعبارات قاسية، بعبارات تعتبر بالنسبة للشخص الذي يتقاعد ويتخلف إهانة تعتبر إهانة له، عملية دفع، عملية زعزعة، محاولة تشجيع، وحركة نفاق تبدو على أوسع نطاق. لاحظوا [سورة التوبة] - عندما ترجعوا إليها - كيف مُلأت بحديث عن المنافقين؛ لأنهم تحركوا بشكل كبير.

وعادة عندما يتحرك منافقون بأعداد كبيرة منهم معروفون، ومنهم غير معروفين، ومنافقون ألوان: منهم من هو لا يزال كافر في باطنه مظهر للإسلام، ومنهم من هو مسلم، ولكنه مازال من النوعية التي في قلبه مرض، من النوعية التي يؤثر مصالحه، من النوعية الذي يؤثر أنانيات، ونظرات معينة لديه، أعداد كبيرة تحركت، وعندما يتحرك

المنافقون في ظروف كنتك يدل على أن المجتمع أصبح في ما ظهر عنه قابل لأن يُزعزع، ويثبُّط.

سنرى كيف أن أولئك الذين انطلقوا فيما بعد في أيام عمر بنشاط ومعنويات مرتفعه هم الذين كانوا متثاقلين، قعد منهم من قعد، وتحلف من تحلف، وتثاقل من تثاقل، وتأتي التوجيهات القرآنية الحامية، الساخنة بالدفع بهم، ما الذي حصل؟ وكيف يمكن أن نحلل هذه المسألة؟.

نقول: لا تخلوا - بعد أن سلمنا أن القائد هو عمر، وأن أولئك الجيش الذين تحركوا في [اليرموك والقادسية] هم هؤلاء - إما أن يكون عمر أقدر على قيادة الأمة من النبي (صلوات الله عليه وعلى آله)، وكانت توجيهاته ومنطقه أكثر فاعلية من القرآن إذاً فلماذا لم يكن عمر هو النبي؟ ولماذا لم نكتف بتوجيهات عمر عن القرآن؟ هل بالإمكان أن نقول أن عمر كان أقدر على قيادة الأمة؟ وأكثر حنكة، وأكثر شجاعة من رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؟ وأن توجيهاته كانت تعطي فاعلية للأمة أكثر من توجيهات القرآن في سورة التوبة؟.

إن سلّموا، ما الذي عملوا؟ ألم يجنوا على محمد (صلوات الله عليه وعلى آله)؟. ألم يجنوا على حكمة الله؟. على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: من الآية ١٢٤) لكن كيف ساغت هذه المسألة عند الكثير؟. لأنه بعد أن قُدّم محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) كمَوْعِظٍ مسكين، ملان أخلاق، لا يعرف كيف يتحرك، [جواد الله] ليس لديه حنكة سياسية ولا قدرة قيادية عسكرية، هكذا قُدّم محمد (صلوات الله عليه وعلى آله)، إنسان [جواد يرحم الله] موعِظ، مرة في المسجد، ومرة في الشارع، ومرة في أوساط الجيش.. لكن عمر، عمر هو.. عبقرية عمر، وسياسة عمر، وحنكة عمر.. و.. إلى آخره.

فعالاً احتاجوا - ونحن نقول أنهم يتجنّون على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) - أن يصنعوا لرسول الله شخصية.. سواء من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون. إن قلنا من حيث لا يشعرون لأن حرصهم على ترميز هؤلاء وتكبيرهم

أنساهم أن يهتموا بالشخص العظيم بمحمد (صلوات الله عليه وعلى آله) فعملوا على تقديمه في ذهنية الأمة بشكل آخر حتى يتسنى بأن يصعد عمر في مجال آخر.

بل بلغ بهم الأمر إلى أن قالوا: إن عمر كان مُلهم، وأن القرآن كان يتنزل ليوافق عمر في أشياء كثيرة..! حتى في ما يتعلق بحياة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) الخاصة وبأموره الخاصة: يا رسول الله لو أنك سترت نساءك أو عملت لهن ملابس أو حجبت نساءك، فنزل القرآن يأمر النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) بأن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين يدين عليهن من جلابيهن. قال: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن، فنزلت هذه الآية.

إذاً فإما أن يكون عمر هو أعظم قيادة وحنكة وتوجيهاته أكثر فاعلية من قيادة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، ومن توجيهات القرآن، وإما أن نقول بأن عمر لم يكن كذلك.. فلنرجع إلى الآخرين إلى الصحابة أنفسهم وإلى ذلك المجتمع الذي تحرك بتثاقل في غزوة تبوك، ثم تحرك بفاعلية ونشاط في [القادسية] وفي [اليرموك].

هل عندما انطلقوا بفاعلية ونشاط هل كانوا - وهم الذين تباطؤوا مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وتثاقلوا - هل كانوا أكثر طاعة لعمر من رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؟! فهذه سبب لهم، يثاقلون تحت قيادة محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو أعظم من عمر، ويثاقلون على الرغم من توجيهات القرآن، وتوجيهات القرآن أعظم من كلمات عمر القليلة حتى، وغير البليغة، وغير المشجعة.

فإذا كانوا أطوع لعمر من محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) رسول الله فماذا يعني هذا؟. هل يستحقون أن يقال كلمة واحدة في التعظيم لشأنهم، أو في التقدير لهم إذا كانوا أطوع لعمر من محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) إذاً فما المخرج من هذا؟ كيف يمكن أن يخرجوا من هذه؟.

إن كان ذلك من أجل عمر إذاً فعمر أقدر من محمد! إن كان ذلك عائد إلى الجيش نفسه، إذاً فالجيش أطاع عمراً أكثر مما محمد، وكل واحدة منها تعتبر بالنسبة لهم سبباً. ما الذي حصل؟ ومن الذي صنع تلك المعنويات؟ من الذي صنع ذلك الانتصارات؟.

إنه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، هو الذي صنع ذلك الانتصار الذي وقع في [اليرموك والقادسية] وغيرها، هو الذي عمل طول حياته وخاصة بمرافقة القرآن الكريم وخطبة موحدة من قبل القرآن ومن قبل الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) [أعدت تلك الأمة لتكون هي من تضرب] الأمم الأخرى الطاغية الظالمة من تضرب الدول الكبرى في عصرهم وفيما بعد هو الذي عمل على رفع معنوياتهم.

فالقرآن دفعهم دفعاً رهيباً في غزوة تبوك، مع أن الله يعلم أنهم لن يواجهوا بقتال، أخرجوا، حتى ثلاثة أشخاص عندما تخلفوا ماذا كان موقف النبي منهم (صلوات الله عليه وعلى آله)؟. قال: لا تكلموهم.

كان استنفاراً عاماً لأن المسألة كان الجانب التربوي فيها للأمة أكثر من احتمال المواجهة العسكرية من خلال القرآن نفسه، خرجوا متثاقلين، ووضع اقتصادي سيئ، ومعنويات هابطة جداً، هم عدد قليل سيواجه أكثر من مائة ألف أو من مائة وثلاثين ألف جندي حشدتهم دولة الرومان. خرجوا بثقل، وتباطؤ ومعنويات هابطة وزحزحة. ما الذي حصل؟.

ولم يحاول الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يعود إلى دولة كسرى، إلى دولة الفرس وهي كانت أيضاً الدولة العظمى الثانية في ذلك العصر ليستمد منها؛ لأنه سيواجه دولة كبرى، والدولة هذه لا تزال في صراع مستمر مع دولة الفرس فتكون فرصة مهيأة له بأن يحصل على دعم من الفرس، من الأكاسرة فيشدوا أزره فيهاجم دولة الرومان، لم يحصل هذا، ولم يحاول، بل لم يفكر في هذا. أراد أن يربي هذه الأمة كيف تكون معتمدة على نفسها، وعلى ربها، وعلى كتابها، وعلى نبيها؛ لأنها تملك ديناً قيماً يستطيع هذا الدين أن يجعلها تقف على قدميها دون أن تحتاج لا إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى أمريكا ولا إلى روسيا، ولا إلى أطراف أخرى.

خرجوا متثاقلين، جمعوا نحو ثلاثين ألفاً بعد الحشد والاستنفار العام، والحشد الهائل والدفع الهائل، ثلاثين ألفاً توجهوا على بعد سبع مائة وخمسين كيلوا من المدينة باتجاه الشام.

فبدا رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) شخص وكأنه - أمام الآخرين - لا يدري من سيواجهه، إذاً أحشد هذا الحشد، لكن حاول أن تضع هذا الحشد في أماكن تحصن منه البلد الإسلامي الذي قد أصبح بين يديك، واتسعت رقعته بين يديك.. لا. هو الذي هاجم وبادر بالهجوم هو، ليهاجم بأولئك الجيش، أو بذلك العدد، ذا النفسيات الهابطة، والمعنويات المنحطة، على بعد، إلى أعماق، إلى أقرب منطقة للدولة الرومانية، إلى تبوك.

الروم أزعجهم هذا أزعجهم فقرروا عدم المواجهة، ما الذي حصل؟. وتحرك رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو ما يزال في تبوك تحرك بسرايا هنا وسرايا هناك، وعمل أعمالاً يتحدى، يتحدى فارتفعت معنويات الناس بشكل رهيب جداً، خرجوا وهم يرون الروم مستحيل أن يواجهوهم.

بل كان المنافقون، وبعض من تخلفوا من الأعراب تشجعوا إلى أن يدبروا مؤامرة ضد رسول الله في المدينة نفسها ليمسحوا الدولة الإسلامية بكلها فترك لهم علياً، علي هو صمام الأمان للدولة الإسلامية سيبقى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة.

ولهذا المنافقون عملوا دعاية ضد علي (عليه السلام): أنه إنما خلفه في النساء والأطفال، أنه إنما استثقله، كره خروجه معه. فلحق علي (عليه السلام) برسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقلده ذلك الوسام الذي أبكم المنافقين، وكمم أفواههم: ((أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) فعاد علي (عليه السلام) إلى المدينة ورسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) توجه لقيادة الجيش إلى (تبوك).

رجعوا من تبوك وهم كل واحد أصبح اثنين، ثلاثة في داخل ردائه وإزاره، قهروا الدولة العظمى في ذلك العالم وبدون مواجهة.. ففيمما بعد بقيت معنوياتهم مرتفعة.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان يريد شيئاً عظيماً للأمة، يرفع معنوياتها، يريها، يشد من أزرها، يقوي إيمانها، يريها كيف تعتمد على نفسها، وفي نفس الوقت يختار لها القائد المهيم العظيم الذي هو جدير بقيادتها علي بن أبي طالب في يوم الغدير.

السِّيْرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

لكن لما خسرت القائد هذا وبقي معها جانب من أثر ما رتبته الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) لها كأمة، أمة معنوياتها مرتفعة، وتمتلك قائداً عظيماً، خسرت ذلك القائد فطلع عمر.

وكيف يمكن أن يكون عمر بطلاً عالمياً وهو الذي لم يستطع أن يكون بطلاً أمام حصن واحد في خيبر، أمام أقلية من اليهود في خيبر، يصبح بطلاً عالمياً!! لا. لا. لا يمكن.

فلنقل فعلاً لأولئك الذين يتحدثون عن الفتوحات: لو تعلمون كم خسرننا، وما نسبة هذه الفتوحات التي يتحدثون عنها لو كان علي هو الذي قاد الأمة، وبذلك المعنويات التي رسخها النبي في نفوسها، في غزوة تبوك، لما كانت هذه الفتوحات التي حصلت على يد عمر تساوي معشار معشار ما يمكن أن يحصل في علم الله سبحانه وتعالى لو أن علي هو الذي قاد الأمة.

فنحن من يجب أن نبكي وليس من نفخر بأن عمر عمل فتوحات، وفتوحات. أنتم تجهلون كيف كان يمكن أن يكون الواقع لو أن علياً هو الذي قاد. لكن عمر هو الذي قاد الأمة فحصلت تلك المعركتان: [اليرموك والقادسية] بمنطقتين، حصل أشياء لا تعد شيء فيها لو كان علي هو الذي قاد، في ما نعتقد بحسب فهمنا.

الذي جعل أولئك يتحركون بفاعلية هو رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) هي ما زالت معنوياتهم مرتفعة لما صنعه فيهم في غزوة تبوك.

إذاً فليس عمر، وليست توجيهات عمر، عمر هو نفسه الذي حاول أن يخرج، وهم أثناء مواجهة الفرس فقال له الإمام علي (عليه السلام): لا.. أقعد. هو يعرف ماذا سيحصل إذا خرج عمر، هناك في الجيش منهم أشجع ومنهم أقدر، إذا خرج سيكون هو القائد الأعلى وبالتالي سيعود يجيب أصحابه وهم يجيبونه إن عاد هو وأصحابه، سيؤدي إلى هزيمة منكرة. قال له الإمام علي: لا. إجلس، ينصحه أن يجلس.

إذاً فالذي صنع انتصارات القادسية واليرموك هو محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) وليس عمر.

وينبغي لأولئك الذين يقولون فتوحات، فتوحات أن يبيحوا أنه فقط لم تحصل الأمة إلا على تلك الفتوحات وما نسبتها وما قيمتها لو كان علي هو الذي قاد الأمة.

إذاً فلا تُعد مسألة فتوحات أو ما فتوحات شبهة في نفس الموضوع الذي نتحدث عنه، إنه خسارة، خسارة بسبب عمر فعلاً، وإلا لو كان علي (عليه السلام) هو الذي قاد لكافة الأمة هي الغالبة فعلاً، {هُمُ الْعَالِيُونَ} ولم يحدد المسألة. اليهود والنصارى حركات أما الكافرون فكانوا أقل خطورة.

كانوا في ميدان المواجهة أقل خبرة من اليهود الإسرائيليين، حتى الفرس أنفسهم كانت روحيتهم أشبه شيء بروحية العرب، لم يكن لديهم خبث اليهود، يضربك ثم يأتي ليدوس من فوق ظهرك وأنت تتبسم له، لم يكن عندهم هذه الخبرة وهذه الحنكة.

إذاً - من وجهة نظري أنا - لم يبق في مسألة فتوحات ما يمكن أن يكون شبهة لمن يعقلها ولمن يستطيع أن يفهمها، ومن أراد أن يجعلها بسبب عمر ستحصل الإشكاليات التي تحدثنا عنها سابقاً. هذا مفهوم أو لا؟ وبإمكاننا أن نتحدث مع أي شخص يقول: لكن عمر كانت له فتوحات.. فكيف لازم علي؟ قولوا له ما قلنا وما سمعتم)) ملزمة سورة المائدة الدرس الرابع.

رجوع أبي بكر إليه في الأحكام الشرعية:

ومن جملة موارد الرجوع إليه في الأحكام الشرعية والقضايا الدينية في عهد أبي بكر، وكما جاء الخبر به عن رجال من العامة والخاصة: أن رجلاً رُفِعَ إلى أبي بكر وقد شرب الخمر، فأراد أن يقيم عليه الحد، فقال له: إني شربتها ولا أعلم لي بتحريمها، لأنني نشأت بين قوم يستحلونها، ولم أعلم بتحريمها حتى الآن.. فأرتج^(١) على أبي بكر، ولم يعلم وجه القضاء فيه، فأشار عليه بعض من حضره أن يستخير أمير المؤمنين عليه السلام عن الحكم في ذلك، فأرسل إليه من سأله عنه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((مُرْتَجَيْنِ مِنْ رِجَالِ الْمُسْلِمِينَ يَطُوفَانِ بِعَلِيِّ مَجَالِسِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَيُنَاشِدَانِهِمُ اللَّهَ هَلْ فِيهِمْ

(١) أرتج عليه وارْتَجَّ عليه: استبهم عليه.

أحدٌ تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله ﷺ؟ فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم الحدَّ عليه، وإن لم يشهد عليه أحدٌ بذلك فاستتبه وخلَّ سبيله)) ففعل أبو بكر ذلك، فلم يشهد عليه أحدٌ من المهاجرين والأنصار أنَّه تلا عليه آية التحريم، ولا أخبره عن رسول الله ﷺ بذلك، فاستتابه أبو بكر وخلَّ سبيله، وسلَّم لعليٍّ عليه السلام فيما حكم به^(١).

نصف مبدأ الشورى

قبل التوقف عند نصوص خلافة عمر، لابد من الإشارة إلى بعض الاعتراضات التي تحدث عنها بعض النقاد بشأن الخليفة الثاني. فعلى الصعيد الديني، رأى هؤلاء أن عمر بن الخطاب عمل برأيه الخاص في بعض المواقف الهامة، مخالفاً صراحة النص القرآني والسنة النبوية. من ذلك، نذكر:

موقفه يوم وفاة النبي، حين قال أن النبي يهجر^(٢)، إغاؤه متعة الحج^(٣)؛ إغاؤه سهم المؤلفلة قلوبهم^(٤)؛ رأيه في مسألة طلاق الثلاث بفهم واحد^(٥)؛ قوله عن الحجر لا

(١) الإرشاد ١/١٩٩ وما بعدها..

(٢) أنظر: الحديث الثاني.

(٣) أنظر: سنن أبي داود ٢/٢١٣ ج ١٧٨٩، تفسير القرطبي ٢/٣٩٥، صحيح مسلم ٤/٣٧، البخاري ١/٢١٣ و ٤/١٦٦، مسند أحمد ٣/٣٠٥، سنن البيهقي ٥/٣، زاد المعاد ١/٢٤٦، سنن ابن ماجه ٢/٢٢٩، شرح الموطأ للزرقاني ٢/١٧٩، تيسير الوصول ١/٢٨٨، تفسير الرازي ٢/١٦٧ و ٣/٢٠١ و ٢/٢٠٢، شرح النهج للمعتزلي ١٢/٢٥١ و ٢/٢٥٢، البيان والتبيين ٢/٢٢٣، أحكام القرآن للجصاص ١/٣٤٢ و ٢/٩٤، ضوء الشمس ٢/٩٤، المغني لابن قدامة ٧/٥٢٧، المحلى لابن حزم ٧/١٠٧، شرح معاني الآثار للحاوي ٣٤٧، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٣٥٩.

(٤) أنظر: التفسير الكبير للرازي ١٦/١١٠، تفسير القرطبي ٨/١٨١، تفسير المنار ١٠/٤٩٦، الدر المنثور ٣/٢٥٢، الفقه على المذاهب الأربعة ١/٦٢١، شرح النهي للمعتزلي ١٢/٣، تفسير المراغي ١٠/١٤٤، فتح القدير للشوكاني ٢/٣٧٣.

(٥) أنظر: صحيح مسلم كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، سنن أبي داود ١/٣٤٤، أحكام القرآن للجصاص، الدر المنثور ١/٢٧٩، تفسير القرطبي ٣/١٣٠، رشيد رضا، المنار ٤/٢١٠.

تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك^(١).

ظهر مبدأ الشورى كذلك على لسان عمر في خطبته الشهيرة التي قال فيها: ((فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه، تغرّة أن يُقتل))^(٢).

ثمّ لم يلبث ملياً حتى نقض قوله، بقوله: ((لو كان أبو عبيدة حياً لوئيتَه! لو كان معاذ بن جبل حياً لوئيتَه! لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوئيتَه))^(٣) ذلك لأن تمسكه بالشورى كان له سبب مثير!!

ففي موسم الحج من تلك السنة جاء عبدالرحمن بن عوف إلى ابن عباس، فقال له: لو سمعت ما قاله أمير المؤمنين - يعني عمر بن الخطاب - إذ بلغه أن فلاناً ((قال: لو قد مات عمر لبايعت فلاناً)) فما كانت بيعة أبي بكر إلاّ فلتة.. فهمّ عمر أن يخطب الناس رداً على هذا القول فنهيته لاجتماع الناس كلهم في الحج وقلت له: إذا عدت المدينة فقل هناك ما تريد، فإنه أبعد عن إثارة الشغب.

فلما رجعوا من الحج إلى المدينة قام عمر في خطبته المذكورة.

قال ابن حجر العسقلاني: وجدته في الأنساب للبلاذري بإسناد قوي من رواية هشام بن يوسف عن معمر عن الزهري، بالإسناد المذكور في الأصل، ولفظه قال عمر: بلغني أن الزبير قال: لو قد مات عمر لبايعنا علياً.. الحديث^(٤).

وفعلًا قتل عمر وجاءت بعدها شورى شكلية أشبه ما تكون بمؤامرة مفضوحة،

(١) أنظر: أخبار مكة للأزرقي ١/ ٣٢٣ و ٣٢٩ و ٣٣٠، سيرة عمر لابن الجوزي ١٠٦، المستدرك للحاكم ١/ ٤٥٧، إرشاد الساري ٣/ ١٩٥، عمدة القاري ٤/ ٦٠٦، شرح النهج للمعتزلي ٣/ ١٢٢، تاريخ ابن عساكر ٣/ ٤٠، الفتوحات الإسلامية ٣/ ٤٨٦.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٦٤٤٢، مسند أحمد ١/ ٥٦.

(٣) الكامل في التاريخ ٢/ ٤٥٩، طبقات ابن سعد ٣/ ٣٤٣.

(٤) مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري ﷺ ٣٣٧، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ١٠/ ١٩.

نقلت الخلافة لعثمان حينها قال علي عليه السلام: ((ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(١)، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم في شأن!! فقال عبدالرحمن: يا علي، لا تجعل علي نفسك حجةً وسيلاً، فخرج علي عليه السلام وهو يقول: ((سيبلغ الكتاب أجله))، فقال المقداد: يا عبدالرحمن، أما والله لقد تركته، وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون، فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين. قال: إن كنت أردت الله فأثابك الله ثواب المحسنين.

ثم قال المقداد: ما رأيت مثل ما أتى إلى هذا أهل البيت بعد نبيهم، إنني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أفضى بالعدل ولا أعلم منه، أما والله لو أجد أعواناً عليه!

فقال عبدالرحمن: يا مقداد، اتق الله، فإنني خائف عليك الفتنة.

فقال رجل للمقداد: رحمك الله، من أهل هذا البيت، ومن هذا الرجل؟

قال: أهل البيت بنو عبدالمطلب، والرجل علي بن أبي طالب.

فقال علي عليه السلام: ((إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر بينها فتقول: إن وليي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم تداولتموها بينكم)).

وقد شهد أبو الطفيل رضي الله عنه حادثة الشورى بها شاهده وسمعه، فقال: كنت

على الباب يوم الشورى، فارتفعت الأصوات بينهم، فسمعت علياً عليه السلام

يقول: ((بايع الناس لأبي بكر، وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه، وأحق به منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع

(١) سورة يوسف: الآية/ ١٨.

الناس كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعضٍ بالسيف، ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان! إذاً أسمع وأطيع))^(١).

ولما عزموا على البيعة لعثمان، قال الإمام عليٌّ عليه السلام: ((أنشدكم الله، أفيكم أحد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين نفسه غيري؟)) قالوا: لا. قال: ((أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فهذا مولاه، غيري؟)) قالوا: لا.

قال: ((أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غيري؟)) قالوا: لا.

قال: ((أفيكم من أوثمن على سورة براءة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنَّه لا يؤدِّي عني إلا أنا أو رجل مني، غيري؟)) قالوا: لا.

قال: ((ألا تعلمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرَّوا عنه في مآقط الحرب في غير موطن، وما فررت قطُّ؟)) قالوا: بلى.

قال: ((ألا تعلمون أنني أول الناس إسلاماً؟)) قالوا: بلى.

قال: ((فأينا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نسباً؟)) قالوا: أنت.

فقطع عليه عبدالرحمن بن عوف كلامه، وقال: يا عليُّ، قد أبى الناس إلا عثمان، فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلاً!

ثمَّ توجه عبدالرحمن إلى أبي طلحة الأنصاري، فقال له: يا أبا طلحة،

ما الذي أمرك عمر؟ قال: أن أقتل من شقَّ عصا الجماعة!

فقال عبدالرحمن لعليٍّ: بايع إذن، والا كنت متبعاً غير سبيل المؤمنين!! وأنفذنا فيك ما أمرنا به!!

هل تسمي هذه شوري؟ أم غلبة بالسيف؟!

(١) كنز العمال ٥/ ٧٢٤ ح ١٤٢٤٣، شرح ابن أبي الحديد ٦/ ١٦٦.

وختاماً من المناسب أن نذكر هذا المقطع من الخطبة المعروفة بالشقشقية والذي يصف فيه موقفه من هذه الشورى، فيقول: ((فصبرتُ على طول المدَّة، وشدَّة المحنة.. حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زَعَمَ أَنِّي أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريبُ فيَّ مع الأوَّل منهم حتى صرتُ أُقرنُ إلى هذه النظائر!))^(١).

كيف صار عمر خليفة؟

دعا أبو بكر عثمان خالياً (على انفراد) فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين! أما بعد..

ثم أغمي عليه، فكتب عثمان: أما بعد! فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً.

ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ علي. فقرأ عليه. فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس ان أفلتت نفسي من غشيتي!

قال: جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله. وأقرأها أبو بكر من هذا الموضوع.

جلس عمر والناس معه، وبيده جريدة، ومعه شديد مولى لأبي بكر، معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر، وعمر يقول: أيها الناس! اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله، انه يقول اني لم ألكم نصحاً^(٢).

يبقى السؤال: كيف يقبل عمر بتعيينه خليفة من قبل أبي بكر، وهو ما ينسف مبدأ الشورى الاسلامي في حين كان يؤكد على هذا المبدأ، كما رأينا سابقاً، في كل تصرفات أبي بكر ولماذا لم يقل عمر دعوه فإنه يهجر حسبنا كتاب الله!!!؟

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣.

(٢) تاريخ الطبري ط أوروبا ١/٢١٣٨.

قصة الاستخلاف:

وكان من قول طلحة بن عبيدالله: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، وكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيتك!^(١)

وقد أغضبه كثرة تدمير الصحابة من استخلافه عمر، فقال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلّكم ورمّ أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تُقبِل، وهي مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألّموا الاضطجاع على الصوف الأذريّ كما يألم أحدكم أن ينام على حَسَك السعدان... وأنتم أوّل ضالّ بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً^(٢)...

وتوفي أبو بكر في ٢١ - ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ أو آخر آب ٦٣٤ م.

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٠.

الحدث الخامس

- خلافة عثمان بن عفان! -

ما إن شعر عمر بن الخطاب بدنو الأجل، بعد طعنه على يد أبي لؤلؤة، حتى قال ادعوا لي علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. فلم يكلم أحداً منهم غير علي وعثمان، فقال: يا علي، لعل هؤلاء سيعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما أنالك الله من الفقه والعلم، فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه. ثم دعا عثمان، وقال: يا عثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله، ولا تحمل آل أبي معيط على رقاب الناس. ثم قال: ادعوا لي صهيياً.

فدعي، فقال: صلّ بالناس ثلاثاً وثلاثين يوماً وليخل هؤلاء النفر في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل منهم، فمن خالفهم فاضربوا رأسه^(١).

إن اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة، فاتبعوا صنف عبد الرحمن بن عوف واسمعوا وأطيعوا^(٢). ((فإن صفق عبد الرحمن بإحدى يديه على الأخرى فاتبعوه^(٣) وفي رواية أخرى، قال عمر (بايعوا لمن بايع له عبد الرحمن بن عوف، فمن أبى فاضربوا عنقه)^(٤). أحسّ علي أن شيئاً يدبر من ورائه، فذهب إلى عمه العباس، وقال والله لقد ذهب الأمر منا.

فقال: إن سعداً لا يخالف عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره؛

(١) أنظر: أنساب الأشراف ١٦/٥، منتخب الكنز ٤/٤٢٩، وقريب منه في طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٣٤٧.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٤٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/١٦٠، أنساب الأشراف ١٥/٥.

(٤) كنز العمال ٣/١٦٠.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فأحدهما لا يخالف صاحبه لا محالة؛ وإذا كان طلحة والزبير معي فلن أنتفع بذلك إذا كان عبد الرحمن بن عوف في الثلاثة الآخرين.

وقال ابن الكلبي: عبد الرحمن بن عوف زوج أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط، وأمها أروى بنت كرز، وأروى أم عثمان، فلذلك قال صهره^(١).

يشرح محمد عبده الكلام السابق، فيقول كان سعد من بني عم عبد الرحمن كلاهما من بني زهرة، وكان في نفسه شيء من علي كرم الله وجهه من قبل أخواله لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، ولعلي في قتل صناديدهم ما هو معروف مشهور. وعبد الرحمن كان صهرًا لعثمان؛ لأن زوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختًا لعثمان من أمه. وكان طلحة ميالا لعثمان لصلات بينهما، على ما ذكره بعض رواة الاثر، وقد يكفي في ميله إلى عثمان وانحرافه عن علي، لأنه تيمي، وقد كان بين بني هاشم وبني تيم مواجدة لمكان الخلافة في أبي بكر (التيمي)، وبعد موت عمر بن الخطاب، اجتمعوا وتشاوروا، فاختلفوا، وانضم طلحة في الرأي إلى عثمان، والزبير إلى علي، وسعد إلى عبد الرحمن^(٢).

يبدو أن عمر بن الخطاب كان يخطط لخلافة عثمان سلفًا. إذ يروى أن سعيد بن العاص جاءه مرة في حاجة، فقال له عمر: سيلي الأمر بعدي من يصل رحمك ويقضي حاجتك. قال (سعيد): فمكثت خلافة عمر بن الخطاب حتى استخلف عثمان وأخذها عن شورى ورضى، فوصلني وأحسن وقضى حاجتي وأشركني في أمانته^(٣).

حكاية الشورى:

ما من شك أن عبد الرحمن بن عوف كان يعرف جيدًا موقف علي من خلافة أبي بكر وعمر؛ مع ذلك فقد قال له حين خلا به لنا الله عليك إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا

(١) أنظر: أنساب الأشراف ١٩/٥، العقد الفريد ٧٤/٥.

(٢) محمد عبده، نهج البلاغة للإمام علي، ط مؤسسة الأعلمي ١/٣٤-٣٥.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٠/٥.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر فكان طبيعياً أن يقول (علي): أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت.

فخلا عبد الرحمن بعثان، فقال له: لنا الله عليك، إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر.

فقال: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر.

ثم خلا بعلي فقال له مثل مقالته الأولى، فأجابه مثل الجواب الأول؛ ثم خلا بعثمان فقال له مثل المقالة الأولى، فأجابه مثل ما كان أجابه؛ ثم خلا بعلي فقال له مثل المقالة الأولى، فقال (علي): إن.

كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج إلى أجيري (طريقة) أحد؛ أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عني^(١) فخلا بعثمان فأعاد عليه القول، فأجابه بذلك الجواب، وصدق على يده فبايعه عبد الرحمن وصافحه وبايعه أصحاب الشورى،^(٢) وهكذا استمرت المؤامرة بحق الأمة وبحق أمير المؤمنين واستمرت المعاناة.

الهرمزان .. وما بعده:

الهرمزان هو صاحب تستر ومن جملة الملوك الذين تحت يزدجرد. بعثه أبو موسى الأشعري ومعه اثنا عشر نفساً من العجم. أسلم ومن معه وسمى عمر الهرمزان عرفطة... قال المسور بن خرملة: رأيت الهرمزان بالروحاء مهلاً بالحج مع عمر^(٣). ولما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب وثب ابنه عبيد الله فقتل أبا لؤلؤة وابنه وامرأته. واغتر الهرمزان فقتله^(٤).

(١) تاريخ اليعقوبي ١/١٦٢.

(٢) أنساب الأشراف ٥/١٩.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات ١١-٤٠ هـ. ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/١٦٣.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

قال عبد الرحمن بن أبي بكر انتهيت إلى الهرمزان وجفنية وأبي لؤلؤة وهم نجني فتبعتهم، وسقط من بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه؛ فقال عبد الرحمن: فانظروا بم قتل عمر.

فانظروا فوجدوه خنجرًا على تلك الصفة، فخرج عبيد الله بن عمر ابن الخطاب مشتملا على السيف حتى أتى الهرمزان، فقال: أصحبني نظر فرسًا لي - وكان بصيرًا بالخيال!

فخرج يمشي بين يديه فعلاه عبيد الله بالسيف، فلما وجد حد السيف، قال: لا إله إلا الله! فقتله.

ثم أتى جفنية، وكان نصرانيًا، فلما أشره له علاه بالسيف فصلب بين عينيه.. ثم أتى بنت أبي لؤلؤة، جارية صغيرة تدعي الاسلام، فقتلها. وأظلمت الأرض يومئذ على أهلها.

ثم أقبل بالسيف صلتًا في يده، وهو يقول: والله لا أترك في هذه المدينة سبيًا إلا قتلته^(١). وروى بعضهم أن عمر أوصى أن يقاد عبيد الله بالهرمزان، وأن عثمان أراد ذلك، وقد كان قبل أن يلي الأمر أشد من خلق الله على عبيد الله، حتى جر بشعره، وقال: يا عدو الله! قتلت رجلا مسلمًا وصبيبة وطفلا، وامرأة لا ذنب لها: قتلني الله إن لم أقتلك! فلما ولي، رده إلى عمر بن العاص..

أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر، فصعد عثمان المنبر، فخطب الناس، ثم قال: ألا إني ولي دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر.

فقام المقداد بن عمرو، فقال: إن هرمان مولى الله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان له ولرسوله^(٢).

(١) النص للذهبي، المرجع السابق ٢٦٩، وقريب منه في تاريخ الطبري ٤/٢٤، طبقات ابن سعد ٣/٣٥٧.
(٢) النص للذهبي، المرجع السابق ٢٦٩، وقريب منه في تاريخ الطبري ٤/٢٤، طبقات ابن سعد ٣/٣٥٧.
(كان تعطيل الحد على عبيد الله بن عمر، أول دواعي النقمة على عثمان)، راجع: الكامل ٣/٧٥، تاريخ الطبري ٤/٢٣٩.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

وروى بعضهم عن عبد الله بن عمر أنه قال: يغفر الله لحفصة، فإنها شجعت عبيد الله على قتلهم^(١).

وبقي عبيد الله بن عمر حياً حتى قتل يوم صفين مع معاوية^(٢).

هكذا بدأ عثمان ولايته فماذا أضاف بعد ذلك؟

من إضافات عثمان الكثيرة، نذكر:

١ - افتتحت أرمينيا في عهده، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان بن الحكم أحد أقاربه^(٣).

٢ - طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمئة ألف درهم^(٤).

٣ - ردَّ الحكم بن العاص وأعطاه مئة ألف درهم^(٥). وكان النبي قد طرده ولعنه ولعن كل من يخرج من صلبه^(٦).

٤ - أقطع عثمان الحارث بن الحكم، أخا مروان، موضعاً بالمدينة يقال له نهروز، وكان النبي قد تصدق به على المسلمين^(٧).

٥ - أقطع مروان بن الحكم، فدكاً التي رفض أبو بكر أن يعطيها لفاطمة الزهراء، فهاتت غاضبة عليه^(٨).

(١) أنظر: تاريخ اليعقوبي ٢/١٦١، طبقات ابن سعد ٣/٣٥٧، تاريخ الذهبي، المرجع السابق ٢٩٧.

(٢) الذهبي، المرجع السابق. راجع: الكامل ٣/٧٥، تاريخ الطبري ٤/٢٣٩.

(٣) تاريخ الطبري ٥/٥٠، أنساب الأشراف ٥/٣٨، تاريخ أبي الفداء ١/١٦٨، المعارف لابن قتيبة ٨٤.

(٤) المعارف ٨٤، العقد الفريد ٢/٢٦١.

(٥) شيخ المضيرة ١٦٨.

(٦) سير أعلام النبلاء ٢/٨٠، أسد الغابة ٢/٣٤، السيرة الحلبية ١/٣١٧، الدر المنثور ٤/١٩١، شيخ المضيرة ١٦٠.

(٧) المعارف ٨٤، العقد الفريد ٤/٢٨٣، شيخ المضيرة ١٦٩.

(٨) المعارف ١٩٥، سنن البيهقي ٦/١٣١، أنظر أيضاً: تاريخ أبي الفداء.

- ٦ - أعطى مروان بن الحكم خمس الغزو الثاني لأفريقيا^(١).
- ٧ - حمى كل المراعي حول المدينة عن مواشي جميع المسلمين، عدا بني أمية^(٢).
- ٨ - أعطى عبد الله بن أبي سرح، ابن خالته وأخاه من الرضاعة^(٣)، خمس الغزو الأول لأفريقيا^(٤).
- ٩ - أمر مروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وكان قد زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى. فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟ قال: لا ولكن أبكي لأنني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله (ص) والله لو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيراً فقال عثمان: ألق بالمفاتيح يا بن أرقم فإننا سنجد غيرك^(٥).
- ١٠ - أتاه أبو موسى الأشعري بأموال جلييلة من العراق، فقسمها في بني أمية كلها^(٦).
- ١١ - زوج ابنته عائشة للحارث بن الحكم وأعطاه ثلاثمئة ألف من بيت المال بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه^(٧).

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٨٩/٢، الكامل في التاريخ ٤٦/٣، أنساب الأشراف ٢٥/٥.

(٢) السيرة الحلبية ٨٧/٢، أنساب الأشراف ٣٧/٥.

(٣) المستدرک للحاكم ١٠٠/٣.

(٤) أسد الغابة ١٧٣/٣، تاريخ ابن كثير ١٥٢/٧، أنساب الأشراف ٢٦/٥، تاريخ الذهبي ٨٩/٢، الكامل في التاريخ ٤٦/٢.

(٥) السيرة الحلبية ٨٧/٢، شرح النهج للمعتزلي ٦٧/١.

(٦) شرح النهج للمعتزلي ٦٧/١.

(٧) أنساب الأشراف ٥٢/٥، راجع: فتوح البلدان ٣٧٣-٣٧٥، تاريخ يعقوبي ١٧٢-١٧٣.

١٢ - طرد أبا ذر إلى الربذة^(١)؛ وضرب عبد الله بن مسعود^(٢).

إضافة إلى أمور كثيرة أخرى يضيق المجال لذكرها هنا.

لذلك، يقول محمد عبده لما حدث في عهد عثمان ما حدث من قيام الأحداث من أقاربه على ولاية الأمصار ووجد عليه كبار الصحابة، روي أنه قيل لعبد الرحمن بن عوف: هذا عمل يديك!

فقال: ما كنت أظن هذا به أبداً! ولكن لله علي أن لا أكلمه أبداً.

ثم مات عبد الرحمن وهو مهاجر لعثمان، حتى قيل: إن عثمان دخل عليه في مرضه يعوده، فتحول إلى الحائط لا يكلمه^(٣).

وقتل عثمان بن عفان^(٤)، ويبدو أن الغضب عليه كان جارفاً فقد منعوا دفنه في مقابر المسلمين، وأمر بعضهم بدفنه في مقابر اليهود، وكاد يتم ذلك لولا غضب قريش وقد قيل أنه دفن في مقابر اليهود، ثم دفن ليلاً: خرج به أهله سراعاً ولم يغسل ولم يصل عليه إلا أفراد قلائل. ومع هذا وقف له ناس فرموا الجنازة بالحجارة^(٥).

بين الحقيقة والوهم!!

يقول ابن تيمية: إن الصحابة... إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون^(٦).
ويكمل ابن كثير، في الموضوع ذاته وأما ما شجر بينهم بعده - عليه الصلاة والسلام -

(١) طبقات ابن سعد ٤/٢٣٢، مروج الذهب ٢/٣٣٦، تاريخ يعقوبي ٢/١٤٨، عمد القاري ٤/٢١٩، فتوح البلدان ١/٣٧٣-٣٧٥.

(٢) أنساب الأشراف ٥/٣٦، تاريخ يعقوبي ٢/١٤٧، تاريخ ابن كثير ٧/١٦٣، المستدرک ٣/١٣، العقد الفريد ٢/٢٧٢، تاريخ الخميس ٢/٢٦٨، شرح النهج ١/٢٣٦-٢٣٧، راجع أيضاً: ترجمة ابن مسعود في كل من: الاستيعاب، طبقات ابن سعد، فضائل ابن مسعود في المستدرک ٢/٢١٣، وكنز العمال ٧/٥٤.

(٣) نهج البلاغة ١/٣٥.

(٤) الطبري ٥/٨.

(٥) عائشة والسياسة ص ٥٢.

(٦) العقيدة الواسطية ٢٥.

فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ، ومأجور أيضاً، وأما المصيب فله أجران^(١).

معنى ذلك أن ألوف القتلى في حرب الجمل، دون قصد وصفين التي قتل فيها عمار بن ياسر، الذي قال فيه النبي: إن عماراً تقتله الفئة الباغية من نتائجها، مقتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن عم النبي وزوج ابنته اجتهاد مأجور.

هل هنالك حديث منسوب للنبي، يعطي الحاكم الظالم، وكبار القتلة وسفاكي الدماء، مسوغاً دينياً لجرائمهم، أكثر من حديث من اجتهد فأخطأ فله أجر هذا؟

إن الله يؤكد في القرآن الكريم بأن الاقتتال بين اتباع الأنبياء بعد موتهم هو نتيجة طبيعية لبغي وعدوان من طرف على آخر وليس نتيجة حسن نوايا ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ ﴿آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

عثمان بن عفان:

لماذا قتل عثمان، ومن الذي قتله؟

ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة، يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان، لان لهم ووصلهم لكنه تغير في سنواته الست الأخيرة. فطلق يعهد إلى أقاربه بالمناصب

(١) الباعث الحثيث ١٨٢.

الكبرى، ويخصهم بامتيازات أخرى اعترض عليها الناس عامة^(١). فقد عزل سعد بن أبي وقاص من حكومة الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، أخاه لأمه، ثم ولى عليها فيما بعد أحد أقاربه، هو سعيد ابن العاص. وكان عثمان يسير بالناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دونهم، ويقول عن أرض العراق التي جعلها عمر من قبل أرضاً للأمة - إنها بستان قریش^(٢).

نحى عثمان أيضاً أبا موسى الأشعري عن حكومة البصرة، وولى مكانه ابن خاله، عبد الله بن عامر؛ وأقال عمرو بن العاص عن حكومة مصر، وولاهها لأخيه للرضاعة، عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وفي حين كان معاوية، زمن خلافة عمر، يتولى دمشق فحسب، جمع عثمان بين يديه، حكومة دمشق وحمص وفلسطين والأردن ولبنان^(٣). ثم جعل ابن عمه، مروان بن الحكم، أميناً عاماً للدولة، مما جعل نفوذه يسيطر على الدولة وما فيها ومن فيها. وهكذا اجتمعت السلطات في يد أسرة واحدة. ولم يكن رد فعل هذه الأمور سيئاً على العامة وحدهم، بل على أكابر الصحابة أيضاً^(٤).

ولئن كان إسناد كافة مناصب الدولة إلى عائلة رأس الدولة نفسها أمراً مثيراً للاعتراض في ذاته أصلاً، فقد تضافرت بعض الأسباب مع هذا الأمر، فأوسع بمعاونتها نطاق الفوضى والاضطراب.

الأول: إن أفراد هذه العائلة الذين ارتقوا في عهد عثمان كانوا جميعاً من الطلقاء. والمراد بالطلاق تلك البيوت المكية التي ظلت إلى آخر وقت معادية للنبي وللدعوة الإسلامية، فعفا الرسول عنهم بعد فتح مكة ودخلوا في الإسلام. ومعاوية والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم كانوا من تلك البيوت التي أعطيت الأمان وعفا الرسول عنهم.

(١) من ذلك إعطائه مروان بن الحكم مال غنائم أفريقيا! أنظر: الكامل لابن الأثير ٤٦/٣.

(٢) أنظر: شرح النهج ٦/٩، ١٦، ٢٣، مروج الذهب ٢/٣٤١-٣٤٢.

(٣) أنظر: البداية والنهاية لابن كثير ٨/١٢٤٠، أنساب الأشراف ٥/٢٩، الاستيعاب ٢/٦٠٤، مروج الذهب ٢/٣٣٥-٣٣٦.

(٤) أنظر: الاستيعاب لابن عبد البر ٢/٦٠٤.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

أما عبد الله بن أبي سرح، فقد ارتد بعد إسلامه، وكان واحداً من الذين أمر الرسول بقتلهم حتى ولو وجدوا تحت ستار الكعبة، لكن عثمان سارع إليه، وجاء به إلى الرسول، فعفا عنه لأجل عثمان لا غير.

الثاني: إن هؤلاء الناس لم يكونوا يصلحون لتولي زعامة الحركة الإسلامية لأنهم لم يستفيدوا من صحبة النبي وتربيته، ولهذا الاعتبار يقف هؤلاء الناس في آخر صفوف الصحابة والتابعين لا في أولها.

مروان بن الحكم:

أسلم الحكم بن أبي العاص، عم عثمان ووالد مروان، في فتح مكة، ثم جاء إلى المدينة وأقام فيها.

لكن الرسول أمره بالإقامة في الطائف، وكانت أول أسباب ذلك إفشاءه للمناورات التي كانت تتم في السر بين الرسول وأكابر الصحابة، والتي كان يسمعها الحكم بطريقة أو بأخرى؛ وثاني الأسباب أنه كان يقلد النبي، حتى رآه يفعل ذلك^(١).

وكان مروان وقتذاك في السابعة أو الثامنة، فسكن الطائف مع أبيه. فلما تولى أبو بكر الخلافة، التمس منه الحكم السماح له بالعودة إلى المدينة، فأبى. كذلك لم يسمح له عمر بالعودة، بعد استخلافه. فلما تولى عثمان، أعاده إلى المدينة. وقد علل ذلك بأنه كان توسط له عند النبي، فوعده بالسماح له بالعودة إلى المدينة^(٢).

لهذا لم يقبل الناس تعيين مروان بن الحكم أميناً عاماً للدولة، حتى وإن صدقوا أن الرسول قبل وساطة عثمان ووعده بأنه سيسمح له بالعودة إلى المدينة، ومن ثم لم يعترضوا على عودته. إلا أنه كان صعباً عليهم أن يصدقوا أن ابن هذا الشخص، الذي أخطأ في حق الرسول، سيكون أهلاً لأن يصبح معاوناً للخليفة من دون أكابر

(١) أنظر: الاستيعاب ١/١١٨، ١١٩، ٢٦٣.

(٢) أنظر: الإصابة ١/٣٤٤-٣٤٥، الرياض النضرة ٢/١٤٣.

الصحابة، خاصة وأن الوالد المذنب كان لا يزال على قيد الحياة، وله قدر من النفوذ على أمور الدولة عن طريق ابنه^(١).

الوليد بن عقبة:

كان الوليد بن عقبة من بين الذين أسلموا بعد الفتح، فكلفه النبي بجباية صدقات بني المصطلق. إلا أنه بعد أن وصل المنطقة التي تسكنها هذه القبيلة، خاف، ورجع إلى المدينة دون أن يقابلهم، وقال للنبي: إن بني المصطلق، رفضوا دفع الزكاة وكادوا يقتلونني. فغضب الرسول وبعث جيشًا لقتالهم، وكادت تقع واقعة كبرى لولا أن رؤساء بني المصطلق علموا في الوقت المناسب، فجاؤوا إلى المدينة، وقالوا: إن هذا الشخص لم يأتنا قط، وكنا ننتظر أحدًا يأتي ليحبي منا الزكاة. فنزلت هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَاعَلْتُمْ نَدَمِينَ﴾^(٢).

بعد ذلك بسنوات قليلة، استوظف أبو بكر الوليد. ثم عين في آخر عهد عمر، عاملاً على المنطقة التي كانت تسكنها بنو تغلب في الجزيرة العربية^(٣). وفي عام ٢٥هـ، رّاه عثمان في هذا المنصب، فجعله حاكم الكوفة بدلا من سعد بن أبي وقاص. وهناك فشا أمر إدمانه الخمر، حتى أنه صلى الصبح أربع ركعات، وهو سكران، ثم التفت إلى الناس، فقال: أزيدكم؟^(٤) وبعدها انتشر خبره في المدينة، أمر عثمان بإقامة الحد عليه^(٥).

(١) ظل حياً حتى أواخر عثمان، حيث توفي عام ٣٢هـ.

(٢) سورة الحجرات: الآية/٦. راجع تفسيرها في الاستيعاب ٦٠٣/٢، وعند الطبري والقرطبي والزنجشري وابن كثير والنيسابوري والرازي، وفي الدرّ المنثور وإمتاع الأسماع. من أجل معلومات إضافية حول الوليد، راجع: سيرة ابن هشام ٣٨٥/١، ٢٥/٢، أنساب الأشراف ٢٠٤/٢، مروج الذهب ٣٣٥-٣٣٦، العقد الفريد ٢٧٢/٢، شرح النهج ٤٣/٣: ١٨، تاريخ يعقوبي ٢٠٣/٢.

(٣) أنظر: عمدة القارئ ١٦/٢٠٣.

(٤) البداية والنهاية ٧/١٥٥.

(٥) ابن قدامة، المغني ١/٣٣٢.

بنات عثمان وثروته:

تتحدث مصادر التاريخ عن استخدام بنات عثمان وتمتعهن بالحلي المملوك لبيت مال المسلمين.

وتشهد الدولة الإسلامية أول خليفة يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون لعثمان يوم مقتله عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وغير ذلك قيمة ضياعه بوادي القرى التي. (قدرت بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠ دينار. هذا عدا الخيل والإبل، وغيرها من المقتنيات والممتلكات^(١)).

سببان بارزان للثورة:

١ - تولية عثمان معاوية، طيلة مدة خلافته، أهم مناطق الدولة آنذاك. ولقد تربع معاوية على حكومة هذه المنطقة مدة طويلة، حتى استقرت جذوره، وتثبت أوتاده فيها، فلم يبق داخل سلطان المركز الرئيس للدولة، بل أصبح المركز الرئيس معتمداً عليه، خاضعاً له.

٢ - تعيين مروان بن الحكم في أهم منصب في الخلافة. فقد استغل مروان طيبة قلب عثمان وثقته فيه، وارتكب من الأعمال ما كانت تقع مسؤوليته على عثمان لا محالة، في حين كان يقترفها دون تصريحه أو علمه. أضف إلى هذا أن مروان دأب على محاولة إفساد العلاقات الطيبة بين عثمان وأكابر الصحابة، حتى اعتبره عثمان حاميه وناصحه أكثر من صحابته القدامى^(٢) ليس هذا فحسب، بل إن مروان ألقى في مجمع الصحابة خطاباً فيها من التهديد ما كان السابقون لا يهتمون سماعه من الطلقاء، إلا على مضض شديد، ومن ثم كان الناس - بل والسيدة نائلة زوجة عثمان ذاته - يرون أن المسؤولية

(١) أنظر: شرح النهج ٦/٩، ١٦، ٢٣، مروج الذهب ٢/ ٣٤١-٣٤٢، محمد عمارة، علي بن أبي طالب ١٨ - ٢٠.

(٢) أنظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦.

السِّيَرَةُ الْعُلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

الكبرى في خلق المشاكل، في حياة عثمان تقع على عاتق مروان، حتى أن السيدة، قالت لزوجها: فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة^(١). لذلك، يقول المودودي: لاشك أن هذا الجانب من سياسة عثمان كان غلطاً. والخطأ خطأ أيّاً كان فاعله أما محاولة إثبات صحته باصطناع الكلام لغواً وعبثاً، فهو أمر لا يقتضيه العقل، ولا يرضاه الإنصاف، كما أن الدين لا يطالبنا بعدم الاعتراف بخطأ صحابي من الصحابة^(٢).

وقد ألحق الضرر والضرب - وحتى الموت - بكبار صحابة رسول الله ﷺ، وسجن آخرين. فضرب عمّاراً وفتق بطنه، وسيّر أبا ذرّ إلى الربذة، وسيّر عامر بن قيس من البصرة إلى الشام! وغير ذلك من الأمور الشنيعة، حتى غلب على عهده التسلُّط والاثرة وجمع الأموال.

وقد كانت هذه المفارقات وغيرها السبب لثورة الناس ضده، فسعى الإمام عليّ ﷺ للإصلاح وإخماد الفتنة، وكم ذكره بالله والدين، وبحقوق المسلمين، وكان مما قال له مرةً: ((والله لو ظلم عامل من عمّالك حيث تغرب الشمس لكان اثمه شركاً بينه وبينك))^(٣).

مهّدت إلى ظهور فتن وأزمات وكم سعى الإمام عليّ ﷺ ومن معه من الصحابة في الإصلاح ولم يستجب عثمان ومن حوله لدعوته، حتى فلت الأمر من يده، لا سيّما وأنّ بعض أكابر الصحابة كانوا يساندون الثائرين على عثمان والمعترضين بشدة ويؤلّبون الجماهير ضده منهم عائشة التي كانت تقول: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. وطلحة الذي كان ي كاتب أهل البصرة يحرّضهم على النهوض لقتل عثمان^(٤). وعبدالرحمن بن عوف الذي

(١) أنظر: الطبري ٣/٣٩٦-٣٩٧.

(٢) أنظر: الخلافة والملك ص ٧١، حول أخطاء عثمان، أنظر: الخلافة والملك ص ٦٣ وما بعدها.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/١٥.

(٤) الكامل في التاريخ ٣/١٠٩.

قال لعثمان: ((لم فررت يوم أحد، وتخلّفت عن بدر، وخالفت سنة عمر؟))^(١).
ولما طالبت الجماهير المنتفضة عثمان بعزل الولاة الفاسدين، واستبداهم بولاية صالحين، أبى ذلك، فعزل أهل الكوفة سعيد بن العاص الأموي ورشحوا أبا موسى الأشعري، لكن عثمان أقرّ سعيداً ولم يعزله، وهكذا كان الأمر في بعض الولايات الإسلامية الأخرى بسبب ما لاقاه الناس من الولاة من جورٍ وفساد، وحينئذٍ عادوا وطلبوا من عثمان، أن يعزل نفسه، حينها قال عثمان: ((ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله))^(٢)، فجعل أمر الخلافة هبةً من الله تعالى، ولا يمكن له أن ينزعها، وليس من حقّ الأمة أيضاً أن تثور عليه وتنزع الخلافة منه!

رأى عثمان أنّ الأمة كلّها ضده وسوف لا تتركه حتى يستجيب لارادتها، ولم يرَ ناصحاً في هذه الأيام الشديدة من حياته غير الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حينها اجتمع الناس إلى الإمام عليه السلام وبيّنوا له فساد الأمر بيد عثمان، فنهض الإمام عليه السلام ليكلّم الخليفة وينصحه، فقال له: ((إنّ الناس ورائي، وقد استسفروني بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه، إنّك تعلم ما نعلم، وما سبقناك إلى شيءٍ فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيءٍ فنبلّغك، وقد رأيت كما رأينا، وسمعت كما سمعنا، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما صحبنا..

..... وإنّ الطرق لواضحة، وإنّ أعلام الدين

لقائمة..

فاعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل، هُدي وهدى، فأقام سنة معلومة، وأما بدعةٌ مجهولة، وإنّ السنن لنيّرةٌ لها أعلام، وإنّ البدع لظاهرةٌ لها أعلام. وإنّ شرّ الناس عند الله إمامٌ جائرٌ، ضلّ وضلّ به، فأما سنةٌ مأخوذة، وأحيا بدعةً متروكة، وإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يؤتَى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير

(١) سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون) : ١٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٣٧١.

ولا عاذر، فيُلقي في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحي، ثم يرتبط في قعرها..
وإني أنشدك الله الا تكون إمام هذه الأمة المقتول! فإنه كان يُقال: يُقتل في هذه الأمة
إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبتُّ الفتن فيها،
فلا يُبصرن الحق من الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكوننَّ
لمروان سيقَّةً يسوقك حيث شاء بعد جلال السنِّ وتقضي العمر!!

فقال له عثمان: ((كلم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظلهم)).

فقال عليه السلام: ((ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه))^(١).

فكلمهم عليٌّ، فرجع المصريون إلى مصر، ولكن تأخر عثمان عن تنفيذ ما وعدهم به،
وكان الذي صرفه عن ذلك مروان بن الحكم، إذ قال لعثمان: تكلم وأعلم الناس أن
أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، قبل أن يجيء الناس إليك
من أمصارهم، ويأتيك ما لا تستطيع دفعه! ففعل عثمان ذلك^(٢).

فثارت الفتنة من جديد، وانتفضت الجموع الغاضبة، فتشبَّث عثمان مرةً أخرى
بعلي عليه السلام بعد أن رجع المصريون وحاصروه، فقال له: ((يا ابن عم، إن قرابتي قريبة،
ولي عليك حقٌ عظيم، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مُصبِّحِي، ولك عند
الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحبُّ أن تركب إليهم فتردهم عني)).

فقال له علي عليه السلام: ((على أي شيء أردتهم عنك))؟

قال: ((على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيت لي)).

فقال عليٌّ: ((إني قد كلمتك مرةً بعد أخرى، فكلُّ ذلك نخرج ونقول، ثم ترجع
عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد، فإنك أطعتهم
وعصيتني)).

قال عثمان: ((فأنا أعصيهم وأطيعك)).

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦٤.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٥٤، تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٠.

فأمر الناس، فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً، فأتى المصريين فكلمهم، فذكر لهم ما وعد به عثمان من العمل بالحق وإرضائهم^(١).

ولما عاد الإمام عليٌّ عليه السلام من مهمته في تبليغ الوعود، قال لعثمان: ((تكلم كلاماً يسمعه الناس منك، ويشهدون عليك، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك، فلا آمن أن يجيء ركب آخريين من الكوفة، فتقول: يا عليُّ اركب إليهم، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً، ويقدم ركب من البصرة، فتقول: يا عليُّ اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك)).

فخرج عثمان فخطب الناس، فقال بعد الحمد والثناء: أما بعد أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكنني فتنتني نفسي وكذبتني وضلَّ عني رشدي، ولقد سمعت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول: ((من زلَّ فليتب، ومن أخطأ فليتب، ولا يتماد في الهلكة، إن من تهادى في الجور كان أبعد من الطريق))، فأنا أول من اتعظ، واستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد، ولأذلن ذل العبد، ولأكونن كالمرقوق، إن ملك صبر، وإن عتق شكر، وما عن الله مذهب إلا إليه، فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلي، لئن أبت يميني لتتابعني شمالي^(٢)، فوالله لأعطينكم الرضا، ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم^(٣).

فرق الناس له، وبكوا، وبكى هو أيضاً..

ولما نزل عثمان وعاد إلى بيته عاب عليه مروان إقراره بالخطأ، وما أعطاهم من الوعد بالإصلاح والصلاح، ولم يكن من عثمان إلا أن يركن إلى كلامه ويقول: أخرج إلى الناس فكلمهم، فإني أستحي أن أكلمهم! وخرج مروان إلى الناس فقال لهم: ما

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٥٣ - ٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٠ - ٣٦١.

(٣) الكامل في التاريخ ٣/ ٥٥.

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب! شاهت الوجوه! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! أخرجوا عنا.. ارجعوا إلى منازلكم، فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا^(١).

ولما بلغ علياً عليه السلام هذا الكلام، وأنَّ عثمان أصرَّ على سياسته التي اختطَّها مروان وغيره، ولم يستطع أن يغيِّر من موقفهم، قال: ((أي عباد الله، يا للمسلمين! إنِّي إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقِّي، وإنِّي إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان)). وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له: ((أما رضيت من مروان ولا رضي منك، إلا بتحريفك عن دينك وعن عقلك.. والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه، وأيمُّ الله إنِّي لأراه يوردك ولا يُصدرك! وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك، وغلبت على رأيك))^(٢).

وندم عثمان على فعله، فبعث إلى عليٍّ عليه السلام يستصلحه، فقال عليٌّ عليه السلام: ((أخبرته إنِّي غير عائد)). أمَّا الناس فقد حاصروا عثمان في بيته ومنعوا عنه الماء.. فاشتدَّ عليه الأمر، وضلَّ حائرًا لا يلوي فعل شيء، إلا أن يغلق عليه بابه ويتنظر ما سيحدث!

لكنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أمر ولديه الحسن والحسين عليهما السلام بحمل سيفيهما والذود عن عثمان يمنعان الناس عنه..

وذهب عليه السلام إلى طلحة - وكان هو الذي قد منع الماء عن عثمان مع جماعة حوله - متناسياً كلَّ ما حدث من عثمان، فقال له: ((يا طلحة، ما هذا الأمر منك الذي وقعت فيه))؟!؟

قال: ((يا أبا الحسن، بعد ما مسَّ الحزام الطُّبَّيِّين))^(٣).

(١) الكامل في التاريخ ٥٦/٣، البداية والنهاية ١٩٣/٧.

(٢) تاريخ الطبري ٣٦٣/٤.

(٣) الكامل في التاريخ ٥٦/٣. وقوله ((مسَّ الحزام الطُّبَّيِّين)) كناية عن المبالغة في تجاوز حدِّ الشرِّ والأذى، لأنَّ الحزام إذا بلغ الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاياته. فالطُّبِّي حِلْمَةُ الضَّرْع. أنظر: لسان العرب (طبي).

السِّيَرَةُ الْعَلَوِيَّةُ الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها

فقدم الإمام عليّ عليه السلام بيت المال، وكسر الباب وأعطى الناس، فانصرفوا عن طلحة حتى بقي وحده! فسّر عُثمان بذلك ودخلت عليه الروايا بالماء.

ونقل الطبري وابن الأثير في تاريخيهما^(١)، قول عُثمان بشأن طلحة: ((هذا ما أمر به طلحة بن عبدالله، اللهم اكفني طلحة، فإنه حمل عليّ هؤلاء وألبهم عليّ، والله إنني لأرجو أن يكون منها صفرًا، وإن يُسفك دمه! إنّه انتَهك مني ما لا يحلُّ له!)).

أمّا المصريون الذين كلّمهم عليّ عليه السلام ورجعوا، فبينما هم في بعض الطريق رأوا راكبًا أمره مريب، فأخذوه وفتّشوه، فإذا هو غلام عُثمان يحمل كتابًا بختم عُثمان إلى عبدالله بن سعد أن يفعل بهم ويفعل! وكان مروان هو الذي زور هذا الكتاب^(٢).

فرجعوا وشدّدوا الحصار على عُثمان، بعد أن خيروه بين ثلاث: أن يخلع عمّاله الذين شكّتهم الناس، أو يخلع نفسه، أو يقتلوه!

وكأنّه اختار لنفسه القتل، حيث قال: ((ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله عزّ وجلّ)).

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٧٩، الكامل في التاريخ ٣/ ١٦٧ .

(٢) أنظر : الخلفاء الراشدون من تاريخ الاسلام للذهبي : ٤٥٨ .

مقتل عثمان:

يقول السيوطي: إنه لما ولي عثمان عبد الله بن أبي السرح مصر، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه فولى عثمان عليهم محمد ابن أبي بكر.. فخرج محمد ومن معه.. فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، إذا هم بـغلام أسود فجاءوا به إلى محمد فقال: غلام من أنت؟.. وعرفه رجل أنه لعثمان! فقال محمد: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر! قال: برسالة... ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فإذا فيه: إذا أتاك محمد وفلان وفلان وفلان، فاحتل في قتلهم فعادوا إلى المدينة... فلم يبق أحد منهم إلا حنق على عثمان... ثم دخل علي على عثمان فسأله هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم!... قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا وعرفوا من الخط أنه لمروان بن الحكم، فسألوا عثمان أن يدفع إليهم مروان، فأبى... فحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء^(١). انتهت قضية عثمان إلى أن قتل بيد الثوار الساخطين على سياسته.

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٦.

الباب الرابع

خلافة أمير المؤمنين عليه السلام



تولي أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة وسياسته في الإصلاح

قُتِلَ عُثْمَانُ، ولم يكن ثمة فرصة لتعيين من يقوم بعده بالخلافة، فلا سقيفة ولا شورى! فكان من حقِّ الجماهير، ولأوَّل مرَّة في تاريخها، أن تطلق صوتها وترجع إلى رسلها.

فنهضت الجماهير عطشى تتسابق سباق الإبل إلى الماء، جاءوا دار الإمام علي عليه السلام حيث اعتزل قبل مقتل عُثْمَان، ولم يخرج من بيته، يطالبون أن يخرج إليهم ليبايعوه.. حتى وصف أمير المؤمنين عليه السلام هذا السيل العارم وإصرارهم على البيعة بقوله: ((فما راعني من الناس إلا وهم رسلٌ إلي كعُرف الضبع، يسألونني أن أبايعهم، وانثالوا عليّ حتى لقد وُطئ الحسنان، وشُقَّ عطفائي)).

ومضى يصف في خطبته هذه موقفه من الخلافة: ((أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر ولزوم الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على أولياء الأمر الا يقرّوا على كظّة ظالم أو سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّها، ولألفوا دنياهم أزهد عندي من عفة عنز))^(١).

وتمت بيعته في الخلافة في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجّة عام ٣٥هـ، وقال عليه السلام يصف ذلك الأمر: ((وبسطهم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثمّ تداكتم عليّ تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف...))^(٢).

وعن أبي ثور - كما جاء في (الإمامة والسياسة) - أنه قال: ((لما كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في اثر علي عليه السلام والناس حوله يبايعونه، فدخل حائطاً من حيطان بني

(١) مقاطع من خطبته الشقشقية.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٩.

مازن، فألجأوه إلى نخلة وحالوا بيني وبينه، فنظرت إليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراع الإمام، تختلف أيديهم على يده، ثم أقبلوا به إلى المسجد الشريف، فكان أول من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده، وكانت أصابعه شلاء، فتطيرَ منها عليٌّ عليه السلام وقال: ((ما أخلقها أن تنكث))، ثم بايعه الزبير وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجميع من في المدينة من المسلمين))^(١).

بهذه اللفتة تمت أول بيعة علي صعيد واسع، وصعد الخليفة الأول الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر الشريف بقبول الناس ورضاهم، لكن الإمام علياً عليه السلام لم يكن من أصحاب السلطة.. فلم يقبل بالخلافة لأجل المنصب، وإنما مصلحة الإسلام والمسلمين تقتضي أن يمدَّ يده لتختلف عليه أيدي الناس المبايعة..

في هذا الجو المشحون بالفتن والحوادث بعد مقتل الخليفة وما خلف قتله من آثار - سنمرُّ عليها لاحقاً - في هذه الأجواء تمت البيعة للإمام عليه السلا، فقال ابن عبد البر: ((بويع لعلي رضي الله عنه بالخلافة يوم قُتل عثمان، فاجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفرٌ منهم، فلم يهجم ولم يُكرههم...))^(٢).

وكان ممن تخلف عن بيعته يوم ذلك: حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وزيد بن ثابت، ومروان بن الحكم، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، ومعاوية ومن معه في جماعة أهل الشام وآخرون^(٣)، وعائشة بنت أبي بكر، زوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث وقفت من الإمام عليٍّ أشدَّ المواقف العدائية التي سنقف عليها لاحقاً.

على أي حال قد تمت البيعة المثالية، التي لم يشهد التاريخ مثلها على جوانب صفحاته، بيعة ليس لها نظيرٌ قطُّ، اندفع كلُّ الناس يتسابقون أيهم يحوز الفضل قبل

(١) الإمامة والسياسة ١/٥٠، وانظر: الكامل في التاريخ ٣/٨١ - أحداث سنة ٣٥، البداية والنهاية ٢٢٧/٧.

(٢) تهذيب الكمال ١٣/٣٠٤.

(٣) أنظر: الكامل في التاريخ ٣/٨٢ حيث ذكر عشرة أشخاص تخلفوا عن بيعة الإمام.

صاحبه.. ولم يفد معهم كلام ولا حجة، فكانوا مصرّين على بيعته حتى ((وبلغ من سرور الناس بيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب..))^(١) لا يرتضون له بديلاً حتى وإن أعلمهم بحقيقة الأمر وسياسته التي قد لا تُرضي الملاً!

قد وضعهم أمام السياسة الواضحة؛ إذ قال لهم: ((دعوني والتمسوا غيري، فإنّنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول.. وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت..)).

وأضاف قائلاً: ((واعلموا أنّي إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل وعتب العاتب))^(٢).

فاستجاب الناس طائعين إلى عرض أبواب السياسة التي سينتهجها، ووجد المسلمون أنفسهم أمام واقع جديد وأحداث جديدة لا عهد لهم بها من قبل.

سياسته الإصلاحية:

لما آلت إليه خلافة المسلمين انصرف منذ اليوم الأوّل لمشروع الإصلاح، إصلاح ما نخره المتقدمون عليه وعثمان وعمّاله على صعيد الاتجاه السياسي والاجتماعي، وحتى الثقافي، في دولة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ومن جلائل خطبه ومشهوراتها، تلك التي وصف فيها حال الأمة، حالهم الجديدة، فيصفها في يوم بيعته: ((.. ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهبيّتها يوم بعث الله نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم والذي بعثه بالحقّ لتبْلُكُنَّ بلبلةً ولتُغربِلُنَّ غرْبلةً، ولتُساظنَّ سوط القدر، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنَّ سابقون كانوا قصّروا، وليقصّرنَّ سبّاقون كانوا سبقوا..

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٢.

والله ما كتمتُ وشمةً، ولا كذبتُ كذبةً، ولقد بُبِّتُ بهذا المقام وهذا اليوم... حقٌّ وباطل، ولكلُّ أهل، فلئن أمرَ الباطلُ لقديمًا فعل! ولئن قلَّ الحقُّ، فلربِّنا ولعل! ولقلِّما أدبر شيءٌ فأقبل! ^(١)! كما أنبأه رسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم.

ومرَّةٌ أُخرى يضع النقاط الأساسية لواجبات الخلافة الجديدة: ((اللَّهِمَّ إِنَّكَ تعلم أَنَّهُ لم يكن الذي كان منَّا منافسةً في سلطان، ولا التماس شيءٍ من الخطام، ولكن لنردَّ المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطلة من حدودك)) ^(٢).

ردُّ المعالم الضائعة المغيبة من الدنيا، وردُّ الحقِّ المنتهك من عباد الله، وإقامة الحدود المعطلة، كأنجح وأعدل سياسة في الحكم الإسلامي، هذه هي أهمُّ أوجه السياسة في الخلافة الجديدة.

لأوَّل مرَّة سيقيم العدل ويُركل الظلم في أشدِّ حالات القتال! القتال على التأويل كما قاتل رسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم على التنزيل: ((إِنَّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن)) قال أبو بكر: أنا هو؟ وقال عمر: أنا هو؟ قال صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم: ((لا، لكنَّه علي!)) ^(٣).

هذا هو مشروع الإصلاح، حسبما اختصره الإمام في خطبته السابقة، وكان هذا إصلاح الساحة السياسية.

أمَّا التغيير الاجتماعي والديني والثقافي فتجسَّد في بيانه للناس عامَّةً، وعمَّاله خاصَّةً، بقوله: ((إِنَّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بينَ فيه الخير والشرِّ، فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصدِّفوا عن سمت الشرِّ تقصدوا..))

الفرائض، الفرائض! أدُّوها إلى الله، تؤدِّكم إلى الجنَّة.. ديناً.
أمَّا على الصعيد الاجتماعي والثقافي فيمكن أن نراه واضحاً في قوله: ((إِنَّ الله حرَّم حراماً غير مجهول، وأحلَّ حلالاً غير مدخول، وفضَّل حُرمة المسلم على الحُرْم كَلِّها،

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣١.

(٣) مسند أحمد ٣/٨٣، المستدرک ٣/١٢٣.

وشدَّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها..)).
ولعمَّاله خاصَّةً قوله: ((بادروا أمر العامَّة، وخاصَّةً أحدكم وهو الموت..)) وقوله:
((اتَّقوا الله في عباده وبلاده، فإنَّكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم..))^(١).

بهذا الإخلاص الرفيع والحكمة المتعالية والسياسة الحكيمة، يضعنا أمام الأمر
الواقع، فقد أعاد عليه السلام إلى الأذهان الدين الحقَّ المنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والذي
تزيَّف في عهد من سبقه!!

أولاً: باشر الإمام في تنفيذ العدل والقسط بين الرعية..
وثانياً: مراقبة العمَّال والأمرء. وله كتب عدَّة في هذه الأمور، جمعها صاحب نهج
البلاغة، بما يقارب ٣٢ كتاباً، في الشؤون الإدارية والسياسية ووصايا إلى الأمراء
والأجناد، فلا يسعنا الحديث عن كلِّ كتبه هذه!
ثالثاً: القتال على تأويل القرآن!!

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦٧، وذكره ابن الأثير في تاريخه ٣/ ٨٤.

خطوات مشروعه الإصلاحية

❖ أولاً: إلغاء التمايز الطبقي:

ساد في عهد ((عمر)) و((عثمان)) تمايز طبقي في توزيع الثروة من بيت المال، حتى أصبح الناس قسامين، قسم في عداد الأثرياء وما فوق ذلك، وآخرون لا يرتفعون عن مستوى الفقر كثيراً! حتى تسببت هذه السياسة الظالمة في استشراف تفاوت طبقي خطير..

فأعلن الإمام علي عليه السلام إلغاء التمايز الطبقي بكل أسبابه، وعهد إلى العدل والقسط بين الناس في العطاء، وانقطعت آمال الطبقة الغنية التي لم تنظر للدنيا إلا في منظار مادي.

فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: ((ألا لا يقولنَّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا، فاتَّخذوا العقار وفجَّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارحة، واتَّخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينتقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا!))^(١).

ولما نودي لقبض الحقوق، قال الإمام علي عليه السلام لعبيدالله بن أبي رافع - كاتبه: -
((إبدأ بالمهاجرين فناديم، وأعط كلَّ رجلٍ ممَّن حضر ثلاثة دنانير، ثمَّ ثنَّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن حضر من الناس كلُّهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك))!

وتخلَّف يومذاك رجال منهم: طلحة، والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعد بن العاص، ومروان بن الحكم، قد عزَّ عليهم أن يكونوا كغيرهم من الموالي والعبيد!

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٣٧/٧.

هناك خطب الإمام علي عليه السلام مرّةً أُخرى قال فيه: ((هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلا جاهل عاندٌ عن الحق، منكر، قال تعالى: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١)) ثمّ صاح بأعلى صوته ((﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٢))! أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم؟! ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)) أنا أبو الحسن، ألا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تُغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرّنكم فقد حدّرتكموها..

فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحدٍ فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون.. وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرضَ به فليتولّ كيف يشاء! فإنّ العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه^(٤).

وقال عليه السلام: ((أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وُلِّيتُ عليه! والله لا أطور به ما سَمَرَ سَمِيرٌ^(٥))، وما أمّ نجمٌ في السماء نجماً! لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله؟!))^(٦).

وكان ذلك أبلغ وأروع خطاب يهزُّ المشاعر، فهنيئاً لمن عاش في ظلّ النبوة والإمامة الحقة!

ثمّ بعث أمير المؤمنين عليه السلام الى طلحة والزبير، يعاتبهما على ما فعلاه من الصّدِّ

(١) سورة الحجرات: الآية/ ١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية/ ٣٢.

(٣) سورة الحجرات: الآية/ ١٧.

(٤) شرح ابن أبي الحديد/ ٧/ ٤٠.

(٥) أي لا أقاربه هدى الدهر.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٦.

والإكراه، فقال - بعدما ذكّرهما ببيعتهما له، وهو كاره -: ((ما دعاكما بعد إلى ما أرى؟ ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟!)).

قالا: أعطيناك ببيعتنا، على أن لا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كل أمرٍ ولا تستبدّ بذلك علينا.. إنك جعلت حقنا كحق غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسّم وتقطع الأمر، وتُمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: ((فوالله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عيها فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إليّ نظرتُ إلى كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلّاني عليه واتبعته ولم احتج في ذلك إلى آرائكما فيه، ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه. وأما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه باديء بدء، قد وجدت أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بذلك... أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وأهلمنا وإياكم الصبر)).

ثم قال عليه السلام: ((رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه))^(١).

وكان موقف عليّ عليه السلام من أمثال هؤلاء، هو اتباع لغة القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فلم يبدل حكماً ويستبدل بأخر، غير الذي رآه أنه جادة الصواب المستقيمة، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً!
هذه هي الثورة الاجتماعية التي أحدثها الإمام عليه السلام، والتي كانت من أشدّ الصعوبات التي واجهها في ذلك المجتمع الشائب بأدران الآلهة والأوثان! هذه هي العدالة بين الفقراء والمساكين والأغنياء الذين طغوا بالأموال.. وسنرى قريباً نتائج هذه العدالة في خروج الناكثين والقاسطين على الخليفة الحق، تحت شعار زائفٍ وحجّةٍ داحضةٍ وهي ((دم عثمان!))

(١) شرح نهج البلاغة ٧/ ٤١ - ٤٢.

ومن مظاهر العدل والقسط انتزاع الأموال والثروات التي تصرف بها عثمان، وكأنتها ملكٌ له لا للمسلمين، والتي أعدها على ذويه وخاصته من أزلام بني أمية من هدايا ضخمة وإلى ما شابه ذلك.

فقام الإمام عليٌّ بانتزاعها منهم، ليعيدها إلى وضعها الطبيعي، لينتفع بها الفقراء والمساكين الذين ((لاكو الصخر خبزاً))! فقال عليه السلام بهذا الموضوع: ((والله لو وجدته قد تزوّج به النساء، ومُلك به الإمام لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق))^(١).

فما كان من بني أمية، الذين هالهم هذا العدل، إلا أن يجرّض بعضهم البعض الآخر، فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان يقول: ((ما كنت صانعاً فاصنع! إذ قسرك ابن أبي طالب كلّ مالٍ تملكه، كما تُقشر من العصا لحاها))!

حتى تمخّضت هذه الأحداث عن معركتين الجمل وصفين، حيث لم يطبقوا عدل الإسلام الذي طبّقه عليهم ابنُ أبي طالب عليه السلام!

وفي أصحاب الحزبين جاء قوله عليه السلام: ((فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجُ بِمَعْلَمِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢))).

❖ ثانياً: سياسته في الحكم:

حيث وضع دستوراً إسلامياً شرعياً تسير عليه السياسة الجديدة، فخطب الملائق قائلاً: ((قد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي عليكم..

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥.

(٢) سورة القصص: الآية/ ٨٣.

جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً، افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تكافاً في وجوهها..

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق: حقّ الوالي على الرعية، وحقّ الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلّ، فجعلها نظاماً لألفتهم، وعزّاً لدينهم.

فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاية، ولا تصلح الولاية إلاّ باستقامة الرعية، فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء...

وإذا غلبت الرعية واليهما، وأجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثر الإدغال في الدين، وتُركت محاجّ السنن، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حقّ عطلّ، ولا لعظيم باطلٍ فُعل، فهنالكَ تذللّ الأبرار، وتعزّ الأشرار.

فعلَيْكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد - وإن أشدّد على رضى الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده - ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة.. وليس أمرؤ - وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته - بفوق أن يعان على ما حمّله الله من حقه، ولا امرؤ - وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون - بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه^(١)..

وهكذا تتكامل المسؤوليات، وتتعاقد الأدوار، ويستوي الناس أمام الحق والعدل، ويأخذ مبدأ التكافل الاجتماعي طريقه إلى الواقع.. إنها مبادئ السياسة النموذجية التي تتوخى صناعة المجتمع النموذجي.

(١) نهج البلاغة : الخطبة : ٢١٦ ، بتصرف.

❖ ثالثاً: استبدال الولاية:

انتخب الإمام علي عليه السلام رجالاً من الذين أبعدهوا في عهد سابقه دون أدنى سبب، جعلهم مكان الولاية الذين ضجّت الأمة من سياستهم المنحرفة، كالوليد بن أبي معيط - الذي سمّاه القرآن فاسقاً - وعبدالله بن أبي سرح، الذي انتفضت عليه مصر، وعبدالله بن عامر، ومعاوية الرجل المتجبر!

وأما البدائل، فهم: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، والأنصاريان الجليلان: سهل بن حنيف وعُثمان بن حنيف، بدائل عن ابن أبي سرح وابن عامر ومعاوية، علي مصر والبصرة والشام^(١).

وجعل عبيد الله بن عباس على اليمن، وقثم بن عباس على مكة. لكنّ عقبة استبدال معاوية كانت هي الأشدّ، حيث ترعّع على العرش، يذبح شيعة الإمام علي عليه السلام ويستنّ السنن لأهل الشام، الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما يعرفهم به معاوية، فعمل علي أن لا يبقى في الشام صحابياً، فأخرج منها أبا ذرّ، وعبادة بن الصامت وغيرهم، لتخلو له أرض الشام فلا يعرفوا غيره!

وجاءت وصايا الإمام عليه السلام إلى الولاية، فكتب يقول لأحدهم: ((واعلم أنّ الرعيّة طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامّة والخاصّة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلّ قد سمّى الله سهمه، ووضع علي حدّه فريضته في كتابه أو سنّة نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم عهداً من عندنا محفوظاً:

فالجنود بإذن الله، حصون الرعيّة، وزين الولاية، وعزّ الدين، وسبل الأمن، وليست تقوم الرعيّة إلا بهم، ثمّ لا قوام للجنود إلا بما يُخرج الله لهم من الخراج..

(١) أنظر: الأخبار الطوال: ١٤١.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لَهُذَيْنِ الصَّنِيفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقِضَاةِ وَالْعَمَّالِ وَالْكَتَّابِ، لِمَا يُحْكَمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا.

ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجّار وذوي الصناعات..
ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ الَّذِينَ يَحُقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ، وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ..^(١)

بلا شك لو أنّ الإمام عليه السلام قد تولّى خلافة المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم مباشرة؛ لظهر الإسلام للعالم بوجهه الصحيح، ولم تكن أمور الغدر والجور والتزوير والفتن، وإلى ما شابه ذلك من الأمور التي نعيشها اليوم، وتعيش فينا إلى آخر يوم..

فقد ترك ((الحكام)) غير الشرعيين صوراً تحفل بالآلام والمخازي، شوّهت الإسلام في أذهان الذين لا يعرفون عنه شيئاً إلا اسمه.. لكن الذي وقع هو أنّ خلافة الإمام عليه السلام قصيرة جداً، بسبب تلك الأمور التي أحاطت به، ولم تترك له مجالاً يمكنه من الإصلاح الشامل، وبناء دولة إسلامية ذات أسس رصينة، كما أراد ذلك الله ورسوله..

لم يكن الإمام عليّاً عليه السلام طالب ملك.. فهو لا يرى السلطة إلا وسيلةً للحقّ والعدالة.. لذلك نراه يصرُّ على عزل معاوية؛ لأنّ إبقائه ولو يوم واحد يعني إقرار الظلم والجور، وأجاب من أشار عليه بترك معاوية وشأنه بقوله: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا!) فهو لا يرى معاوية إلا ضالاً مضلاً، لذلك كرّس كلّ قوّاته لاجتياح الظلم من أرض الشام، كما أجتاحتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من أرض الحجاز!

((إنّ الناظر إلى سياسة عليّ عليه السلام حيال ولاة عثمان، ليعلم مدى صوابه حين أبى إلا خلعهم وتولية سواهم، ممّن يؤمنون بمبادئه ومثله، ويعلم أيضاً أنّه كان نافذ البصيرة مؤمناً باستجابة البلاد كلّها له، لأنّه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة، وها هو الزمن قد أثبت فراسته فجاءته الطاعة من كلّ الأقاليم.

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣، بتصرف.

أمّا الشام فلها وحدها شأن تنفرد به في قبضة رجل مفتون بالسلطان إقراره عليها وعدم إقراره سواء بسواء لن يسفر إلا عن تمرد؛ لأنّه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي وقع في كفّ غريمه القديم.

ومضى يقول: ((ولعلّه لو أثبتته الإمام في حكم الشام، لوسعه أن يبدو في أنظار الجماهير أقوى منه في حال العزل، لأنّه لا يستطيع أن يقول للناس: إنّه يأبى البيعة لمن ولاه، ولا يعتبرها إلا ثمناً يشتري أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان))^(١).

(١) بالواسطة، عن سيرة الأئمة : ٣٩٨.

مسير الإمام إلى البصرة ووقعة الجمل

بينما كان الإمام عليٌّ يجهِّز جيشاً إلى الشام بقيادته؛ لكسح معاوية وبطانته الفاسدة، أتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة من مكَّة بما عزموا عليه، فاستعدَّ لحرب الناكثين ((وسار عليٌّ من المدينة في تعبته التي تعبَّها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين))^(١).

رسم الإمام في سياسته الجديدة خطوط الحكم العريضة، وكان وسامها: ((العدالة))، أثارت هذه السياسة غضب المتمرِّدين على الحكم، وكان منهم ما كان من الخروج عليه، فلمَّا أدرك طلحة والزبير برفض الإمام أن يلبي طموحاتهم السلطوية سكتا على مضضٍ، وأخذوا يعملان للتمرد ضده، ضدَّ الحكم الجديد، فانضمَّ إلى الحزب الأموي..

لقد كان قرار إقامة القسط والعدل والحفاظ على مال الأمة ((هو السبب الخفي والحقيقي لخروج من خرج على عليٍّ، ولنكوث من نكث بيعته، وإن توارى ذلك تحت دعوى مفتعلة اسمها دم عثمان))^(٢).

واستغلَّ هذا الجانب سخط عائشة على الإمام عليٍّ عليه السلام ومواقفها العدائية منه.. فلمَّا كانت بمكَّة، وقد خرجت إليها قبل أن يُقتل عثمان، فلمَّا كانت في بعض طريقها راجعةً إلى المدينة لقيها ابن أمِّ كلاب، فقالت له: ما فعل عثمان؟ قال: قُتل!

قالت: بُعداً وسحقاً، فمن بايع الناس؟

قال: طلحة. قالت: إيها ذو الإصبع.

ثمَّ لقيها آخر، فقالت: ما فعل الناس؟

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ١١٤.

(٢) الزيدية، د. أحمد صبحي: ٤٤، مؤسَّسة الزهراء للإعلام العربي - ١٩٨٤ م.

قال: بايعوا علياً.

قالت: والله ما كنت أبالي أن تقع هذه على هذه، ثُمَّ رجعت إلى مَكَّة (١).

فانصرفت إلى مَكَّة وهي تقول: قُتِلَ والله عُثْمَانُ مظلوماً، والله لأُطلبنَّ بدمه!

قيل لها: ولم؟ والله إنَّ أوَّلَ من أَمالَ حَرْفَهُ لأنَّتِ، ولقد كنتِ تقولين: اقتلوا نعتلاً فقد كفر.

قالت: إنَّهم استتابوه، ثُمَّ قتلوه، وقد قلتُ وقالوا، وقولي الأخير خيرٌ من قولي الأوَّل.

فقال لها ابن أمِّ كلاب:

ومنك الرياحُ ومنك المطرُ	فمنك البداءُ ومنك الغيرُ
وقلتِ لنا: إنَّه قد كفرُ	وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام
وقاتلته عندنا مَنْ أمرُ	فهبَّنا أطعناك في قتلته
ولم ينكسف شمسنا والقمرُ	ولم يسقطِ السقفُ من فوقنا
يزيلُ الشبا ويقيم الصعرُ	وقد بايع الناسَ ذا تُدرءِ
وما مَنْ وفي مثلُ من قد غدرُ (٢)	ويلبسُ للحربِ أثوابها

وقبل أن يخرج موكب عائشة ويدلو بدلوه، كان الإمام عليه السلام يقول: ((أمرتُ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين)) (٣)، فما مضت الأيام حتى قاتلهم، وهذه من جملة الآيات الدالة عليه، وقوله عليه السلام لطلحة والزبير لما استأذناه في الخروج إلى العمرة، قال: ((والله والله ما تريدان العمرة وإنَّما تريدان البصرة)) (٤)!

(١) الإمامة والسياسة ٥٢/١، شرح ابن أبي الحديد ٢١٥/٦ - ٢١٦، تاريخ يعقوبي ١٨٠/٢، كتاب الدلائل: ٩٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/١٠٠، الفتوح ٤٣٤/١، تاريخ الطبري ١٧٢/٥، الإمامة والسياسة ٥٢/١.

(٣) إعلام الوري ٣٣٦/١، المستدرک ١٥٠/٣ ح ٤٦٧٤ و٤٦٧٥، أسد الغابة ١٢٤/٤، البداية والنهاية ٣٦٢/٧.

(٤) إعلام الوري ٣٣٧/١ - ٣٣٨.

وكان من نتائج هذا التمرد - كما سنأتي عليه - معركة البصرة، أوّل نكث لبيعة الإمام عليه السلام التي انتهت بفشل موكب عائشة وقتل طلحة والزبير وعشرات الألوّف من المسلمين!

تهيّأت عائشة للخروج إلى البصرة، وأتت أمّ سلمة فكلمتها في الخروج معهم، فردّت عليها أمّ سلمة قائلةً:

أفأذكرك؟

قالت: نعم.

قالت أمّ سلمة: أتذكرين إذ أقبل رسول الله ونحن معه، فخلا بعليّ يناجيه، فأطال فأردت أن تهجمي عليها، فنهيتك فعصيتيني، فهجمت عليها، فما لبثت أن رجعت باكية، فقلت: ما شأنك؟ فقلت: إني هجمت عليها وهما يتناجيان، فقلت لعليّ: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيّام، أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّ وهو غضبان محمّر الوجه، فقال: ((ارجعي وراءك، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان))؟

قالت عائشة: نعم أذكر^(١).

لكن لم يردعها كلام ولا رادع، فلم تنثن عن عزمها، ولم ترجع إلى عقلها، فتجهّزت ومن معها إلى البصرة لتؤلّب الناس على الإمام عليّ عليه السلام فكانت أحداث معركة الجمل.

(١) أنظر: ابن أبي الحديد ٦/٢١٧-٢١٨.

معركة الجمل

لماذا... الآن؟

بعد مضي أربعة عشر قرنًا قد يتساءل متسائل: ما الفائدة الآن من طرح موضوع حرب الجمل، بحيث أوشكت أن تغيب في ذاكرة النسيان؟ الحقيقة أنا مازلنا نعيش حرب جمل، بين حين

وآخر، على شكل حروب داخلية، بأشكال مختلفة. وكحرب الجمل تمامًا، فإن جماعة كل طرف من أطراف حروب الجمل المعاصرة، تعمل ما وسعها لتبرير أخطاء غير مبررة، وتصرفات خاطئة؛ وكما في حرب الجمل أيضًا، ماتزال المشاعر هي المسيطرة، والتفهم لهدى الله شبه غائب، والحوار أبعد ما يكون عن التفاهم، واقرب ما يكون إلى لغة القمع والسيوف!

تلعب السياسة دورًا هامًا في إضفاء القدسية على أشخاص معينين. ويمكن أن يصل التقديس، بفعل عوامل كثيرة، إلى سوية التآليه.

الفئة الباغية

المطالبة بدم عثمان بلاءً انصب على المسلمين.. بالأمس تألبوا جميعًا على قتل عثمان وحربه، واليوم يذرفون الدموع عليه ويطالبون بدمه. وما شأن عليٍّ ودم عثمان؟! فالذين يطالبون بدمه هم الذين قتلوه، أو خذلوه عن عمد، ولقد كان عمرو بن العاص يقول: (والله إني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان)^(١).

وإذا انهارت دعوات طلحة والزبير بالمطالبة بقتلة عثمان ولم تنل السيدة عائشة مبتغاها من الإمام بعد.. حيث ظلت تلك الأحقاد في صدرها تغلي وهي التي دفعتها لحرب الإمام من قبل. يقول الإمام علي عليه السلام: ((وأما فلانة [عائشة] فقد أدركها

(١) عبقرية الإمام علي ص ٧٢.

ضعف رأي النساء، وضغن غلا في صدرها كمرجل القين^(١)، ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلي ما تفعل^(٢).

وقد أبدت بالغ المسرات والأفراح حينما بلغها مقتله (سلام الله عليه).

روى أبو الفرج الأصفهاني: لما أتى عائشة نعي علي أمير المؤمنين عليه السلام سجدت وتمثلت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وفي العقد الفريد قال: ودخلت أم أوفى العبدية على عائشة بعد وقعة الجمل فقالت لها: يا أم المؤمنين؟ ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً.

قالت: وجبت لها النار.

قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكبر عشرين ألفاً في صعيد واحد.

قالت: خذوا بيد عدوة الله^(٣).

وقد تناست أنه أخو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووليه وأنه بمنزلة هارون من موسى، وأعرضت عما قال فيه: ((اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

كذلك من الدوافع أنها كانت تتوقع أن ترجع الخلافة إلى تيم ويتقلدها ابن عمها طلحة كما يذكر ذلك العقد^(٤).

وهكذا بدأ ابن آكلة الأكباد معاوية بن أبي سفيان من حيث انتهت في معركة الجمل مطالباً بدم عثمان..

ومع الأيام أصبح دم عثمان شعاراً يتذرع به معارضو الإمام ولافتة صارخة يحملها مناوئوه للتأليب عليه والتصدي لحكمه والإطاحة به.

(١) المرجل: قدر كبيرة، والقين: الحداد.

(٢) نهج البلاغة ٢/ ٦٣.

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٣٥.

(٤) عبقرية الإمام علي ص ٨٧.

وقميص عثمان اتخذ منه معاوية مبرراً لإعلان الحرب على الإمام والوصول إلى السلطة وعندما وصل معاوية إلى السلطة وتحققت أطماعه سقط هذا الشعار واختفى. وموقف الأمويين من بني هاشم معروف وواضح منذ شروق الإسلام، فهو صراع بين الحق والباطل.

عليٌّ يمثل جانب الحق وفي وجهه مسحة الرسالة وشخصيته امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((عليٌّ مني وأنا منه)).

ومعاوية يمثل جانب الباطل، يمثل أحقاد قريش وضغائنها التي ما فتئت تتحين الفرص لتنال من الإسلام. ثارات بدرٍ وحنين والأحزاب..

يقول السيد العالم بدر الدين الحوثي - رحمة الله عليه - في كتابه (إرشاد الطالب):

((ولما قتل عثمان رجع الناس إلى علي عليه السلام وبايعه بقايا المهاجرين والأنصار الذين كانوا بمدينة رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) إلا أن يكون عدد يسير تأخروا كابن عمر وسعد بن أبي وقاص وكان علي عليه السلام هو المنظور إليه لهذا الشأن لما قدمناه ولكونه صفوة قريش إن كان الأمر لقريش وصفوة المهاجرين منهم إن كان الأمر للمهاجرين من قريش وصفوة الصحابة وصفوة القرابة وعظيم الأمة وعقبها.

ولكن بني أمية استغلوا الدعاية التي ذكرنا فطلبوا الملك وقام معاوية لحرب علي عليه السلام باسم الطلب بثأر عثمان وقد كان علي عليه السلام بريئاً لا شك في براءته وقد عرض لمعاوية أن يدخل معاوية في طاعته ويحاكمهم إلى علي عليه السلام ويحكم علي عليه السلام بينهم بكتاب الله؛ لأنه لم يكن من الحق قتلهم بدون محاكمة كما يطلب معاوية قتلهم على كل حال وعلي عليه السلام لا يرى ذلك؛ لأن لهم في قتله حجة تسقط عنهم القصاص في ظاهر الأمر؛ لأنهم قتلوه نهباً عن المنكر ودفاعاً عن أنفسهم حيث ظهر أنه قد عزم هو أو من يطيعه عثمان من الوزراء على قتلهم واعتقدوا أنه لا ينقذهم من ذلك إلا قتل عثمان فلم يكن يجب عند أمير المؤمنين التعرض لهم والحال هذه وإن كان يرى لولي الدم لو طلب المحاكمة إلى علي عليه السلام أن يحاكمهم حتى يدي كل من الطرفين بحجته

ثم يحكم بينهم بالحق وقد كان يجب على الأمويين وغيرهم الرجوع إلى حكم علي عليه السلام لأنه أفضى الأمة وأعلمها بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن لهم أن يرجعوا إلى القتال دون الرد إلى الله والرسول كما أمر الله تعالى في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩) (١).

تحرك موكب الناكثين بقيادة عائشة وطلحة والزبير نحو البصرة، وقد حفَّ به الحاقدون على الإمام علي عليه السلام تحت شعار: ((الثأر لعثمان))، فلما بلغوا ((ذات عرق)) لقيهم سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وأصحابه، فقال لهم: أين تذهبون وتتركون ثأركم على أعجاز الإبل وراءكم؟ - يعني عائشة وطلحة والزبير - اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم.

فقالوا: نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً (٢).

ومرَّ القوم ليلاً بماء يُقال له: الحوَاب، فنبحتهم كلابه، فقالت عائشة: ما هذا الماء؟ قال بعضهم: ماء الحوَاب.

فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا الماء الذي قال لي رسول الله: ((لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوَاب)). ثم صرخت بهم: ردُّوني ردُّوني!!

فأتاها القوم بأربعين رجلاً، فأقسموا بالله أنه ليس بماء الحوَاب! وأتى عبدالله بن الزبير، فحلف لها بالله لقد خلفته أول الليل، وأتاها بيئنة زور من الأعراب فشهدوا بذلك (٣). فكان ذلك أول شهادة زور أُقيمت في الإسلام.

وبلغوا البصرة، وعامل الإمام عليها الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري، فمنعهم

(١) سورة النساء: الآية/ ٥٩.

(٢) الإمامة والسياسة ١/ ٦٣، وانظر الكامل في التاريخ ٢/ ١٠٢.

(٣) أنظر قصَّة ماء الحوَاب في: تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٨١، ابن أبي الحديد ٦/ ٢٢٥، تاريخ ابن الأثير ٢/ ١٠٣، مسند أحمد ٦/ ٥٢، ٩٧، المستدرک ٣/ ١١٩ - ١٢٠، كتر العمال ١١ ح ٣١٦٦٧.

من الدخول، وقتلهم، ثُمَّ توادعوا ألا يحدثوا حدثاً حتى يقدم عليٌّ عليه السلام، ثُمَّ كانت ليلة ذات ريح وظلمة، فأقبل أصحاب طلحة فقتلوا حرس عثمان بن حنيف، ودخلوا عليه، فنتفوا لحيته وجفون عينيه ومثلوا به، وقالوا: لولا العهد لقتلناك، وأخذوا بيت المال^(١).

وأما الإمام علي فلما بلغه نبأ مسيرهم إلى البصرة، حمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: ((قد سارت عائشة وطلحة والزبير، كُلُّ واحدٍ منهما يدعي الخلافة دون صاحبه، فلا يدعي طلحة الخلافة إلا أنه ابن عمِّ عائشة، ولا يدعيها الزبير إلا أنه صهر أبيها. والله لئن ظفرا بما يريدان ليضربنَّ الزبير عنق طلحة، وليضربنَّ طلحة عنق الزبير، يُنزع هذا على الملك هذا.

وقد - والله - علمتُ أمَّها الراكبة الجمل، لا تحلُّ عقدة ولا تسيرُ عقبه، ولا تنزلُ منزلاً إلا إلى معصية، حتى تورِد نفسها ومن معها مورداً، يُقتل ثلثهم ويهرب ثلثهم ويرجع ثلثهم.

والله إنَّ طلحة والزبير ليعلمان أمَّهما مُحطَّان وما يحملان، ولربَّما عالم قتله جهلُهُ وعلمه معه لا ينفعه. والله لينبجها كلاب الحوَّاب، فهل يعتبر معتبرٌ أو يتفكَّر متفكِّراً!!
ثُمَّ قال: ((قد قامت الفئة الباغية فأين المحسنون))^(٢)؟

ثُمَّ دعا علي طلحة والزبير أمام مسلمي الكوفة، فقال: ((قد علمتم - معاشر المسلمين - أنَّ طلحة والزبير بايعاني طائعين راغبين، ثُمَّ استأذناني في العمرة فأذنتُ لهما، فسارا إلى البصرة فقتلا المسلمين وفعلا المنكر.

اللَّهِمَّ إِنَّهُمَا قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبا الناس عليّ، فاحلُّل ماعقدا، ولا تُحكِّم ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملا))^(٣).

(١) أنظر: تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٨١، تاريخ ابن الأثير ٢/ ١٠٨، الإمامة والسياسة: ٦٩.

(٢) الإرشاد ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) الإرشاد ١/ ٢٥٠، الطبعة الحجرية.

معركة الجمل

سُمِّيت بذلك لأنَّ ((قائدة الجيش)) فضَّلت ركوب الجمل على البغال والحمير، وكانت الواقعة في ٤ كانون الأوَّل سنة ٦٤٦ م^(١)، يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ^(٢).

وأزَّت العاصفة في وجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وثارت كالحة عاتية وكأنها تريد أن تجتث عهد الإمام وتطيح بحكمه.

فكانت المواجهة العسكرية الأولى بين الإمام الخليفة الشرعي، وبين الناكثين بقيادة الأقطاب الثلاثة: عائشة، وطلحة، والزبير.. وذلك لأخذ الخلافة من علي بالقوة.

وحاول الإمام بكل ما يستطيع حقن الدماء ولكن دون جدوى.. وعلى أرض البصرة دقت طبول الحرب إيذاناً بها..

وانبلج الصبح بثوبٍ كاسف.. وقد اصطف فيه الجيشان لخوض المعركة.

ولن أكلف نفسي - عزيزي القارئ- بإثبات أحقية الإمام علي عليه السلام لأنني لا أعتقد أن أحداً قرأ التاريخ ويوجد في قلبه ذرةٌ من إيمان أو شعور بالحق والعدل سيقول بغير ذلك.

ينقل الدكتور طه حسين الأديب والكاتب المصري الشهير في كتابه (علي وبنوه) خبر الرجل الذي تردد في يوم الجمل في أمر علي عليه السلام وطلحة والزبير وعائشة، يقول في نفسه: كيف يمكن أن يكون مثل طلحة والزبير وعائشة على الخطأ؟! وشكا شكه ذلك إلى الإمام علي عليه السلام وسأله: أيمكن أن يجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل؟ فقال عليه السلام: ((إنك لملبوسٌ عليك إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، إعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله)).

(١) فضائل الإمام علي: ١٢٨، عن بروكلمن في (تاريخ الشعوب الإسلامية).

(٢) فضائل الإمام علي: ١٢٨، عن الواقدي والمسعودي.

ينقل المؤرخ المسعودي صورة للموكب العسكري الذي كان يتقدمه أمير المؤمنين عليه السلام في معركة الجمل - والذي يظهر أن الحق في جانب الإمام علي عليه السلام في أنصع صورة لمن لا يعرفون مكانة الإمام؛ لما كان يحتويه معسكره من عطاء وفضلاء - فيقول:

لما قدم علي عليه السلام البصرة دخل مما يلي الطف فأتى الزاوية فخرجت أنظر إليه فورد موكبٌ في نحو ألف فارس يتقدمهم فارسٌ على فرسٍ أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلدٌ سيفاً ومعه راية وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟ ف قيل: هذا أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء الأنصار وغيرهم.

ثم تلاهم فارسٌ عليه عمامةٌ صفراء وثيابٌ بيض متقلدٌ سيفاً متنكبٌ قوساً معه راية على فرسٍ أشقر في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ ف قيل: هذا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين.

ثم مر بنا فارسٌ آخر على فرسٍ كميث ^(١) معتمٌ بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء ^(٢) أبيض مصقول، متقلدٌ سيفاً متنكبٌ قوساً في نحو ألف فارس من الناس ومعه راية، فقلت: من هذا؟ ف قيل لي: أبو قتادة بن ربعي.

ثم مر بنا فارسٌ آخر على فرسٍ أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سد لها من بين يديه ومن خلفه، شديد الأدمة، عليه سكينه ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن، متقلدٌ سيفاً، متنكبٌ قوساً، معه راية بيضاء في ألفٍ من الناس مختلفي التيجان، حوله مشيخة وكهول وشباب كأنها قد أوقفوا للحساب قد أثر السجود في جباههم فقلت: من هذا؟

فقيل: عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم.

(١) ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

ثم مرَّ بنا فارس على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكب قوسًا، متقلدًا سيفًا، تخط رجلاه في الأرض في ألف فارس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء. قلت: من هذا؟

قيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة في عدة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان.

ثم مرَّ بنا فارس على فرسٍ أشهل ما رأينا أحسن منه عليه ثيابٌ بيض وعمامة سوداء قد سد لها من بين يديه بلواء. قلت: من هذا؟ قيل: هو عبد الله بن العباس في وفده وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم تلاه موكبٌ آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين. قلت: من هذا؟
قيل: عبيد الله بن العباس.

ثم تلاه موكبٌ آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين. قلت: من هذا؟
قيل: قثم بن العباس، أو معبد بن العباس.

ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضًا واشتبكت الرماح.
ثم ورد موكبٌ فيه خلقٌ من الناس عليه السلاح والحديد مختلفو الرايات، في أوله راية كبيرة، يقدمهم رجل كأنها كسر وجبر^(١) نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، كأنها على رؤوسهم الطير، وعن يمينه شابٌ حسن الوجه وعن يساره شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلها.

قلت: من هؤلاء؟ قيل: هذا علي بن أبي طالب، وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشائخ هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

(١) وهذه صفة رجل شديد الساعدين وكذلك تخبر العرب في وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر.

فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية فصلى أربع ركعات وعفّر خديه على التراب وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو: اللهم رب السموات وما أضلت، والأرضين وما أقلت، ورب العرش العظيم، هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرها، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزّلين، اللهم إن هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبعغوا عليّ ونكثوا بيعتي، اللهم احقن دماء المسلمين^(١).

وكانت الواقعة خارج البصرة، عند قصر عبيدالله بن زياد^(٢) وكان عسكر الإمام عشرين ألفاً، وعسكر عائشة ثلاثين ألفاً^(٣).

ولمّا التقى الجمعان قال الإمام لأصحابه: ((لا تبدأوا القوم بقتال، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تملّثوا بقتيل، وإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترّاً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً.. ولا تهيجوا امرأةً بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم))^(٤).

وقيل: إن أوّل قتيل كان يومئذ مسلم الجهنّي، أمره عليّ عليه السلام فحمل مصحفاً، فطاف به على القوم يدعوهم إلى كتاب الله، فقتل^(٥).

ثمّ أخذ أصحاب الجمل يرمون عسكر الإمام بالنبال، حتى قُتل منهم جماعة، فقال أصحاب الإمام: عقرتنا سهامهم، وهذه القتلى بين يديك..

عند ذلك استرجع الإمام وقال: ((اللهمّ اشهد))، ثمّ لبس درع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وتقلّد سيفه ورفع راية رسول الله السوداء المسماة بالعقاب؛ فدفعها إلى ولده محمّد بن الحنفية.

(١) مروج الذهب ٢/٣٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء (.) : ٢٥٤.

(٣) الكامل في التاريخ ٣/٢٤١-٢٤٢.

(٤) الكامل في التاريخ ٣/٢٤٢-٢٤٣.

(٥) سير أعلام النبلاء (.) : ٢٥٩.

وتقابل الفريقان للقتال، فخرج الزبير، وخرج طلحة بين الصَّفَيْنِ، فخرج إليهما عليٌّ، حتى اختلفت أعناق دوابِّهم، فقال عليٌّ عليه السلام: ((لعمري قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً، فاتَّقيا الله، ولا تكونا ككألتني نقضت غزلهما من بعد قوّة أنكثا ^(١))).

ألم أكن أحاكما في دينكما، مُحْرمان دمي، وأحرّم دمكما، فهل من حدثٍ أحلّ لكما دمي؟!)

قال طلحة: ألبت علي عثمان.

قال عليٌّ: ((يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ^(٢)))، يا طلحة، تطلب بدم عثمان؟! فلعن الله قتلة عثمان، يا طلحة، أجئت بعرس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تقاتل بها، وخبّأت عرسك في البيت! أما بايعتني؟!)).

قال: بايعتك والسيف على عنقي!

فقال عليٌّ عليه السلام للزبير: ((يا زبير، ما أخرجك؟ قد كنّا نعدُّك من بني عبدالمطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ^(٣)، ففرّق بيننا)) وذكره أشياء، فقال: ((أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في بني غنم، فنظر إليّ، فضحك، وضحكت إليه، فقلت له: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك: ليس به زهو، لتقاتلنه وأنت ظالم له؟!)).

قال: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرّت مسيري هذا، والله لا أفاتلك أبداً.

فانصرف الزبير إلى عائشة، فقال لها: ما كنتُ في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري، غير موطني هذا.

قالت: فما تريد أن تصنع؟

قال: أريد أن أدعهم وأذهب.

(١) سورة النحل: الآية/ ٩٢.

(٢) سورة النور: الآية/ ٢٥.

(٣) يريد ابنه عبد الله.

قال له ابنه عبدالله: جمعت بين هذين الغارين، حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تركهم وتذهب؟! لكنك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنّها تحملها فتية أنجاد، وأنّ تحتها الموت الأحمر، فجبنت!

فاحفظه - أي: أغضبه - ذلك، وقال: إنّي حلفتُ ألا أقاتله.

قال: كفر عن يمينك، وقاتله.

فأعتق غلامه (مكحولاً)، وقيل: سرجيس.

فقال عبدالرحمن بن سلمان التميمي:

لم أرَ كالיום أخا إخوانٍ أعجبَ من مُكفّرِ الايمانِ

بِالعتقِ في معصيةِ الرحمنِ ^(١)

وقيل: إنّه عاد ولم يقاتل الإمام عليه السلام ^(٢).

واحتدمت المعركة بين الفريقين، وتقاتلوا قتالاً لم يشهد تاريخ البصرة أشدّ منه، ثمّ إنّ مروان بن الحكم رمى طلحة بسهم وهو يقاتل معه ضدّ عليّ عليه السلام يرميه في رديه ويقول: لا أطلب بثأري بعد اليوم ^(٣).

واستمرّ الحال في أشدّ صراعٍ، لم يرَ سوى الغبرة وتناثر الرؤوس والأيدي، ففتهاوى أجساد المسلمين على الأرض.

ولمّا رأى الإمام هذا الموقف الرهيب من كلا الطرفين، وعلم أنّ المعركة لا تنتهي أبداً مادام الجمل واقفاً على قوائمه قال: ((إرشقوا الجمل بالنبل، واعقروه والافيت العرب، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض)). فقطعوا قوائمه، ثمّ ضربوا عجز الجمل بالسيف، فهوى إلى الأرض وعجّ عجيجاً لم يُسمع بأشدّ منه. ففترّق من كان حوله كالجراد المبعوث، وبقيت قائدة المعركة لوحدها في ميدان الحرب! وانتهت المعركة بهزيمة المتمرّدين من أصحاب الجمل.

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٠، الكامل في التاريخ ٣/ ٢٣٩، مستدرك الحاكم ٣/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ٧٣.

(٣) سير أعلام النبلاء (ترجمة الإمام عليّ): ٢٥٥، وانظر، الكامل في التاريخ ٣/ ١٢٨.

أمّا الإمام عليه السلام فقد هاله موقف المسلمين منه، حتى ساقهم هذا العصيان والتمرد على الحقّ إلى مثل هذا المصير، فوقف بين قتلاه وقتلى المتمرّدين، تحيط به هالة القلق والتمزق فقال: ((هذه قريش، جدّعتْ أنفي وشفيتْ نفسي، لقد تقدّمت إليكم أحذركم عَضَّ السيوف، وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، ولكنّه الحين^(١)، وسوء المصرع، فأعوذ بالله من سوء المصرع))^(٢)؟.

ثمّ أمر عليّ عليه السلام نفرأ أن يحملوا هودج عائشة من بين القتلى، وأمر أخاها محمّد بن أبي بكر أن يضرب عليها قُبَّةً، وقال: ((انظر هل وصل إليها شيء من جراحة))؟ فأدخل رأسه في هودجها، فقالت: من أنت؟ قال: أبغض أهلِكَ إليك. قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم. قالت: يا بأبي، الحمد لله الذي عافاك^(٣)!؟

فلَمّا كان الليل أدخلها أخوها محمّد بن أبي بكر البصرة، في دار صفيّة بنت الحارث، ثمّ دخل الإمام عليه السلام البصرة فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة..

ثمّ جهّز عليّ عليه السلام عائشة بكلّ ما ينبغي لها من مركبٍ وزادٍ ومتاعٍ وغير ذلك، وبعث معها كلّ من نجا، ممّن خرج معها، إلا من أحبّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيرَ معها أخاها محمّد بن أبي بكر^(٤).

ورُبّ سائل يسأل: ما هي الآثار التي تركتها فتنة الجمل؟

فيُجيب الأستاذ محمّد جواد مغنية بقوله: ((لولا حرب الجمل لما كانت حرب صفين والنهروان، ولا مذبحه كربلاء، ووقعة الحرّة، ولا رُميت الكعبة المكرّمة بالمنجنق أكثر من مرّة، ولا كانت الحرب بين الزبيريين والأمويين، ولا بين الأمويين والعباسيين، ولما افترق المسلمون إلى سنّة وشيعة، ولما وجد بينهم جواسيس وعملاء يعملون على

(١) الحين: الهلاك.

(٢) الإرشاد ٢٥٤ / ١.

(٣) الكامل في التاريخ ٢ / ١٤٠.

(٤) الكامل في التاريخ ٢ / ١٤٤.

التفريق والشتات، ولما صارت الخلافة الإسلامية ملكاً يتوارثها الصبيان، ويتلاعب بها الخدم والنسوان.

لقد جمعت حرب الجمل جميع الرذائل والنقائص، لأنها السبب لضعف المسلمين وإذلالهم، واستعبادهم وغضب بلادهم، فلقد كانت أول فتنة ألفت بأس المسلمين بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، بعد أن كانوا قوّة على أعدائهم، كما فسحت المجال لما تلاها من الفتن والحروب الداخلية التي أودت بكيان المسلمين ووحدتهم، ومهدت لحكم الترك والديلم والصلبيّين وغيرهم. وباختصار لولا فتنة الجمل ومن قبلها سقيفة بني ساعدة لاجتمع أهل الأرض على الإسلام، لأن رحمة تشمل الناس أجمعين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿١﴾ وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: ((إنما أنا رحمة مهداة.

(١) سورة الأنبياء: الآية/ ١٠٧.

حرب الجمل... وعلاقتها بمقتل عثمان!

١- عائشة:

كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان حتى أنها في النصف الثاني من حقبة خلافته، أخرجت ثوبًا من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنصبته في منزلها، وكانت تقول للدخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته... وقالوا إنها كانت أول من سمى عثمان نعثلاً اسم أحد يهود المدينة، وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً^(١)! قتل الله نعثلاً! فقال عثمان في آل أبي قحافة أسرة^(٢) عائشة ما قال، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول.

كانت السيدة عائشة بمكة، خرجت إليها قبل أن يقتل عثمان، فلما قضت حاجتها، انصرفت راجعة، فلما صارت في بعض الطريق، لقيها ابن أم كلاب (أحد معارفها) فقالت له: ما فعل عثمان؟! قال: قتل! قالت: بعدًا وسحقًا^(٣) أبعد الله بما أقدمت يده! وما الله بظلام للعبيد^(٤). بعد تولي الإمام علي عليه السلام الخلافة^(٥) راحت السيدة تحرض الناس وتلعن قتلة عثمان! والناس معها يلعنون قتلة عثمان! فيقول علي: يلعنون قتلة عثمان؟! والله ما يلعنون إلا أنفسهم، فهم قتلوه^(٦).

(١) أنظر: الطبري ٤/٤٧٧، تاريخ ابن أعمش ص ١٥٥، ابن الأثير ٣/٨٧، ابن أبي الحديد ٢/٧٧، شرح النهج ٤/٤٥٨، تاج العروس ٨/١٤١، لسان العرب ١٤/١٩٣، في نص الإمامة والسياسة، وردت عبارة ((اقتلوا نعثلاً فقد فجر)) ١/٧٢، وفي غيرها نجدتها تقول: ((اقتلوا نعثلاً فقد كفر)).

(٢) أنظر: عائشة والسياسة ص ٥٥، ٦٦، ٤٠، البدء والتاريخ ٥/٢٠٥.

(٣) اليعقوبي ٢/١٨٠، راجع أيضاً: الإمامة والسياسة ١/٦٧.

(٤) كتاب الجمل للمدائني ١٥٠.

(٥) من أجل المزيد من علاقة السيدة بعثمان، راجع ((فصل عائشة والمعارضة)) في ((حوارات)). أنظر أيضاً: كتابنا، أم المؤمنين تأكل أولادها.

(٦) طه حسين، علي وبنوه ٢/٤٦.

٢- طلحة بن عبيد الله:

القرشي التيمي، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى.

بلغت ثروة طلحة، زمن خلافة عثمان، حدًا كبيرًا. فقد كان

يغل بالعراق ما بين أربعمئة ألف إلى خمسمئة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار^(١) وقيل إن غلته من العراق وحده، كانت ألف دينار كل يوم^(٢) مع ذلك كان من أشد الناس على الخليفة المقتول لأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر^(٣) أي الخلافة. فلم يكن يخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم، ولا إطماع فريق منهم في نفسه. وكثيرًا ما شكّا عثمان منه في السر والجهر^(٤) فكان يقول اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل هؤلاء وألبهم. والله لأرجو أن يكون منها صفرًا، وأن يسفك دمه؛ إنه انتهك مني ما لا يحل له^(٥).

وبعدما حاصر الناس عثمان أجلب عليه محمد بن أبي بكر بني تيم، وأعاناه طلحة بن عبيد الله على ذلك^(٦)، ومنع طلحة عثمان أن يدخل الماء العذب. فأرسل علي لطلحة، وهو في أرض له على ميل من المدينة، أن دع هذا الرجل فليشرب من مائه ومن بثره، يعني من رومه، ولا يقتل من العطش فأبى^(٧). كان طلحة يبعث إلى أهل البصرة كتبًا بالتحريض على قتل عثمان^(٨).

(١) العقاد، عبقریات إسلامية ٣/ ٨٩.

(٢) عبد الرحمن الشرقاوي، علي إمام المتقين ١٦١.

(٣) علي وبنوه ص ٩. من أجل ثروة طلحة، راجع: طبقات ابن سعد ٣/ ١٥٨ ط لايدن، أنساب البلاذري ٧/ ٥، مروج الذهب ١/ ٤٣٤، العقد الفريد ٢/ ٢٧٩، الرياض النضرة ٢/ ٢٥٨، دول الإسلام

١٨/ ١، الخلاصة للخزرجي ص ١٥٢، تاريخ الطبري ٤/ ٤٠٤، شرح النهج ١٠/ ٥.

(٤) المصدر السابق ص ٣٥.

(٥) أنظر: الطبري ٥/ ١٢٢، ابن الأثير ٣/ ٧٣.

(٦) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة ص ٥٠.

(٧) أنظر: الطبري ٥/ ١١٣.

(٨) علي إمام المتقين ص ٣٥.

وحين ثار علي لمقتل عثمان، قال طلحة: لو دفع مروان بن الحكم لم يقتل^(١). مروان بدوره، رأى في طلحة أحد قتلة عثمان، لذلك رماه بسهم في حرب الجمل، فقتله. ثم قال لا أطلب والله بعد اليوم بثأر عثمان، وأنا قتلته^(٢) كما وقال لأحد أبناء عثمان لقد كفيته ثأر أبيك من طلحة.

من ناحية أخرى، فقد قال طلحة قبيل موته كان مني في دم عثمان شيء ليس توبتي منه إلا أن يسفك دمي في طلب دمه^(٣).

٣-الزبير بن العوام:

القرشي، الأسدي، زوج أخت عائشة، أحد الستة أصحاب الشورى، كان ممن هاجر إلى الحبشة، وهو الرابع أو الخامس في الإسلام.

لم يكن الزبير أقل غنى من طلحة. فبعدها مات، قسّم ماله بين ورثته فإذا هو خمسون ألف ومائتا ألف^(٤) وكان عنده ألف فرس وألف أمة^(٥) وكانت له عدة دور فخمة في البصرة، والكوفة، ومصر، والإسكندرية^(٦).

تروي المصادر التاريخية أن أكثر من كان يؤلب علي عثمان، هم طلحة والزبير وعائشة^(٧) لكن الزبير، كان وجه الخصوص، لم ينشط في رد الثائرين على عثمان نشاطاً ملحوظاً ولم ينشط في تحريضهم نشاطاً ملحوظاً أيضاً. ولكنه ظل يترقب وهوام مع الثائرين، ولعله لم يكن يظن أن الأمر سيصير إلى ما صار إليه^(٨)، أي الخلافة، لكنه لم يكن أقل من طلحة طموحاً إلى ولاية الأمر.

(١) الأنساب ٧٤/٥.

(٢) اليعقوبي ١٨٢/٢.

(٣) علي وبنوه ٤٦/٢.

(٤) عبقریات إسلامية ٨٩/٣.

(٥) علي إمام المتقين ١٦١.

(٦) مروج الذهب ٣٤٢/٢. من أجل ثروة الزبير، راجع: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب بركة

المغازي ٢١/٥، شذرات الذهب ٤٣/١، طبقات ابن سعد ٧٧/٣ ط لايدن، تاريخ ابن كثير ٢٤٩/٧.

(٧) البدء والتاريخ ٢٠٥/٥.

(٨) علي وبنوه ٧-٩.

٤- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

يقول محمد بن سيرين: ما علمت أن عليًا اتهم في دم عثمان حتى بويع فلما بويع اتهمه الناس^(١) يعني أن التهمة عبارة عن استغلال سياسي قدر لتصبح ذريعة للسيطرة على السلطة ، وتتفق أغلب المصادر على دور علي في التخفيف من آثار بعض الإجراءات اللاإنسانية والغير حكيمة التي اتخذها الثوار بحق عثمان يؤكد ذلك قوله للثوار (لقد استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع) وكان الإمام علي يدرك أن بعض التصرفات الغير حكيمة ستفتح الثغرات للانتهازين لاستغلالها وقد فعلوا وجعلوا من قميص عثمان -الذين كانوا من ضمن من حرض عليه أو خذله- ذريعة لشن حروبهم الظالمة العدوانية في حرب الجمل وصفين.

(١) العقد الفريد ٣ / ٩٠ .

دوافع الناكثين

يذكر البعض عن أسباب حرب الجمل، إن علياً السلام أراد أن يؤخر المطالبة بدم عثمان ريثما يستقر له الأمر، في حين أن طلحة والزبير، اللذين بايعاه من أول يوم.. رأيا الإسراع في ذلك هو الأضمن لسلامة الأمر ودرء أسباب الفتنة، وعرضاً على علي خدماتها.

إذا كانت الأخبار والسير تساعدنا في فهم دور طلحة والزبير في حادث مقتل عثمان، والذي أشرنا إليه باختصار في حديثنا السابق عن ذلك الحادث؛ فإنه ليس ثمة مصدر يمكنه مساعدتنا في فهم كيف عرضاً على علي خدماتها وهما اللذان حارباه في الجمل بعد مضي ستة أشهر على توليه الخلافة^(١).

يروى الطبري، إنه بعدما بايع الناس علي بن أبي طالب، فأرسل إلى الزبير وطلحة، فدعاهما إلى البيعة، فتلكأ طلحة، فقام مالك الأشتر أحد أعوان علي وسل سيفه: وقال والله لتبايعن به أو أضربك ما بين عينيك. فقال طلحة: وأين المهرب منه؟ فبايعه. وبايعه الزبير والناس. (وقيل): إنما بايع طلحة والزبير علياً كرهاً، وقال بعضهم: لم يبايع الزبير... وقالوا (طلحة والزبير) بعد ذلك: صنعنا خشية على أنفسنا. (وقيل إن علياً، بعد خروجه من المسجد بايعه من بايعه، وبايعت الأنصار علياً إلا نفرًا يسيرًا، فقال طلحة: مالنا من هذا الأمر إلا كسحة أنف الكلب... بايعت والسيف فوق رأسي. فقال سعد (الراوي) لا أدري والسيف على رأسه أم لا. إلا أنني أعلم أنه بايع كارهاً (ويقال إن القوم) جاؤوا بطلحة، وقالوا: بايع! فقال: إنما أنا أبايع كرهاً. ثم جيء بالزبير، فقال مثل ذلك^(٢).

والقول بأن الإمام علياً استكرههم غير صحيح فالبيعة للإمام علي عليه السلام لم تكن كرهاً وقد وضح هذا الإمام علي (عليه السلام) في (نهج البلاغة) حيث قال:

(١) قُتِلَ عثمان يوم ١٨ ذي الحجة عام ٣٥هـ.. وانتهت حرب الجمل، التي سبقتها حروب صغيرة أخرى، يوم ١٥ جمادى الآخرة، عام ٣٦هـ. (أنظر: عائشة والسياسة).

(٢) أنظر: الطبري ٣/٤٥٢-٤٥٦.

((مَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ جَبْهَةَ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابَهُ وَأَقْلَّ عِتَابَهُ وَكَانَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ وَأَرْفَقَ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةٌ غَضِبَ فَأَتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَفَقَتَلُوهُ وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ وَعَالِمُونَ أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ فَاسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ...)).

إذن! ماهي الأسباب الفعلية لتمرّد طلحة والزبير على علي؟ يروي أحد المصادر أن الزبير كان يطمح في ولاية العراق، وطلحة في ولاية اليمن، فلما أرسل علي الولاية ولم يكن لهما حظ في الولاية نقما عليه، وتكلما في شأنه، فاستأذنا عليًا في الخروج إلى مكة لأداء العمرة، ولكنه لم يخف عليه أمرهما، فقال لهما: والله ما العمرة تريدان!

إذن! فقد كانت المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان ستارًا يخفون تحته أغراضهم في الحكم والسلطان وانتزاع الخلافة من علي^(١).

كذلك، تروي الأخبار والسير، أنه من أسباب ثورة الزبير وطلحة على علي عليه السلام عودته إلى شرع العدالة بين المسلمين، الذي أقر زمن خلافة أبي بكر، ونقضه عمر وسار عثمان على درب عمر، بلغ في معارضتهم لقرار العدالة هذا حد نقضهم بيعتهم لعلي عليه السلام، وإعلان الحرب عليه تحت ستار الطلب بدم عثمان، على حين كانوا هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان؟!...

وحين سألهما علي: ما الذي كرهتهما من أمري حتى رأيتما خلافي؟!... قالوا: خلافاً لك عمر بن الخطاب في القسم.. قال علي... لقد وجدت رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به فأجاب الزبير في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان

(١) النص لمحمد النجار من كتاب (علي بن أبي طالب) ص ٨٧-٨٨. بالنسبة لمسألة الولاية، أنظر: الطبري ١٥٣/٥، اليعقوبي ١٢٧/٢، ابن أعثم ص ١٦٦، ابن كثير ٢٢٧/٧.

حتى قتل، فلما بلغ بنا مابلغ، أراد. جعل فوقنا من كنا فوقه^(١).
كان لب السلطة أثر كبير في نفسيهما (ففي الطريق إلى حرب الجمل، كان طلحة
والزبير يتصارعان على رئاسة المجموعة بصورة اختلافهما أيهما يصلي بالناس، ثم يتفقان
بعد خطوب علي أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً^(٢)).
وعلى ذلك علق معاذ بن جبل، فقال والله لو ظفرنا لافتتنا ما خلى الزبير بين طلحة
والأمر، وما خلى طلحة بين الزبير والأمر يعني الخلافة^(٣).

(١) النص لمحمد عمارة من كتاب (علي بن أبي طالب) ص ٣١. من أجل مسألة القسم، أنظر: فتوح ابن
الأعثم ٢/٢٤٨، شرح النهج ٧/٤١-٤٢؟
(٢) طه حسين، علي وبنوه ٢/٣٧.
(٣) عائشة والسياسة ص ١٠٣.

الأشتر النخعي

الحديث عن الأشتر النخعي كأحد رؤوس الفتنة أصبح فيما بعد سياسة متبعة وتاريخاً يسيطره المؤرخون الموالون لبني أمية فمن هو مالك الأشتر؟

جاء في سير أعلام النبلاء عن الأشتر النخعي أنه ملك العرب، مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال المذكورين. حدث عن عمر، وخالد بن الوليد، وفقئت عينه يوم اليرموك. وكان شهماً مطاعاً زعراً، ألب الناس على عثمان وقتله، وكان ذا فصاحة وبلاغة. شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، وكاد يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة يدعون إلى كتاب الله.

وما أمكنه مخالفة علي. فكف. ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الأشتر والياً على مصر، فاستشهد في الطريق مسموماً... ولما بلغ علي نعيه، قال: إنا لله، مالك، وما مالك! وهل موجود مثل ذلك! لو كان حديداً لكان قعيداً، ولو كان حجراً لكان صليداً، علي مثله فلتبك البواكي^(١).

وقال عنه ابن الزبير التقيت مع الأشتر يوم الجمل، فما ضربته حتى ضربني خمساً أو ستاً، ثم جرّ برجلي فألقاني بالخندق، وقال: والله لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما اجتمع فيك عضو إلى عضو^(٢).

(١) ٣٥-٣٤/٤

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٠١، أنظر أيضاً: عائشة والسياسة ص ٢٠٤.

عبد الله بن سبأ: خرافية الشخص وأزلية الرمز!

في معرض حديث الكثير من الكتاب السنة وبالذات الوهابيين، عن محرك الخيوط في حرب كبار الصحابة في الجمل يذكرون عبد الله بن سبأ!! فمن هو عبد الله بن سبأ هذا؟ وماهي أهمية الدراسة الموضوعية لهذه الشخصية، في هذا الزمن بالذات؟

عبد الله بن سبأ، يهودي عبر عنه بابن السوداء أحياناً. أظهر الإسلام كما تصوره الروايات، في عصر عثمان ليؤكد المسلمين فتنقل في الحواضر الإسلامية، مصر، والشام، والكوفة، والبصرة، مبشراً برجعة النبي وأن علياً هو وصيه وأن عثمان غاصب حق هذا الوصي، فمال إليه وتبعه جماعات من كبار الصحابة والتابعين من أمثال عمار بن ياسر، وأبي ذر، ومحمد بن أبي حذيفة، وغيرهم؛ واستطاع أن يجيش الجيوش لقتل الخليفة عثمان حتى قتلوه في داره. وهكذا تتسلسل الحوادث حتى تنتهي إلى حرب الجمل، ويظهر وسيط للصلح اسمه القعقاع بن عمر ويقوم بالسفارة للصلح بين علي وعائشة وطلحة والزبير حتى إذا تم أمر المعسكرين على الصلح ورأى السبأيون أتباع عبد الله بن سبأ؛ ذلك خافوا على أنفسهم من مغبة هذا الصلح، فاجتمعوا سرّاً في سواد الليل يتشاورون فأوعز إليهم رئيسهم بطل القصة ابن سبأ أن يندسوا بين الجيشين، فيهجم من اندس منهم في جيش علي على جيش عائشة، ومن اندس منهم في جيش عائشة يهاجم جيش علي، ويثيروا الحرب فجأة، فراقت لهم الخطة، ونفذوها في غلس الليل دون علم علي وعائشة. وهكذا أنشبت الحرب خلافاً لرغبة قادة الجيشين. وهكذا وقعت حرب الجمل^(١).

إن أهمية معالجة البعد التاريخي لهذه الشخصية التي سنبين لاحقاً أنها خرافية تكمن فيما يلي:

١- إن نفي أي وجود تاريخي فعلي لشخص ابن سبأ سينفي حتماً عن مجموعة من الصحابة والتابعين كونهم شرذمة يقودها هذا الفرد اليهودي، مثل أبي ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر والأشتر النخعي.

(١) مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين ص ٢٧٢-٢٧٣.

٢ - هذا النفي ينفي أيضاً عن كبار صحابة النبي، وهم زوجته وابن عمه وابن عمته وابن عم زوجته، أن يكونوا مجرد شخصيات مخدوعة تحركها خيوط تنتهي بأصابع فرد يهودي أوحده؛ وتحملهم مسؤولية أخطاء حرب الجمل وتحميلهم المسؤولية قضية واقعية فهم الناكثون بحسب روايات النبي صلوات الله عليه وآله، والكثير من الرسالات الإلهية شهدت صراعات داخلية نتيجة الانحرافات التي تحصل بعد موت الأنبياء.

٣ - إن عبد الله بن سبأ (شيطان) حرب الجمل، الشخص الخرافي، ما يزال رمزنا الأزلي، في معالجة أخطائنا. وذلك عوضاً عن المناقشة الموضوعية للأسباب والنتائج. وهكذا، منذ حرب الجمل مروراً بحرب الخليج، وإلى ما شاء الله، سنظل نقع في المشاكل الصعبة، مادام عبد الله بن سبأ في خدمتنا دائماً - وإن بأسماء مختلفة.

مناقشة الحقيقة التاريخية لابن سبأ:

ظهرت كتب كثيرة تحدثت عن عبد الله بن سبأ. وقد اعتمدت غالبيتها الساحقة الرأي التقليدي حول دور هذا الشخص في يوم الدار وحرب الجمل لكن عمليين^(١) انفراداً في معالجة دقيقة، موضوعية، لحقيقة هذا الشخص تاريخياً، وحللاً بشكل تفصيلي تناقض الروايات بشأنه، وتوصلاً بالتالي إلى دحض أي وجود فعلي لهذا الشخص وهذه الشخصية الخرافية هو صنعة الراوي سيف بن عمر وهو مقدوح في عدالته وفي صحة روايته.

قال النسائي في سيف: متروك الحديث، ليس بثقة ولا مأمون.

(١) العمل الأول: عبد الله بن سبأ، المدخل. تأليف مرتضى العسكري، العميد السابق لكلية أصول الدين في بغداد، ط. القاهرة، ١٣٨١ هـ.. وعبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: طبعة ثانية منقحة ومضافة من مجلدين. بيروت ١٩٩١.

العمل الثاني: عبد الله بن سبأ، تأليف د. عبد العزيز صالح الهلالي، من قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، الجزيرة العربية. نشر جامعة الكويت ١٩٨٧.

وقال فيه أبو داوود: ليس بشيء، كذاب.

وقال الفيروزآبادي: صاحب توالييف.

ونقل ابن عبد البر عن أبي حيان، قوله: سيف متروك، وإنما حديثه للمعرفة .

وقال عنه بروكلمان: كان يحرف الأحاديث، يعظم بعضها ويحقر بعضها، ولكنه كان

يحسن الوصف والبيان فاغتر الطبري بذلك، واختار كتبه مصدرًا أصيلاً في تاريخه لما روى من الوقائع في أوائل الإسلام.

وتبع الطبري^(١) المتأخرون أما عطية فهو عطية بن الحارث الهمداني. ولهذا الرجل

سمعة طيبة عند أصحاب كتب الجرح^(٢) والتعديل عدا ابن حزم، الذي قال عنه محدث ضعيف لكن رويت عنه بعض الإسرائيليات^(٣).

من جهة أخرى، يزيد الفقعسي رجل نكرة، لا يوجد له غير خمس روايات في

الطبري، وليس له ذكر في معظم كتب الجرح والتعديل أو التراجم.

(١) تاريخ الأدب العربي ٧٣/٣.

(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٣.

(٣) أنظر: تاريخ الطبري ٩٢/٤ - ٩٣.

أثر الانحراف بعد موت النبي في خلق العراقيل في وجه الإمام

أقصى الإمام علي عليه السلام عن قيادة الأمة ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، رغم التوجيهات الكثيرة والترتيبات التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يضمن أن تسير الأمور كما يريد الله سبحانه وتعالى وكما يريد هو صلى الله عليه وآله وسلم ورغم أن الإمام عليًا عليه السلام كان المهياً والأكفأ لها من كل الاتجاهات وبكل المقاييس إلا أن الأمة ارتكبت خطأ فادحًا بحقها وبحق الأجيال اللاحقة ما زال العالم يعيش آثاره إلى الآن.

الإمام يوضح حقيقة ما حصل:

الخطبة المسماة بـ((الشقشقية)) هي من خطب الإمام عليه السلام التي بين فيها بوضوح حقيقة ما جرى ملخصًا ما جرى منذ عهد أبي بكر إلى أن وصل الأمر إلى عثمان والتي يقول فيها:

((أما والله لقد تَقَمَّصَهَا^(١) ابن أبي قحافة، وإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحْيِيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ^(٢) دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا^(٣)، وَطَفِقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَذَاءٍ^(٤)، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةٍ^(٥) عُمِيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجَى^(٦)، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَيٌّ، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا^(٧)، أَرَى تَرَاثِي^(٨)

(١) تَقَمَّصَهَا: لبسها كالقميص.

(٢) سَدَلْتُ الثَّوْبَ: أَرخاه.

(٣) طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا: مَالَ عَنْهَا.

(٤) الْجَذَاءُ - بِالْجِيمِ وَالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ - : المَقْطُوعَةُ.

(٥) طَخِيَّةٌ - بَطَاءٌ فِجَاءٌ بَعْدَهَا يَاءٌ، وَيَثَلُّتُ أَوْلَاهَا - : ظَلْمَةٌ.

(٦) أَحَجَى: أَلْزَمَ، مِنْ حَجَّيَ بِهِ كَرَضِي: أَوْلَعَ بِهِ وَكَزِمَهُ.

(٧) الشَّجَا: مَا اعْتَرَضَ فِي الْحَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ.

(٨) التَّرَاثُ: الْمِيرَاثُ.

مَهْبًا، حَتَّى مَضَى الْأَوَّلَ لِسَبِيلِهِ، فَأَذَلَّ بِهَا ^(١) إِلَى فَلَانٍ بَعْدَهُ. ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعَشِيِّ:
شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا ^(٢) وَيَوْمُ حَيَّانِ أَخِي جَابِرٍ

فِيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا ^(٣) فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ - لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا
ضَرَعِيهَا (٤)! - فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمَهَا ^(٥)، وَيَحْشُنُ مَسْهَا، وَيَكْثُرُ
الْعِثَارُ ^(٦) [فِيهَا] وَالْأَعْتَادَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَائِبِ الصَّعْبَةِ ^(٧)، إِنْ أَشْنَقَ ^(٨) هَا خَرَمَ ^(٩)،
وَإِنْ أَسْلَسَ ^(١٠) هَا تَقَحَّمَ ^(١١)، فَمُنِّيَ النَّاسُ ^(١٢) - لَعَمْرُ اللَّهِ - بِحَبْطِ ^(١٣) وَشِمَاسِ ^(١٤)،
وَتَلَوْنٍ وَاعْتِرَاضِ ^(١٥).

فَصَبَّرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ
زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ. فَيَا لِلَّهِ وَلِلشُّورَى ^(١٦)! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى
صِرْتُ أَقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ^(١٧)؟! لَكِنِّي أَسْفَفْتُ ^(١٨) إِذْ أَسْفُؤُوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا،

(١) أذَّلَّ بِهَا: ألقى بها.

(٢) الكُور - بالضم - : الرَّحْلُ أَوْ هُوَ مَعَ أَدَاتِهِ.

(٣) يَسْتَقِيلُهَا: يَطْلُبُ إِعْفَاءَ مِنْهَا.

(٤) تَشَطَّرَا ضَرَعِيهَا: اقْتَسَمَهَا فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهَا شَطْرًا، وَالضَّرْعُ لِلنَّاقَةِ كَالثَدِيِّ لِلْمَرْأَةِ.

(٥) كَلْمُهَا: جَرَحُهَا، كَأَنَّهُ يَقُولُ: خَشُونَتَهَا تَجْرَحُ جَرَحًا غَلِيظًا.

(٦) الْعِثَارُ: السَّقُوطُ وَالْكَبُوءَةُ.

(٧) الصَّعْبَةُ مِنَ الْإِبِلِ: مَا لَيْسَتْ بِذَكُورٍ.

(٨) أَشْنَقَ الْبَعِيرَ وَشَنَقَهُ: كَفَهُ بِزَمَامِهِ حَتَّى أَلْصَقَ ذُفْرَاهُ (العظم الناتئ خلف الأذن) بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ.

(٩) خَرَمَ: قَطَعَ.

(١٠) أَسْلَسَ: أَرَخَى.

(١١) تَقَحَّمَ: رَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْقَحْمَةِ أَوْ فِي الْهَلَكَةِ.

(١٢) مُنِّيَ النَّاسُ: ابْتَلَوْا وَأَصَابُوا.

(١٣) حَبْطٌ: سَبْرٌ عَلَى غَيْرِ هَدًى.

(١٤) الشَّمَّاسُ - بِالْكَسْرِ - : إِبَاءُ ظَهْرِ الْفَرَسِ عَنِ الرُّكُوبِ.

(١٥) الْإِعْتِرَاضُ: السَّيْرُ عَلَى غَيْرِ خُطِّ مُسْتَقِيمٍ، كَأَنَّهُ يَسِيرُ عَرَضًا فِي حَالِ سَيْرِهِ طَوِيلًا.

(١٦) أَصْلُ الشُّورَى: الْإِسْتِشَارَةُ، وَفِي ذِكْرِهَا هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى السِّتَةِ الَّذِينَ عَيْبَتْهُمْ عَمْرٌ لِيَخْتَارُوا أَحَدَهُمْ

لِلْخَلَافَةِ.

(١٧) النَّظَائِرُ: جَمْعُ نَظِيرٍ أَوْ الْمَشَابِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا دُونَهُ.

(١٨) أَسْفَ الطَّائِرُ: دَنَا مِنَ الْأَرْضِ.

فَصَغَى (١) رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ (٢)، وَمَالَ الْآخِرُ لِصِهرِهِ، مَعَ هِنٍ وَهِنٍ (٣).
إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجًا حِضْنِيهِ (٤) بَيْنَ نَثِيلِهِ (٥) وَمُعْتَلَفِيهِ (٦)، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ
يُحْضِمُونَ (٧) مَالَ اللَّهِ حَضْمَ الْإِبِلِ نَبْتَهُ (٨) الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ انْتَكَتْ عَلَيْهِ فَتْلُهُ (٩)، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ
عَمَلُهُ (١٠)، وَكَبَّتْ (١١) بِهِ بَطْنَتَهُ (١٢).

فَمَا رَاعِنِي إِلَّا وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبْعِ (١٣)، يَنْتَالُونَ (١٤) عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى
لَقَدْ وُطِيَءَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ (١٥)، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ (١٦).
فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَّثَتْ طَائِفَةٌ (١٧)، وَمَرَقَتْ أُخْرَى (١٨)، وَفَسَقَ [وقسط]
آخَرُونَ (١٩) كَمَا تَهُمُّ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا
يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٢٠)، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا

(١) صَغَى صَغِيًا وَصَغَا صَغَوًا: مَالٌ.

(٢) الضُّغْنُ: الضُّغِينَةُ وَالْحَقْدُ.

(٣) مَعَ هِنٍ وَهِنٍ: أَي أَعْرَاضٍ أُخْرَى أَكْرَهَ ذَكَرَهَا.

(٤) نَافِجًا حِضْنِيهِ: رَافِعًا لَهَا، وَالْحِضْنُ: مَا بَيْنَ الْإِبْطِ وَالْكَشْحِ، يُقَالُ لِلْمُتَكَبِّرِ: جَاءَ نَافِجًا حِضْنِيهِ.

(٥) النَّثِيلُ: الرَّوْثُ وَقَدْرُ الدَّوَابِّ.

(٦) الْمُعْتَلَفُ: مَوْضِعُ الْعَلْفِ.

(٧) الْحَضْمُ: أَكَلَ الشَّيْءَ الرَّطْبَ.

(٨) النَّبْتُةُ - بِكسْرِ النونِ - : كَالنَّبَاتِ فِي مَعْنَاهَا.

(٩) انْتَكَتْ عَلَيْهِ فَتْلُهُ: انْتَقَضَ.

(١٠) أَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ: تَمَّ قَتْلَهُ.

(١١) كَبَّتْ بِهِ: مِنْ كَبَا بِهِ الْجَوَادُ: إِذَا سَقَطَ لَوَجْهَهُ.

(١٢) الْبَطْنَةُ - بِالْكَسْرِ - : الْبَطْرُ وَالْأَشْرُ وَالْتَحْمَةُ.

(١٣) عُرْفُ الضَّبْعِ: مَا كَثُرَ عَلَى عُنُقِهَا مِنَ الشَّعْرِ، وَهُوَ ثَخِينٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الْكثْرَةِ وَالْإِزْدِحَامِ.

(١٤) يَنْتَالُونَ: يَتَّبِعُونَ مُزْدَحِمِينَ.

(١٥) شُقَّ عِطْفَايَ: خُدِشَ جَانِبَاهُ مِنَ الْإِصْطِكَالِكِ.

(١٦) رَبِيضَةُ الْغَنَمِ: الطَّائِفَةُ الرَّابِضَةُ مِنَ الْغَنَمِ.

(١٧) نَكَّثَتْ طَائِفَةٌ: نَقَضَتْ عَهْدَهَا، وَأَرَادَ بِتِلْكَ الطَّائِفَةِ الْنَاكِثَةَ أَصْحَابَ الْجَمَلِ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ خَاصَّةً.

(١٨) مَرَقَتْ: خَرَجَتْ، وَفِي الْمَعْنَى الدِّينِيَّةِ: فَسَقَتْ، وَأَرَادَ بِتِلْكَ الطَّائِفَةِ الْمَارِقَةَ الْخَوَارِجَ أَصْحَابَ النَّهْرَوَانَ.

(١٩) قَسَطَ آخَرُونَ: جَارَوْا، وَأَرَادَ بِالْجَائِرِينَ أَصْحَابَ صَفِينِ.

(٢٠) سُورَةُ الْقَصَصِ: الْآيَةُ/ ٨٣.

وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتَ الدُّنْيَا^(١) فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَأَقَهُمْ زَبْرُجَهَا^(٢)! أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ^(٣)، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ^(٤)، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ^(٥)، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُوا^(٦) عَلَى كِطَّةٍ^(٧) ظَالِمٍ، وَلَا سَعْبٍ^(٨) مَظْلُومٍ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا^(٩)، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِهَا، وَلَا لَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنزٍ^(١٠)!!).

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد^(١١) عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتابًا، فأقبل ينظر فيه، فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو اطَّردتَ مقالتك^(١٢) من حيث أفصيت^(١٣)! فقال عليه السلام: هَيْهَاتَ يَا بَنَ عَبَّاسُ! تِلْكَ شُقْشِقَةٌ^(١٤) هَدَرْتُ^(١٥) ثُمَّ قَرَّتْ^(١٦)! قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على ذلك الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد^(١٧).

(١) حَلَيْتَ الدنيا: من حليت المرأة إذا تزيت بحليها.

(٢) الزَّبْرُجُ: الزينة من وشي أو جوهر.

(٣) النَّسْمَةُ - محركة - : الروح وهي في البشر أرجح، وبرأها: خلقها.

(٤) أراد ((بالحاضر)) هنا: من حضر لبيعته.

(٥) أراد ((بالناصر)) هنا: الجيش الذي يستعين به على إلزام الخارجين بالدخول في البيعة الصحيحة.

(٦) أَلَا يُقَارُوا: ألا يوافقوا مُقَرِّين.

(٧) الكِطَّةُ: ما يعترى الآكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استثثار الظالم بالحقوق.

(٨) السَّعْبُ: شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوقه.

(٩) الغارب: الكاهل، والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر.

(١٠) عَفْطَةُ العنز: ما تنثره من أنفها. وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة وإن كان الأشهر في الاستعمال

((النَّفْطَةُ)) بالنون.

(١١) السَّوَادُ: العراق، وسُمِّي سوادًا لخضرتة بالزرع والأشجار، والعرب تسمي الأخضر أسود.

(١٢) اطَّردتَ مقالتك: أتبعَتَ بمقالة أخرى، من أطراد النهر إذا تتابع جريه.

(١٣) أفصيت: أصل أفضى: خرج إلى الفضاء، والمراد هنا سكوت الإمام عما كان يريد قوله.

(١٤) الشُقْشِقَةُ - بكسر فسكون فكسر - : شيء كالتَّهَّجُ يخرج البعير من فيه إذا هاج.

(١٥) هَدَرْتُ: أطلقت صوتًا كصوت البعير عند إخراج الشُقْشِقَةِ من فيه، ونسبة الهدير إليها نسبة إلى الآلة.

(١٦) قَرَّتْ: سكنت وهدأت.

(١٧) نهج البلاغة / ١ / ٥٠.

وهكذا جربت الأمة ولياً لأمرها غير من اختاره الله ورسوله، إلا أنها وبعد أن ذاقت وبال أمرها وجنت ثمرة ابتعادها عن قرين القرآن ها هي تعود مرة أخرى إلى الشخص الذي هو محط إجلال وإكبار الناس جميعاً الذي لم ولن تكون بيعته فلتة.. إنه الإمام علي عليه السلام ألم يتجهوا إليه كلهم بعد ما قُتل عثمان، حتى وطئوا ابنه الحسن والحسين لشدة ازدحامهم حوله؟! اتجهوا كلهم إليه من بعد يبايعونه جميعاً؛ لأنه لا أحد يشك في أن علي بن أبي طالب ليس أهلاً للولاية وأن بيده الحلول التي ستنقذ الأمة مما قد وصلت إليه.

كانت صحوة متأخرة صحوة ولكن بعد تلك المدة الطويلة، بعدما يقرب من خمسة وعشرين عامًا بعد أن تغيرت الأمة وتغيرت النفوس وقُدِّمت ثقافة أخرى للأمة واختلطت الأمور والمفاهيم.

وهكذا تحت ضغط الجماهير، وإلحاح المسؤولية يعود الإمام علي عليه السلام إلى العمل السياسي وتحمل مسؤولية القيادة بعد أن أقصي طوال فترة حكم الخلفاء الثلاثة، ولكن مع وجود فرق شاسع على ما كان عليه الوضع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد مرور تلك الفترة؛ فالأجواء قد تغيرت، والنفوس قد ألفت أسلوباً آخر ينسجم مع أهوائهم وأطماعهم، ولم تعد الأمة واحدة كما تركها النبي بل أصبحت متعددة الأهواء وتتجاوزها مجموعة قوى نفوذ جديدة، واستعادت بعض القوى التقليدية الجاهلية السابقة نفوذها من جديد.

تدافع الناس إلى الإمام عليه السلام يبايعونه بالخلافة وفي مقدمتهم زعماء المهاجرين والأنصار، وهم يعلمون بأن أبا الحسن سيحملهم على المحجة البيضاء مهما كانت الظروف والأوضاع، وبات المسلمون في انتظار منهج الإمام في الحكم ومعالجته للأوضاع الشاذة.. وإن كان لا يخفى عليهم سيرة الإمام التي ما حادت عن الحق قيد أنملة، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((عليٌّ مع الحق والحق مع علي)).

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية وتحت عنوان: وهرمُّ اجتماعي مقلوب أراد أن يعدله..

((وكان لا بد أن ينعكس ذلك على البنيان الاجتماعي فقد أصبح في قمته بنو أمية وهم من الطلقاء الذين أسلموا متأخرين، وفي سفحه الأنصار الذين رضوا أن تكون الخلافة في قريش، ثم رضوا بأن تستأثر قريش بولاية الأنصار وامتلاك الأرض والمال، ولم يشاركهم في أسفل السلم الاقتصادي إلا الشعوب المغلوبة من أصحاب الأقطار المفتوحة، لقد عملوا بنصيحة رسول الله أن يصبروا إذ سيلقون أثراً حتى يَرِدُوا عَلَيَّ الحوض. هذا هو البنيان المختل الذي ورثه علي، فأراد أن يقوّمه فاستنكر عليه سادة قريش عزمه على الإصلاح، بينما التف حوله الأنصار والمستضعفون في الأرض ومن آثروا دينهم على دنياهم. وما عسى أن يكون الأمر لو استقرت هذه الحال، إلا أن تكون حال الدولة الإسلامية كحال سائر الإمبراطوريات حيث الحكم للقوة وحيث يتسلط الغالبون على المغلوبين ويغتصبون أرضهم ويستعمرون خططهم)).

وتحت عنوان: ووضعٌ سياسيٌّ معوج أراد أن يقوّمه يقول: ((ولم يكن الوضع السياسي بأقل خللاً إذ كان ولاية الأمصار في عهد عثمان - وهم سبب الفتنة وثورة الناس - من أقاربه حتى أصبحت العصية سافرة، ومن ثم فقد عمل عليٌّ منذ اليوم الأول لخلافته على حسم مسألة الولاية في غير هوادة))^(١).

وفي اليوم الثاني من البيعة أُعلن بأن الإمام سيخطب في الناس ويبسط منهاجه.. وضاق المسجد بالمسلمين وهدأت الأصوات، واعتلى عليٌّ المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

((أيها الناس إنما أنا رجلٌ منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذٌ فيكم ما أمرتُ به. ألا إن كل قطيعةٍ أقطعها عثمان، وكل مالٍ أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال.. فإن الحق لا يبطله شيءٌ، ولو وجدته قد تزوّج به

(١) الزيدية، ص ٤٦.

النساء وملكت الإماء، وفرق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيّق.

أيها الناس: ألا لا يقولن رجالاً منكم غداً قد غمّرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة- إذا منعتمهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون-: حرّما ابن أبي طالب حقوقنا..

ألا وأيها رجلٍ من المهاجرين من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله وثوابه وأجره على الله..

ألا وأيها رجلٍ استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحدٍ على أحد وللمتقين عند الله أحسن الجزاء...)).

وهكذا رسم الإمام الخطوط العريضة في سياسته المالية في الحكم هذه السياسة التي أطاحت ومزقت النفوس الجشعة المريضة التي كانت تتلاعب بأموال المسلمين فكانت كافية أن تنبذ هذه السياسة تلك الفئة، وتجعلها في وجه إمام الحق و.. إنها سياسة قائمة على العدالة المتكافئة التي يتعايش في ظلها المسلمون سواءً بسواء.

وعندما طلب منه التخفيف في سياسته المالية أجاب:

((أأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه؟ والله لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف والمال مال الله.. ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذيرٌ وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة))^(١).

(١) نهج البلاغة / ١ / ١٨٤.

حال الأمة التي قادها الإمام علي عليه السلام

عندما أقصي علي عليه السلام وأقصي معه القرآن قدمت البدائل المغلوطة إلى درجة رهيبة جداً إلى درجة أنه غاب عن الأمة كيف كان يصلي رسول الله (صلوات الله عليه وآله) كما أكد ذلك مطرف بن عبد الله وهو يبين حجم ما كانت قد وصلت إليه الأمة حيث قال: ((صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب عليه السلام فلما انصرفنا أخذ عمران بن حصين بيدي فقال: لقد صلى صلاة محمد صلى الله عليه وآله ولقد ذكرني صلاة محمد (صلوات الله عليه)).

ولذلك تحولت الساحة إلى ساحة لا تقبل بالعظماء بل تقتلهم هذه الساحة وهذه الأمة التي هي ضحية لما حصل من تغير وانحراف خلال الفترة الماضية هي الساحة وهي الأمة التي ورثها الإمام علي عليه السلام وعانى منها الأمرين؛ وقد أشار هو عليه السلام إلى فساد الوضعية عندما ألحوا عليه بأن ينهض ويتحرك واقتحموا عليه داره لبيعته، أكد لهم بأن الأمور لم تعد كما كانت عليه في عهد رسول الله (صلوات الله عليه وآله) وبعد وفاته ومما قال: ((دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا عَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَالْوَأَنَ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَعَامَتِ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَعَالَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْفَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ))^(١).

وقد رأينا من خلال خطبته (الشَّقْشِقِيَّة) كيف لخص الوضعية السابقة للأمة، وكيف صارت الأمور بعد مقتل عثمان؛ فرغم اجماع الأمة على بيعته الإمام علي عليه السلام إلا أنه عندما نهض بالأمر في تلك المرحلة شَهَرَتِ السُّيُوفُ في وجه دولته العادلة، وسُفِكَتِ الدماء، وأزهقت النفوس، ودارت رحى الحرب أكثر من مرة على أيدي فئات كانت قد آثرت الحياة الدنيا على الآخرة.

(١) نهج البلاغة ١/١٣٦.

لقد وصلت الأمة إلى مستوى خطير، تمثل في التمرد على قرين القرآن، وخدين الحق، وباب مدينة العلم، من قبل الناكثين في معركة الجمل، ثم من قبل المارقين في معركة النهروان، ثم من قبل القاسطين الفاسقين في معركة صفين.

علي في طريقه إلى الشام، وحرب صفين:

لما انتهت فتنة الجمل استعدَّ الإمام إلى حرب معاوية، فوجد حماساً وتجاوباً من أهل الكوفة، فقد كان قسم كبير منهم قد اشتركوا معه في معركة الجمل، وهم الآن يريدون أن يضيفوا نصراً جديداً للإسلام.

ثم إنَّ الإمام وقبل حرب صفين قد أرسل إلى معاوية السفراء والكتب يدعوهم إلى الطاعة والدخول فيما دخل المسلمون من قبله، لكنَّه لم يستجب لطلبه، بل أظهر الشدة والصلافة في ردِّه على رسائل الإمام، واختار القتال على الصلح والمسالمة.

في هذه الأثناء تجهَّز معاوية بجيشٍ ضخمٍ واتَّجه به صوب العراق، ولما بلغ أمير المؤمنين خبره جهَّز جيشه، واتَّجه نحو الزحف، ليقطع عليهم الدخول إلى أرض العراق، لما في ذلك من قتل ونهب وفساد كبير.. فكان من ذلك حرب صفين، وبالشعار السابق نفسه: ((دم عثمان))!

فتمردوا وأعدُّوا العدة لمحاربة إمام المتقين.. فهم لم يخرجوا في طلب الثأر لعثمان، بل كان خروجهم ضدَّ الإمام، وضدَّ الإسلام كلِّه، والثأر لأنفسهم، ونرى ذلك واضحاً من كلام ابن العاص مع معاوية على الشعار المزيف، حيث قال عمرو بن العاص لمعاوية:

واسوأناه! إنَّ أحقَّ الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت!

قال معاوية: ولمَّ ويحك؟!

قال: أمَّا أنت فخذلته ومعك أهل الشام! وأمَّا أنا فتركته عياناً وهربت إلى فلسطين!

وقال له: أما والله، إن قاتلنا معك نطلب دم الخليفة، إنَّ في النفس ما فيها، حيث نقاتل مَنْ تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكننا أردنا هذه الدنيا^(١)!! فأَيُّ مَكْرٍ هذا الذي رأيناه من كلامها؟! على مثل ذلك أعدُّوا العدة لمحاربة الخليفة الجديد، فهؤلاء هم القاسطون الذين كرهوا خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

ووصل الإمام إلى صفين في ذي القعدة، وابتدأت الحرب في أوَّل ذي الحجة سنة ٣٦هـ، وحصلت الهدنة في المحرم سنة ٣٧هـ، واستؤنف القتال في أوَّل صفر، وانتهى في ١٣ منه^(٢)، وعسكر الإمام بالنخيلة، وعقد لواءه لغلامه قنبر.

ونزل معاوية بمن معه في وادي صفين، وأخذ شريعة الفرات، وجعلها في حيزه، وبعث عليها أبا الأعور السلمي يحميها ويمنعها.. وبعث أمير المؤمنين صعصعة بن صوحان إلى معاوية، يسأله أن يخلِّي بين الناس والماء، فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فبعضهم قال: امنعهم الماء، كما منعه ابن عفان، اقتلهم عطشاً قتلهم الله، لكنَّ عمرو بن العاص حاول أن يقنع معاوية بأن يخلِّي بين القوم وبين الماء، فرجع صعصعة فأخبره بما كان، وأنَّ معاوية قال: سيأتيكم رأيي، فسرَّب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء.

ولمَّا سمع عليٌّ عليه السلام ذلك قال: ((قاتلوهم على الماء))، فأرسل كتائب من عسكره، فتقاتلوا واشتدَّ القتال، واستبسَل أصحاب الإمام أشدَّ استبسالٍ، حتى خلَّوا بينهم وبين الماء، وصار في أيدي أصحاب عليّ عليه السلام.

فقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام!

فأرسل عليٌّ عليه السلام إلى أصحابه أن: ((خذوا من الماء حاجتكم وخلُّوا عنهم، فإنَّ الله نصركم بغيِّهم وظلمهم))^(٣).

بهذا الخلق الكريم عامل أمير المؤمنين عليه السلام أشدَّ مناوئيه..

ثمَّ دعا عليٌّ عليه السلام جماعة من قادة جنده، فقال لهم: ((اتنوا هذا الرجل وادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة)).

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣/ ١٦٣ - ١٧٢، تاريخ يعقوبي ٢/ ١٨٤ - ١٨٦، شرح نهج البلاغة ٢/ ٦٢ - ٦٦.

(٢) فضائل الإمام عليّ: ١٤٢.

(٣) أنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ١٦٧، وسير أعلام النبلاء (.) : ٢٦٧ مختصراً.

ففعّلوا ما أمرهم به، لكنّ معاوية قال لهم بعد أن سمع كلامهم: انصرفوا من عندي، فليس بيني وبينكم إلا السيف، وغضب القوم، وخرجوا، فأتوا علياً عليه السلام فأخبروه بذلك.

واحتدم القتال بين الطرفين، فاقتتلوا يومهم كلّه قتالاً شديداً لم يشهد له تاريخ الحروب مثيلاً، ثمّ تقدّم الإمام عليّ عليه السلام بمن معه يتقدّمهم عمّار بن ياسر، ولما برز لعمر بن العاص قال عمّار: ((لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرّات، وهذه الرابعة ما هي بأبرّ وأنقى))^(١) يعني: راية معاوية.

وقال حبة بن جوين العرني: قلت لحذيفة بن اليمان: حدّثنا فإننا نخاف الفتنة.

فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابن سُميَّة، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((تقتله الفئة الباغية الناكبة (الناكثة) عن الطريق، وإنّ آخر رزقه ضياح من لبن))، وهو الممزوج بالماء من اللبن، قال حبة: فشهدته يوم قُتل وهو يقول: اتئوني بأخر رزق لي في الدنيا، فأُتي بضياح من لبن في قده أروح له حلقة حمراء - فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة - فقال:

اليوم ألقى الأحبّة محمّداً وحزبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر؛ لعلمت أنّنا على الحقّ وأنهم على الباطل، ثم قُتل^(٢) رضي الله عنه وأرضاه..

وقد تضعضع الكثيرون من أتباع ابن أبي سفيان لموقف عمّار، لأنّ مقولة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه لم تكن خافية على أحدٍ من الناس: ((فطوبى لعّمّار تقتله الفئة الباغية، عمّار مع الحقّ يدور معه كيفما دار)) وهذا كلّ من دلائل نبوة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان ذو الكلاع قد سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعّمّار بن ياسر: ((تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربةٍ تشرّبها ضياح من لبن))، فكان ذو الكلاع يقول لعمر: ما هذا ويحك يا عمرو؟ فيقول عمرو: إنّه سيرجع إلينا.

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ١٨٧ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٥.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ ٣/ ١٦٣ - ١٧٢، تاريخ يعقوبي ٢/ ١٨٤ - ١٨٦، شرح نهج البلاغة ٢/ ٦٢ - ٦٦.

فُقُتِلَ ذُو الْكَلَّاعِ قَبْلَ عَمَّارٍ مَعَ مَعَاوِيَةَ، وَأُصِيبَ عَمَّارٌ بَعْدَهُ مَعَ عَلِيٍّ عليه السلام.
فَقَالَ عَمْرُو لِمَعَاوِيَةَ: مَا أُدْرِي بِقَتْلِ أَيُّهُمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا، بِقَتْلِ عَمَّارٍ أَوْ بِقَتْلِ ذِي الْكَلَّاعِ؟ وَاللَّهِ لَوْ بَقِيَ ذُو الْكَلَّاعِ بَعْدَ قَتْلِ عَمَّارٍ لَمَالَ بَعَامَّةُ أَهْلِ الشَّامِ إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام ^(١)، فَأَشْرَقَ وَجْهَ مَعَاوِيَةَ لِذَلِكَ!

وَلَمَّا قُتِلَ عَمَّارٌ، قَالَ عَلِيٌّ لِرَبِيعَةَ وَهَمْدَانَ: ((أَنْتُمْ دَرْعِي وَرَمْحِي)) فَانْتَدَبَ لَهُ نَحْوَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ عليه السلام وَتَقَدَّمَ مَعَهُ عَلِيٌّ عَلَى بَغْلَةٍ، فَحَمَلُوا مَعَهُ حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَهْلِ الشَّامِ صَفٌّ إِلَّا انْتَقَضَ، وَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ انْتَهَوْا إِلَيْهِ.. حَتَّى رَأَوْا الظَّفَرَ.

وَاسْتَمَرَ الْقِتَالُ لَيْلَةً كَامِلَةً حَتَّى الصَّبَاحِ. فَتَطَاعَنُوا حَتَّى تَقَصَّصَتْ الرِّمَاحُ، وَتَرَامَوْا حَتَّى نَفَدَ النَّبْلِ، وَكَانَ الْأَشْرَفُ فِي الْمَيْمَنَةِ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْمِيسِرَةِ وَعَلِيٌّ عليه السلام فِي الْقَلْبِ، وَالنَّاسُ يَقْتَتِلُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى أَصْبَحُوا وَالْمَعْرَكَةُ خَلْفَ أَظْهَرِهِمْ.

رَفَعَ الْمَصَاحِفَ.. ((كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ)):

لَمَّا رَأَى عَمْرُو أَنَّ أُمَّرَ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَدْ اشْتَدَّ وَخَافَ الْهَلَاكَ، قَالَ لِمَعَاوِيَةَ: هَلْ لَكَ فِي أَمْرِ أَعْرَضَهُ عَلَيْكَ، لَا يَزِيدُنَا إِلَّا اجْتِمَاعًا، وَلَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا فَرَقَةً؟
قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: نَرَفَعُ الْمَصَاحِفَ، ثُمَّ نَقُولُ: هَذَا حَكْمٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.

فَرَفَعُوا الْمَصَاحِفَ بِالرِّمَاحِ وَقَالُوا: هَذَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَنْ لَثَعُورَ الشَّامِ بَعْدَ أَهْلِهِ؟ مَنْ لَثَعُورَ الْعِرَاقِ بَعْدَ أَهْلِهِ؟

فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ قَالُوا: نَجِيبٌ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ عليه السلام: ((عِبَادَ اللَّهِ امْضُوا عَلَى حَقِّكُمْ وَصَدَقْتُمْ وَقِتَالِ عَدُوِّكُمْ، فَإِنَّ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرًا وَابْنَ أَبِي مَعِيْطٍ وَحَبِيبًا وَابْنَ أَبِي سَرْحٍ وَالضُّحَّاكَ لَيْسُوا بِأَصْحَابِ دِينٍ

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ١٨٨.

ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً ثمَّ رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعةً ووهناً ومكيدةً)).

فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله!

فقال لهم عليٌّ عليه السلام: ((فإني إنَّما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنَّهم قد عصوا الله فيما أمره ونسوا عهده ونبذوا كتابه)).

فقال له جماعة من المسلمين، الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليُّ، أجب إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ إذا دُعيت إليه، والا دفعناك برمَّتكَ إلى القوم، أو نفعلك بك ما فعلنا بابن عفَّان!

قال: ((فاحفظوا عني إياكم، واحفظوا مقالتيكم لي، فإن تطيعوا فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم))^(١).

لم تكن بينهم وبين معاوية إلا بضعة أمتار، فلولا وقوع هؤلاء في الفخ الذي نصبه معاوية لاستطاع الإمام عليه السلام أن يسيطر على الموقف ويستأصل رأس الفتن، ولكنَّ مسألة التحكيم غيرت مجرى الأمور إلى أسوأ حال، فحالت دون تحقيق الهدف المشود، وقُدِّر لهذه المؤامرة أن تنجح وأن تجرَّ وراءها المصائب والويلات!

ثمَّ قالوا للإمام: ابعث إلى الأشتر فليأتك، فرجع الأشتر مغضباً بعدما أوشك على النصر، فأقبل إليهم الأشتر، وقال: يا أهل العراق! يا أهل الذلِّ والوهن! أحين علوتم القوم وظنُّوا أنَّكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه؟ فأمهلوني فواقاً، فإنِّي قد أحسستُ الفتح^(٢).

لكنَّهم أبوا إلا التحكيم!

(١) أنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ١٩٢ - ١٩٣، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٤ مختصراً.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٣١٧ - ٣١٨.

وجعل أهل الشام عمرو بن العاص على التحكيم، وأراد الإمام عليه السلام أن يجعل عبدالله بن عباس، لكنهم أبوا إلا أبا موسى الأشعري، ولما رأى أنه لا تنفع معهم حجة حكّمه على مريض!

وحضر عمرو بن العاص عند علي عليه السلام ليكتب القضية بحضوره، فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضا عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وأمّا أميرنا فلا. فقال الأحنف: لا تمحُ اسم إمارة أمير المؤمنين، فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليه أبداً، فلا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ذلك علي عليه السلام ملياً من النهار.

ثم إن الأشعث بن قيس قال: امحُ هذا الاسم، فمُحِي، فقال علي: ((الله أكبر! سنة بسنة، والله إنني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الحديبية فكتبت: محمد رسول الله، وقالوا: لست برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمحوه، فقلت: لا أستطيع، فقال: أرنيه، فأريته، فمحاها بيده، وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب)).

فقال عمرو: سبحان الله! أتشبهنا بالكفار ونحن مؤمنون!

فقال علي عليه السلام: ((يا ابن النابغة، ومتى لم تكن للفاسقين ولياً، وللمؤمنين عدواً؟))

فقال عمرو: والله، لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبداً.

فقال علي عليه السلام: ((إني لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك))^(١)..

وتمت كتابة الكتاب بجعل كتاب الله الحاكم في كل الأمور، وما لم يجد في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.. وأجل القضاء إلى رمضان.

ولما انتهت مسألة التحكيم، قال نفرٌ من أصحاب الإمام: كيف تُحكّمون الرجال في دين الله؟! لا حكم إلا لله، وكانوا يعترضون الإمام في خطبته بشعارهم ((لا حكم إلا

(١) الكامل في التاريخ (انظر تفصيل الكتاب) ٣/ ١٩٥، وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨١.

لله)) لذلك سُمُوا بالمحَكِّمَة. فكانوا ما يقارب اثني عشر ألفاً.. فنزلوا في ناحية يُقال لها:
(حروراء)) لأجلها سُمُوا بالحرورية..

فحاججهم الإمام عليه السلام بقوله الأوَّل قبل التحكيم، ثُمَّ قال لهم: ((قد اشترطتُ على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، ويُميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن عن حكمهما براء)).

قالوا: أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟

قال: ((إننا لسنا حَكَمْنَا الرجال، إنَّما حَكَمْنَا القرآن، وهذا القرآن إنَّما هو خطُّ مسطور بين دفتين لا ينطق، إنَّما يتكلَّم به الرجال))^(١) ثُمَّ رجعوا مع الإمام عليه السلام.

فلَمَّا التقى الحكمان: أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وخُذِع أبو موسى؛ إذ مكر به عمرو، قال له: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسْنُ مني فتكلَّم، وأراد عمرو بذلك كلَّه أن يقدِّمه في خلع عليٍّ، قال له: نخلع عليّاً ومعاوية معاً، ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فتقدَّم أبو موسى فأعلن على الملاء الحاضرين أنَّه قد خلع عليّاً من الخلافة ثُمَّ تنحَّى. وأقبل عمرو فقام، وقال: إنَّ هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية!^(٢) فدُهِش أبو موسى وشم عمرو وشمته عمرو، وانفضَّ التحكيم عن هذه النتيجة!

والتمس المسلمون أبا موسى فهرب إلى مكَّة، ثُمَّ انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسَلَّموا عليه بالخلافة.

مع هذه النتيجة عاد عليٌّ عليه السلام يعمل على إعادة نظم جيشه، استعداداً لمرحلة جديدة من الحروب مع أهل الغدر، ولكن فتناً جديدة نجمت بين أصحابه ستمنع من انطلاقة صوب أهدافه..

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٢٠٣.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٠ - ٢٧١.

قام يوماً خطيباً بين أصحابه، فقام إليه رجل من أولئك ((المحكّمه)) فقال: لا حكم إلا لله! ثمّ توالى عدّة رجال يحكّمون. فقال عليّ عليه السلام: ((الله أكبر، كلمة حقّ أُريد بها باطل! أما إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفياء مادامت أيديكم في أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأوا، وإنّما نتّبع فيكم أمر الله))^(١)..

بهذه الأخلاق النبيلة تعامل الإمام مع المارقين، ورغم ذلك فقد مضوا على غيهم، فاعتزلوا بقيادة عبدالرحمن بن وهب الراسبي، ثمّ خرجوا من الكوفة.

فبايع المسلمون الإمام عليّاً عليه السلام وقالوا: ((نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت)) فشرط فيهم سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وجاء دور صاحب راية خثعم، ربيعة بن أبي شداد فقال له: ((بايع على كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم))، فأبى بأن يبايع إلا على سنّة أبي بكر وعمر! فقال له عليّ عليه السلام حين ألحّ عليه: تبايع؟ قال: لا، إلا على ما ذكرتُ لك.

فقال له الإمام: ((أما والله، لكأني بك قد نفرت في هذه الفتنة، وكأني بحوافر خيلي قد شدخت وجهك!!)) قال قبيصة: فرأيته يوم النهروان قتيلاً قد وطأت الخيل وجهه وشدخت رأسه ومثّلت به، فذكرت قول عليّ، وقلت: لله درّ أبي الحسن، ما حرّك شفّتيه قط بشيءٍ إلا كان كذلك!^(٢)

وكان همّ الإمام عليه السلام في العود إلى محاربة معاوية، فعبأ جنده، لكنّه وبعد ذلك كلّه لم يترك ((المحكّمه)) فكتب إليهم كتاباً جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن وهب الراسبي ويزيد بن الحصين ومن قبلهما: سلام عليكم، وبعد، فإنّ الرجلين اللذين ارتضيتاهما للحكومة خالفا كتاب الله واتّبعها، هوأهما بغير هدىً من الله، فلمّا لم يعملّا بالسنّة ولم يحكما بالقرآن تبرّأنا من حكمهما،

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٢١٢ - ٢١٣، البداية والنهاية ٧/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) الإمامة والسياسة ١/ ١٢٣.

ونحن على أمرنا الأوَّل، فأقبلوا إليَّ رحمكم الله، فإنَّا سائرون إلى عدوِّنا وعدوِّكم لنعود لمحاربتهم، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين)).

وردُّوا على هذا الخطاب الحكيم المتَّزن بخطابٍ ينمُّ عن شدَّة تعسُّفهم وردِّهم المارق، فكتبوا إليه: ((فإن شهدت على نفسك أنَّك كفرت في ما كان من تحكيمك الحكيم، واستأنفت التوبة والإيمان، نظرنا في مسألتن الرجوع إليك، وإن تكن الأخرى فإنَّنا ننازلك على سواء، إنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين))^(١).

فلما يئس منهم تحرَّك بجيشه صوب الشام، حتى بلغ منطقةً في أعالي الفرات تُدعى ((عانات)) فأتته أخبار فضيعة عن الخوارج، إذ أصبحوا يعترضون الناس فيقتلونهم دون أدنى ذنب، إلا لأئمهم لم يتبرَّأوا من عليٍّ ولم يكفُّروه لما حدث! حتى أئمهم أقبلوا أخيراً إلى قتل عبدالله بن خباب بن الأرت الصحابي الشهير، وقتلوا معه امرأته وبقروا بطنها وهي حامل، وقتلوا عدَّة نساء، وبثُّوا الرعب في الناس.

فبعث إليهم أمير المؤمنين الحارث بن مرَّة العبدي ليأتيه بخبرهم، فأخذه فقتلوه^(٢). فتمخَّضت تلك الأحداث عن معركة النهروان الشهيرة..

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٢١٦، الأخبار الطوال: ٢٠٦.

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ٢١٩، البداية والنهاية ٧/ ٣١٨-٣١٩.

حرب النهروان

المعروفة بوقعة الخوارج، وحصلت الوقعة سنة ٣٧هـ.

لَمَّا بَلَغَ عَلِيًّا عليه السلام قَتْلَ ((المَحْكَمَةَ)) لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ وَعَاتَرَضَهُمُ النَّاسَ، وَقَتَلَهُمْ مَبْعُوثَ الْإِمَامِ إِلَيْهِمْ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ مَعَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامٌ نَدَعُ هَؤُلَاءِ وَرَاءَنَا نَخْلِفُونَنَا فِي عِيَالِنَا وَأَمْوَالِنَا؟ سَرَبْنَا إِلَى الْقَوْمِ، فَإِذَا فَرَعْنَا مِنْهُمْ سَرَبْنَا إِلَى عَدُوِّنَا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

فَرَجَعَ عليه السلام بِجَنْدِهِ الَّذِينَ ذَعَرُوا عَلَى أَهْلِيهِمْ مِنْ خَطَرِ الْخَوَارِجِ، وَالتَقَتِ الْفِتْنَانِ فِي النَّهْرَوَانِ، فَلَمْ يَبْدَأْهُمُ الْإِمَامُ عليه السلام بِحَرْبٍ، حَتَّى دَعَاهُمْ إِلَى الْحِجَّةِ وَالْبِرْهَانِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ ابْنَ عَبَّاسٍ أَمَامَهُ، فَنَظَرَهُمْ بِالْحِجَّةِ وَالْمَنْطِقِ السَّلِيمِ، لَكِنَّهُمْ أَصْرُّوا عَلَى الْعَمَى وَالطَّغْيَانِ! ثُمَّ تَقَدَّمَ الْإِمَامُ عليه السلام، وَذَكَرَهُمْ نَهْيَهُ عَنْ قَبُولِ التَّحْكِيمِ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِمْ حِجَّةٌ، وَحَتَّى رَجَعَ أَكْثَرُهُمْ وَتَابَ، وَتَمَنَّ رَجْعَ يَوْمِ ذَلِكَ إِلَى رَشْدِهِ: عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْكَوَّاءِ أَمِيرَ الصَّلَاةِ فِيهِمْ^(١). وَأَبَى بَعْضُهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ!!

وَتَعَبَا الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ جَاءَتِ الْأَنْبَاءُ أَنَّ الْخَوَارِجَ قَدْ عَبَرُوا الْجِسْرَ، فَقَالَ عليه السلام: ((وَاللَّهِ مَا عَبَرُوا، وَلَا يَقْطَعُونَهُ، وَإِنَّ مِصَارِعَهُمْ لَدُونَ الْجِسْرِ))، ثُمَّ تَرَادَفَتِ الْأَخْبَارُ بِعُبُورِهِمْ وَهُوَ عليه السلام يَحْلِفُ أَنَّهُمْ لَنْ يَعْبرُوهُ وَأَنَّهُ ((وَاللَّهِ لَا يَفْلُتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ!!) فَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام، فَأَدْرَكَوهُمْ دُونَ النَّهْرِ، فَكَبَّرُوا، فَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: ((وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ))^(٢).

وَكَانَ عَلِيُّ عليه السلام قَدْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: كُفُّوا عَنْهُمْ حَتَّى يَبْدَأُواكُمْ، فَتَنَادَوْا: الرُّوْحَ إِلَى الْجَنَّةِ! وَحَمَلُوا عَلَى النَّاسِ^(٣). وَاسْتَعْرَتِ الْحَرْبُ، وَاسْتَبَسَلَ أَصْحَابُ الْإِمَامِ عليه السلام

(١) أنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ٣٤٣، تاريخ يعقوبي ٢/ ١٩١ - ١٩٣، البداية والنهاية ٧/ ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٩، الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣.

(٣) الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣.

استبسلاً ليس له نظير، فلم ينبج من الخوارج إلا ثمانية فرّوا هنا وهناك، ولم يُقتل من أصحاب الإمام عليه السلام غير تسعة، وقيل: سبعة^(١).

وانجلت الحرب بانجلاء الخوارج وهلاكهم، وقد روى جماعة أن علياً عليه السلام كان يحدث أصحابه قبل ظهور الخوارج، أن قوماً يخرجون ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، علامتهم رجل مُحْدَج اليد، سمعوا ذلك منه مراراً^(٢).

فقال الإمام عليه السلام: ((اطلبوا ذي الثدية))، فقال بعضهم: ما نجده، وقال آخرون: ما هو فيهم، وهو يقول: ((والله إنّه لفيهم! والله ما كذبت ولا كُذبت)) وانطلق معهم يفتشون عنه بين القتلى حتى عثروا عليه، ورأوه كما وصفه لهم، قال: ((الله أكبر، ما كذبت ولا كُذبت، لولا أن تنكلوا عن العمل لأخبرتكم بما قصّ الله على لسان نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم لمن قاتلهم، مستبصراً في قتالهم، عارفاً للحقّ الذي نحن عليه))^(٣).

وقال عليه السلام حين مرّ بهم وهم صرعى: ((بؤساً لكم! لقد ضرّكم من غرّكم))!
قالوا: يا أمير المؤمنين من غرّهم؟

قال: ((الشيطان وأنفس أمّارة بالسوء، غرّتهم بالأمان، وزيّنت لهم المعاصي، ونبأتهم أنّهم ظاهرون))^(٤).

فقالوا: الحمد لله - يا أمير المؤمنين - الذي قطع دابرهم، فقال عليه السلام: ((كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء))^(٥)!

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣- ٢٢٦، البداية والنهاية ٧/ ٣٢٠.

(٢) أنظر أخبار المحدث في: إعلام الوري ١/ ٣٣٨- ٣٣٩، الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٢- ٢٢٣.

(٣) أنظر قصّة مقتل ذي الثدية في: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٢- ٢٢٣، البداية والنهاية ٧/ ٣٢٠، سير

أعلام النبلاء (٠): ٢٨٢، وأخرج مسلم ٣/ ١١٦.

(٤) الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ٦٠.

الإيمان الناقص وجنائته على الأمة

ما حصل من انخداع جزء من أتباع الإمام علي عليه السلام برفع المصاحف هي نتيجة طبيعية لضعف الوعي والإيمان يقول الشهيد القائد (هي حالات يخلقها - أحياناً - ضعف وعي ممن ينطلقون للعمل، وإن كانوا تحت راية علي عليه السلام ويحملون اسم جند الله، وأنصار الله لكن وعيهم، لكن إيمانهم القاصر، إيمانهم الناقص أدى إلى أن يرتكبوا جناية على الأمة فضيعة.

أولئك [الخوارج]، الخوارج هم مجموعة من جند الإمام علي عليه السلام انشقوا عنه في أيام [صفين] بعد أن رفع معاوية وأصحابه المصاحف عندما أحسوا بالهزيمة وقالوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فأولئك المتعبدون على جهل، الجنود الذين هم غير واعين تأثروا بتلك الدعاية! وهكذا سيحصل في كل عصر لأي فئة وإن انطلقوا تحت اسم أنهم جنود الله، وأنصار الله، إذا ما كان إيمانهم ناقصاً، سيجنون على العمل الذي انطلقوا فيه، سيجنون على الأمة التي يتحركون في أوساطها، سيجنون على الأجيال من بعدهم، وهم من انطلقوا باسم أنهم يريدون أن ينصروا الله، وأن يكونوا من جنده لكن إيمانهم ناقص، ووعيهم ناقص.

إذا كان ولا بد كما هو الحال بالنسبة لواقعنا والأمة في مواجهة صريحة مع اليهود والنصارى، مع أمريكا وإسرائيل ونحن في زمن التضليل فيه بلغ ذروته في أساليبه الماكرة، في وسائله الخبيثة، في خداعه الشديد، فإن المواجهة تتطلب جنداً يكونون على مستوى عال من الوعي. زين العابدين عليه السلام صاغ صحيفته بشكل دروس، في الوقت الذي هي دعاء، دروس وتوجيهات، دروس وتوجيهات وحقائق، صاغها بشكل دعاء.

هو من عرف ماذا صنع ذلك الإيمان الناقص، أولئك الجند الذين ينقصهم الكثير من الوعي، أيام جده علي بن أبي طالب، أيام الحسين بن علي، أيام الحسن، وأيام الحسين، كان أمامه تاريخ رأى فيه ما تركه الإيمان الناقص من أثر سيء، الجهل قلة البصيرة، ضعف البصيرة، عدم الوعي.

أتظنون أن انتصار الدولة الأموية، وتمكنها لتقهر الآخرين، ثم تمكنها لأن تصنع أمة أخرى غير الأمة التي أراد محمد صلى الله عليه وآله أن يبينها من ذلك الزمان إلى الآن؟. أنه فقط قوتهم، بل تحاذل من هم يحملون اسم جند الحق، قلة إيمانهم، ضعف إيمانهم، ضعف وعيهم. لماذا انتهت معركة صفين دون هزيمة معاوية، وقد كانت مؤشرات الهزيمة بدأت؟ عندما تحاذل أولئك الجنود من صف الإمام علي وتحت رايته.

لماذا وقد تحرك الإمام الحسن ليوصل المسيرة، مسيرة والده الإمام علي فأل الحال إلى أن يقف مقهوراً ويأخذ ما يمكن من الشروط لتأمين مجتمع أهل العراق، عندما تحاذل أصحابه. الإمام الحسين آلت قضيته إلى أن يقتل في كربلاء، بسبب ماذا؟. تحاذل أصحابه، التحاذل الذي يصنعه ضعف الإيـمان، قلة اليقين، انعدام الوعي.

وكان الإمام علي عليه السلام يحذّر، وعندما كان يحذر كان يوجه تحذيره إلى جيشه، إلى أصحابه، وليس إلى أولئك إلى جيش معاوية، يقول لأهل العراق: ((والله إني لأخشى أن يدال هؤلاء القوم منكم لاجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم)). كان جيش معاوية يجتمعون تحت رايته لكن أصحاب الإمام علي كانوا يتخاذلون ويتناقلون، والتفرق قائم بينهم، لا يتحركون إلا بعد عناء وتعب شديد وتحريض مستمر.

ما الذي جعلهم على هذا النحو؟ هو قلة إيمانهم فلهذا كان زين العابدين عليه السلام يوم صاغ هذا الدعاء [دعاء مكارم الأخلاق] صدره بهذه الفقرة المهمة ((اللهم بلغ بإيماني أكمل الإيمان)) فأنا رأيت ما عمله في الأمة، ما عمله في الإسلام ضعف الإيمان، ما عمله الإيمان الناقص من آثار سيئة، عدم وعي إلى درجة رهيبة أن يكون أولئك الناس الذي بينهم علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، لكنهم كانوا عندما يرون أنفسهم لا يخافون علياً يأمنون جانبه، كان يكثر شقاقهم، ونفاقهم، وكلامهم، ومخالفاتهم، وتحليلاتهم وتمردهم، وأذيتهم.

هكذا يعمل الناس الذين وعيهم قليل، من لا يعرفون الرجال، من لا يقدرون القادة المهمين، لأنني أنا آمن جانب علي لا أخاف أن يقتلني على التهمة أو الظنة كما كان

يعمل معاوية، لا أخاف أن يدبر لي اغتيالاً، لا أخاف أن يصنع لي مشاكل، لا أخاف أن يوجد لي خصوماً يصنعهم من هنا أو من هنا فكانوا يأمنون جانبه.

وفعلاً من الذي سيخاف من الإمام علي أن يمكر به، أو يخدعه، أو يضره، أو يؤلب عليه خصوماً من هنا وهناك، كما يعمل الكثير من [المشايع]؟ أليس الكثير من المشايخ يعملون هكذا؟ إذا لم تسر في طريقه يحاول أن يمسك عليك بعض وثائقك [بعض البصائر] ويحاول أن يوجد لك غريباً من هناك وغريباً من هنا؛ لترجع إليه راغماً، الناس الذين وعيهم قاصر، إيمانهم ضعيف هم الذين يعيشون حالة كهذه، كلام كثير وتحدي وتحليلات وتناقل وتثبيط، وهم في ظل شخص عظيم كعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأنهم يأمنونه.

انظر إلى شخص ذلك القائد العظيم، سترى نفسك آمنًا في ظله، إذاً هو الشخص الذي يجب أن أكون وفيًا معه، إن حالة الشعور نحوه بأمني آمن جانبه يعني أنه رجل عدل، رجل إيمان، رجل حكمة، فهذا هو الذي يجب أن أفي معه أن أقف بجانبه وأن أضحي تحت رايته بنفسي ومالي، هي الحالة التي لا يحصل عليها أتباع الطواغيت حتى أبناءهم، حتى أسرهم، حتى أقرب المقرين إليهم لا يحصلون على هذه الحالة؛ لأنه يعرف ربما ابنه يخدعه، يمكر به ويأخذ السلطة، ربما قائده ذلك العظيم يخدعه ويمكر به ويأخذ السلطة، فهو يخطط له في الوقت الذي هو ينفذ مهامه، القائد يخاف، وهو يخاف، المستشار خائف منه، وهو خائف من مستشاره، هكذا، ومن يعرف الدول هكذا يكون حالهم.

الدول الطاغوتية هكذا يكون حال الناس فيها، وهكذا يخاف الناس حتى وهم يعملون لله. أليس هذا هو ما يحصل؟ في البلاد الإسلامية على طولها وعرضها، من هو ذلك المؤمن الذي يقول كلمة حق وهو لا يخاف، يخاف أولئك الذين هم من كان يجب أن يصدعوا بالحق، وأن يعلوا رأس هذه الأمة، وأن يرفعوا رايتهما؟! لكن هكذا يصنع ضعف الإيمان. فمتى ما جاء لأهل العراق كصدام كالحجاج انقادوا وخضعوا

وتجاوبوا وخرجوا بنصف كلمة، نصف كلمة يصدرها فيتجاوبون سريعاً!

لكن الإمام علياً عليه السلام كان يقول: ((قاتلكم الله يا أهل العراق لقد ملأتم صدري قيحاً)) وكان يوبخهم ((يا أشباه الرجال ولا رجال)) يوبخهم، لا يخرجون ولا يتحركون، إلا بعد الخطب البليغة، والكلمات الجزلة، والكلمات المعاتبة، والكلمات الموبخة، والكلمات المتوعدة بسخط الله، والمتوعدة بسوء العاقبة في الدنيا حتى يخرجوا، فإذا ما خرجوا خرجوا متثاقلين؛ لأنهم كانوا يأمنون جانبه.

هل هذا هو السلوك الصحيح لأمة يقودها مثل علي؟ ثم إذا ما قادها مثل الحجاج ومثل يزيد ومثل صدام تنقاد ويكفيها نصف كلمة!. ما هذا إلا ضعف الإيمان، ضعف الوعي، عدم البصيرة.

في ذلك الوقت الذي كانت تثير تلك الحالة دهشة القليل من أصحاب الإمام علي عليه السلام، الذين كانوا يعرفون عظمة ذلك الرجل، ثم يندهشون وهم ينظرون إلى تلك المجاميع الكثيرة الشقاق والنفاق والتشبث والتراخي والكلمة المفسدة المثبطة من أطرف منافق فيهم تحطمهم وتجعلهم يتقاعدون، كان هناك مجموعة لكنها كانت قليلة.

وهل أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن يعمل على أن يصنع لدى الآخرين بصيرة، بل كانت خطبه خطب مهمة جداً، خطب مهمة جداً قادرة على أن تحول الرجال إلى كتل من الحديد، لكنهم أولئك الذين كانوا لا يفتحون آذانهم.

هذه هي مشكلة الناس، مشكلة الناس في كل زمان، في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في أيام الإمام علي عليه السلام، في كل زمان، الذين لا يفتحون آذانهم لا يمكن أن يؤثر فيهم أي شيء، هم الذين يعجزون القرآن، ويعجزون محمداً، ويعجزون علياً، ويعجزون كل أولياء الله، يجعلونهم عاجزين أمامهم، الذين لا يفتحون آذانهم، أو يفتحونها فترة ثم يضعون لأنفسهم خطأ معيناً ويرون بأنهم قد اكتفوا، هؤلاء هم من تكثر جنائتهم على الأمة، وعلى الدين جيلاً بعد جيل.

ونحن نحذر دائما من أن يضع الإنسان لنفسه خطأ فإذا ما رأى بأن ظروف المعيشة هيأته إلى أن يتفرغ أكثر من جانب من جوانب العبادة كالصلاة مثلا كما يستمع موعظة هنا وموعظة هناك مرة أو مرتين ثم يقول: الحمد لله اكتفيت!.

تأتي المتغيرات، وتأتي الأحداث، ويأتي الضلال، والخداع والتلبس بالشكل الذي ستكون ضحيته أنت، يكاد أن يأخذ حتى بأولئك الكاملين، بعض المتغيرات، وبعض الأحداث، وبعض وسائل التضليل، وأساليب الخداع تكاد أن تحدع الكبار، أولئك الذين يدعون دائما ((وبلغ بإيماننا أكمل الإيمان)).

ألم يذكر القرآن الكريم عن خداع بني إسرائيل، عن خداع اليهود أنهم كادوا أن يضلوا رسول الله؟ كادوا أن يضلوه لولا فضل الله عليه ورحمته، أولئك الناس الذين كانوا يجاهدون تحت رايته ألم يكونوا يتعرضون للتثبيط فيتحاذلون من جانب المنافقين، وهم من يسمعون كلام رسول الله (صلوات الله عليه وآله)؟.

هكذا إذا أنت لم ترب نفسك، إذا أنت لم تنم إيمانك ووعيك، فإن المنافقين هم من ينمون نفاقهم، هم من يطورون أساليبهم حتى يصبحوا مرده، يصبحوا خطيرين قادرين على التأثير، قادرين على ضرب النفوس، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَدُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(١) من خبثهم استطاعوا أن يستروا أنفسهم حتى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، استطاعوا أن يستروا أنفسهم حتى عن بقية الناس، أنهم منافقون، ثم تنطلق منهم عبارات التشييط، عبارات الخذلان فيؤثرون على هذا وعلى هذا، وعلى هذا، تأثيرا كبيرا، هؤلاء مرده، كيف أصبحوا مرده؟.

لأنهم هم من يطورون أساليب نفاقهم، من ينمون القدرات النفاقية داخل أنفسهم، فأنت يا من أنت جندي تريد أن تكون من أنصار الله، ومن أنصار دينه في عصر بلغ فيه النفاق ذروته، بلغ فيه الضلال والإضلال قمته يجب أن تطور إيمانك، أن تعمل على الرفع من مستوى وعيك.

(١) سورة التوبة: الآية/ ١٠١.

فإذا لم يكن الناس إلى مستوى أن يتبخر النفاق أمامهم، أن يتبخر التضليل أمامهم فإنهم هم قبل أعدائهم من سيجنون على أنفسهم وعلى الدين، وعلى الأمة، كما فعل السابقون، كما فعل أولئك الذين كانوا في ظل راية الإمام علي، وفي ظل راية الحسن، وفي ظل راية الحسين، وفي ظل راية زيد عليه السلام.

كان الإمام زيد عليه السلام يقول: ((البصيرة، البصيرة))، يقول في ذلك القرن في مطلع القرن الثاني: ((البصيرة، البصيرة)) يدعو أصحابه إلى أن يتحلوا بالوعي، ألم ينهزم الكثير ممن خرجوا معه؟ ألم يتفرقوا عنه؟ لأنهم كانوا ضعفاء البصيرة، كانوا ضعفاء الإيمان، كانوا قليلي الوعي، أدى إلى أن يستشهد قائدهم العظيم، أدى إلى أن تستحكم دولة بني أمية من جديد.

رأينا ماذا عملوا، جنوا على الأمة من جديد، فتحملوا أوزار من بعدهم، وهكذا، الهزيمة في مجال العمل لله، ضعف البصيرة في مجال العمل لله، ضعف الإيمان في مجال العمل لله قد يجعلك تترك أثرا سيئا تتحمل فيه أوزار الأمة، وأوزار الأجيال من بعدك، ليست قضية سهلة، خطورة بالغة، خطورة بالغة هي أخطر بكثير من تخاذل الطرف الآخر عن بعضهم بعض؛ لهذا رأينا ماذا حصل في أحد - وهو درس مهم - عندما تخاذل أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، عندما بدأوا يتنازعون، بدأ الفشل، بدأ العصيان، وهم تحت قيادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماذا حصل؟ هبئ لهم أن يضربوا بالكافرين فعلا، ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانَ فِي إِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).

لتفهموا أن تخاذلكم ليس سهلا هو جناية على الأمة، جناية على الرسالة، لكن إذا تخاذل جند أبي سفيان هل سيتحمل أولئك المتخاذلون شيئا؟ لا. مطلوب منهم أن يخرجوا عما هم عليه، لكنك أنت متي تخاذلت وأنت تحت راية محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأنت من تهبئ الساحة لأن ينتصر الجانب الآخر جانب الكفر، فستجني على الرسالة، وتجني على البشرية كلها.

(١) سورة آل عمران: الآية/ ١٦٦.

أنا أعتقد أن الفساد في العالم كله، المسلمون الأوائل الذين تخاذلوا، المسلمون الأوائل الذين حرفوا، المسلمون الأوائل الذين قعدوا عن نصر دين الله هم من يتحمل جريمة البشرية كلها؛ لأنهم هم من حالوا دون أن تكون هذه الأمة بمستوى النهوض بمسؤوليتها، فتحمل الرسالة إلى كل بقاع الدنيا. هذا كان هو المطلوب من العرب. لكن أولئك أصحاب الجباه السوداء من طول السجود تحت راية الإمام علي، الذين تحولوا إلى خوارج بجهلهم بغبائهم، لعدم وعيهم.

من الوعي أن تفهم هذه النقطة، من الوعي أن يفهم المؤمنون هذه النقطة الخطيرة: أنه فيما إذا تخاذلت أنا سيكون تخاذلي جنائية على الأمة، جنائية على الأمة في الحاضر والمستقبل، وسأكون أنا من يتحمل أوزار من بعدي، أوزار كل من ضلوا، وفسادهم وضلالهم من بعدي جيلا بعد جيل، أولئك عندما تخاذلوا عن نصر الإمام علي لضعف وعيهم وقلة إيمانهم، مع كثرة ركوعهم وكثرة تلاوتهم للقرآن، هم من حالوا دون أن تسود دولة الإمام علي عليه السلام ويهزم جانب النفاق والتضليل، جانب معاوية.

ماذا لو كانوا من أصحاب الإيثار الكامل وانتصر بهم الإمام علي عليه السلام؟ كيف سيكون واقعهم هم عند الله؟ يكونون عظماء، فيكونون مشاركين لكل إنسان مؤمن يهتدي في هذه الدنيا، لو وقفوا وقفة جادة مع الإمام علي لانتصر الإمام علي، واستطاع أن يغير وجه التاريخ، واستطاع أن يغير هذه الأمة فيردها إلى نفس التربية التي أراد لها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن تربي عليها.

كان هو يقول: ((لو استقرت قدمي في هذه المداحض لغيرت أشياء)) أشياء كانت قد ترسخت خطيرة.. لماذا لم يقفوا معه ليتمكن من تغيير تلك الأشياء، ومن إعادة بناء الأمة على أساس صحيح فيحظوا هم يحظوا بالسبق فيكونوا كالسابقين في بدر، ولكن تخاذلوا لضعف وعيهم، لقلة إيمانهم). في ظلال دعاء مكارم الأخلاق الدرس الأول.

لماذا اختار الإمام القتال وترك أنصاف الحلول؟

الظاهرة الواضحة في الأربع أو الخمس سنوات التي مارس فيها الإمام عليه السلام عملية الحكم هي وإلى أن خر صريعاً في سبيل إقامة عدل الله على الأرض، كان غير مستعد بأي شكل من الأشكال وفي أي صيغة من الصيغ لتقبل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية هذا الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأمة التي كان يرى بكل حرقة وألم إنها تهدر كرامتها وتباع بأرخص ثمن.

هذه الظاهرة الفريدة هي أن الإمام عليه السلام كان حريصاً كل الحرص على إعطاء العناوين الأولية للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأولي بحسب مصطلح الأصوليين، دون تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابس والظروف.

لماذا لم يرتض الإمام بأنصاف الحلول أو بشيء من المساومة؟

لماذا لم يسكت؟

لماذا لم يُمضِ ولو بصورة مؤقتة الجهاز الفاسد الذي تركه وخلفه عثمان بعد موته؟

لماذا لم يُمضِ الجهاز حتى إذا أطاعه هذا الجهاز واسلم له القيادة بعد ذلك يستطيع

أن يمارس بشكل أقوى واعنف عملية التصفية؟

هذه الظاهرة تسترعي الانتباه من الناحية السياسية:

فقد استرعت انتباه أشخاص معاصرين للإمام عليه السلام واسترعت انتباه أشخاص

حاولوا أن يخللوا ويدرسوا حياة الإمام عليه السلام.

فقد لوحظ على الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام: أن عدم تقبله بأي شكل من

الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كأن يُعقدُ عليه الموقف ويثير أمامه

الصعاب ويرسخ المشاكل ويجعله عاجزاً عن مواجهته لمهمته السياسية والمضي بخط

تجربته إلى حيث يريد.

فمثلاً: ذاك الشخص الذي جاء إليه بعقلية هذه المساومات واقترح عليه إن يبقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام برهة من الزمن قائلاً: إن بإمكانك إبقاء معاوية والياً على الشام برهة من الزمن وهو في هذه الحالة سوف يخضع ويباع وبعد هذا يكون بإمكانك استبداله أو تغييره بأي شخص آخر بعد أن تكون قد استقطبت كل أطراف الدولة وقد تمت لك البيعة والطاعة في كل أرجاء العالم الإسلامي، فاشتر بإبقاء هذا الوالي أو ذلك الوالي، هذا الحاكم أو ذلك الحاكم، بإبقاء هذه الثروات المحرمة في جيب هذا السارق أو في جيب ذلك السارق برهة من الزمن ما دامت الظروف العسكرية والاجتماعية والثقافية وغيرها غير متهيئة، ثم بعد أن تنتهي هذه الظروف يمكنك أن تصفي كل هؤلاء الولاة الفجرة وترجع كل هذه الثروات المحرمة إلى بيت المال.

فالإمام عليه السلام في جواب هذا الشخص، رفض هذا المنطق واستمر في خطه السياسي يرفض كل مساومة ومعاملة من هذا القبيل في مرحلة خلافته لأسباب موضوعية سنأتي عليها، ومن هنا قال معاصروه، وقال غير معاصريه إنه كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً كبيراً، وأن يحقق توفيقاً من الناحية السياسية أكثر، لو أنه قبل أنصاف الحلول، ولو أنه مارس هذا النوع من المساومات ولو بشكل مؤقت، أما لماذا لم يقبل الإمام علي عليه السلام هذه المساومات فلأسباب عديدة نذكر منها التالي:

النقطة الأولى: لا بد من الالتفات إلى أن أمير المؤمنين عليه السلام جاء في أعقاب ثورة، ولم يجرى في حالة اعتيادية، ومعنى ذلك إن البقية الباقية من العواطف الإسلامية، كل هذه العواطف تجمعت، ثم ضغطت، ثم انفجرت في لحظة ارتفاع... وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة أمة، لكي يستطيع أن يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي...

كان لا بد للإمام عليه السلام أن يستثمر لحظة الارتفاع الثورية هذه، لأن المزاج النفسي والروحي وقتئذ لشعوب العالم الإسلامي، لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي الهادئ الساكن لكي يمشي حسب مخطط تدريجي، وإنما كان هو المزاج الثوري الذي استطاع أن يرتفع

إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به، لأنه انحرف عن كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) إذن هذا الارتفاع الذي وجد في لحظة في حياة الأمة الإسلامية لم يكن من الهين إعادته وبعد ذلك كان لا بد للحاكم الذي يستلم زمام المسؤولية في مثل هذه اللحظة أن يعمق هذه اللحظة أن يمدد هذه اللحظة، أن يرسخ المضمون العاطفي والنفسي في هذه اللحظة عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها أمير المؤمنين..

لو أن الإمام علي عليه السلام أبقى الباطل مؤقتاً وأمضى التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل، لو أنه سكت عن معاوية وسكت عن أحزاب أخرى مشابهة لمعاوية بن أبي سفيان إذن لهدأت العاصفة ولأنكمش هذا التيار العاطفي النفسي، وبعد انكماش هذا التيار العاطفي وهدوء تلك العاصفة سوف لن يكون بمقدور الإمام عليه السلام أن يقوم بمثل هذه الإجراءات.

النقطة الثانية: ولا بد أيضاً من الالتفات إلى نقطة هي: أن الإمام عليه السلام، كان حريصاً على أن تدرك الأمة كامة، أن واقع المعركة بينه عليه السلام وبين خصومه، بينه وبين معاوية ليست معركة بين شخصين، بين قائدين، بين قبيلتين، وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية.

كان حريصاً على أن يفهم الناس أن واقع المعركة هو واقع المعركة بين رسول الله (صلى الله عليه وآله) والجاهلية التي حاربتة في بدر وأحد وغيرهما من الغزوات وأن النظام الجاهلي أعيد إنتاجه من جديد تحت ستار الإسلام، وكان هذا الحرص سوف يمنى بنكسة كبيرة لو أنه عليه السلام أقر معاوية، وأقر خلفات عثمان السياسية والمالية، لو أنه أقر هذه المخلفات ولو إلى برهة من الزمن إذن لترسخ في أذهان الناس، وفي أذهان المسلمين بشكل عام شك في أن القضية ليست قضية رسالية وإنما هي قضية أهداف حكم، إذا انسجمت مع واقع هذه المخلفات فتلغي هذه المخلفات ذلك الشك الذي نما عند الأمة في أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من انه لم يكن يوجد له أي مبرر موضوعي وإنما المبرر كانت له مبرراته الذاتية بالرغم من انه لم يكن يوجد أي مبرر موضوعي

لشك، وبالرغم من إن المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً وبالرغم من هذا استفحل هذا الشك وقرر، وامتنحن هذا الإمام العظيم عليه السلام بهذا الشك ومات واستشهد والأمة شاكة... ثم استسلمت الأمة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامة بين يدي الإمام الحسن عليه السلام هذا كله بالرغم من أن الشك لم يكن له مبرر موضوعي فكيف إذا افترضنا أن الشك وجدت له مبررات موضوعية بحسب الصورة الشكلية، ونستطيع أن نقول أن مصر كانت من الحالات الاستثنائية في سياسة الإمام علي عليه السلام، فقد أرسل لها القائد المحنك سياسياً وهو قيس بن سعد الخزرجي ولم يكن الوضع هناك مهياً لعملية الحسم العسكري فكان لا بد من شخصية كقيس ليمارس عملية الاحتواء السياسي وينتقل بالوضع الاجتماعي تدريجياً حتى يصبح وضعاً مهياً لأن يكون حاضنة اجتماعية واعية وقاعدة مستعدة للمواجهة العسكرية، ولكن للأسف الشديد حالة الشك التي كانت مسيطرة على مجتمع الكوفة دفعت بهم للضغط على الإمام علي عليه السلام لاختيار محمد بن أبي بكر بدلا عن سعد، ومحمد بن أبي بكر رغم ولائه الشديد للإمام علي عليه السلام إلا أنه لم يكن يجيد غير لغة الحسم العسكري وهذا مالم يكن قد توفرت الظروف المساعدة على تحقيقه لأسباب موضوعية فكانت النتيجة هي سقوط مصر بيد معاوية ومقتل محمد بن أبي بكر رحمة الله عليه.

كيف لو أن المسلمين رأوا أن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو رمز الأطروحة ورمز الأهداف الرسالية هذا الشخص يساوم ويقبل بأنصاف الحلول ولو مؤقتاً لظروف موضوعية.

كيف يمكن للأمة أن تدرك الفرق بين مساومات مؤقتة وبين مساومات مستمرة كاستراتيجية ثابتة إن المساومة على أي حال طبيعتها هي المساومة وأمير المؤمنين عليه السلام كانت مهمته الكبرى هي أن يحافظ على وجود الأمة على أن لا تتنازل الأمة عن وجودها.

الأمة التي كانت متشبثة بهويتها في عهد رسول الله بشكل بديع ، بدأت تتنازل عن

وجودها أو بتعبير آخر كانت هناك مؤامرات عليها لكي تتنازل عن وجودها، وكان علي بن أبي طالب عليه السلام أن يحافظ على هذه الأمة، ويحصنها ضد أن تتنازل عن وجودها، عملية التنازل عن الوجود كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان، وجذور معاوية في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبر عنه وقتئذ، بأن الإسلام أصبح هرقلية وكسروية الهرقلية والكسروية كان يكتفى بها عن تنازل الأمة عن وجودها، يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإيجاباً، هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا والتي توجت بكل المآسي والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة، وتحجيمها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ...

أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد وقد أدرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل، أن يمدد هذا الوجود المستقل أن يشعر الأمة بأنها ليست سلعة تباع وتشتري، أنها ليست شيئاً يساوم عليها، إذن كيف يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشتري، إذا كان هو يبيعها ويشترها، ولو في عقود قابلة للفسخ؟

كيف يستطيع أن يشعر الأمة بأنها لا تباع ولا تشتري، ليست وفق رغبات السلاطين وليست وفق رغبات الحكام، وإنما تمثل خلافة الله في الأرض، لأجل أن تحقق أهداف هذه الخلافة في الأرض.

كيف يمكن أن يفهم الأمة ذلك إذا كان هو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل أن يسترجع هذه القطاعات بعد ذلك.

بطبيعة الحال كان هذا معناه مواكبة المؤامرة التي كان روح العصر يتفجر أو يتمخض عن مثلها والتي كان أمير المؤمنين عليه السلام واقفاً لأجل أن يحبطها وينقذ الأمة منها، وحينئذ لا يمكن بحال من الأحوال أن نفترض أن الإمام عليه السلام يساهم في حيك هذه المؤامرة.

وهذه المؤامرة هي التي كان يسعى خط السقيفة بالتدريج عامداً أو غير عامد إلى تعميقها إلى إنجاحها في المجتمع الإسلامي.

فلو أن الإمام عليه السلام كان قد مارس أنصاف الحلول، لو كان قد باع الأمة بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ، إذن لكان بهذا قد اشترك في إنجاح وفي سلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها.

كانت الأمة وقتئذ بحاجة كبيرة جداً إلى الوعي العالي لكي تستطيع أن تكون على مستوى مسؤوليات ذلك الموقف العصيب، وعلى مستوى القدرة للتخلص من تبعات هذه المؤامرة وهذا ما لم يتحقق في الأمة رغم محاولات الإمام المستمرة ليرتقي بوعي الأمة.

كان لا بد من أن تشعر بكرامتها بإرادتها، بحريتها، باصالتها، بشخصيتها في المعترك وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الإمام عليه السلام لإنصاف الحلول.

النقطة الثالثة: هي أن علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك، أمير المؤمنين عليه السلام كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه، قد أدركه حيث لا ينفع العلاج ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة.

لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها وإنما كان يفكر على مستوى آخر أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل.

لماذا..؟ لأن الأمة كتب عليها أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف منذ نجحت السقيفة في أهدافها أذن فالإسلام الذي تعطيه السقيفة امتدادها التاريخي هذا الإسلام إسلام مشوه مسموخ إسلام لا يحفظ الصلة العاطفية فضلاً عن الفكرية بين الأمة ككل

وبين الرسالة، بين أشرف رسالات السماء وأشرف أمم الأرض لا يمكن أن يحفظ هذه الصلة العاطفية والروحية بين الأمة الإسلامية وبين الإسلام على أساس هذا الإسلام المعطى لهارون الرشيد، ولعاوية بن أبي سفيان، ولعبد الملك بن مروان، هذا الإسلام لا يمكن أن يحفظ هذه الصلة فكان لا بد لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأمة الإسلامية وبين هذه الرسالة، من إعطاء صورة واضحة محدودة للإسلام وهذه الصورة أعطيت نظرياً على مستوى ثقافة أهل البيت عليهم السلام وأعطيت عملياً على مستوى تجربة الإمام عليه السلام فكان الإمام عليه السلام في تأكيده على العناوين الأولية في التشريع الإسلامي، وفي تأكيده على الخطوط الرئيسية في الصيغة الإسلامية للحياة كان في هذا يريد أن يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن وكان لا بد لكي يتحقق هذا الهدف من أن يعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح.

وهكذا كان وظل الإمام عليه السلام صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة تساهم في صنعها وفي حياكتها على أساس جهلها وعدم وعيها وعدم شعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه عليه السلام في سبيل حماية وجودها من الضياع وحماية كرامتها من أن تتحول إلى سلعة تباع وتشترى حتى خر صريعاً على يد شخص من هذه الأمة التي ضحى في سبيلها. خر صريعاً في المسجد فقال:

فزت ورب الكعبة...

النقطة الرابعة: هي إن الإمام عليه السلام كان بحاجة إلى إنشاء جيش عقائدي في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق، وهذا الجيش العقائدي لم يكن موجوداً بل كان بحاجة إلى تربية وإعداد فكري ونفسي وعاطفي وهذا الإعداد كان يتطلب جواً مسبقاً صالحاً لأن تنشأ فيه بذور هذا الجيش العقائدي. وهذا الجو ما لم يكن جواً جهادياً رسالياً واضحاً، لا يمكن أن تنشأ في أحضانه بذور ذلك الجيش العقائدي، لو افترضنا أن الجو كان جو المساومات وأنصاف الحلول حتى في حالة كون أنصاف

الحلول تكتسب الصفة الشرعية في بعض الظروف حتى في هذه الحالة تفقد الصيغة مدلولها التربوي.

النقطة الخامسة: التي لا بد من الالتفات إليها في هذا المجال هي إن الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان الخليفة من قبله فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أن يستطيع بعد هذا أن يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها.

وفي الواقع إن هذا الفهم لموقف أمير المؤمنين عليه السلام الذي نعرضه في هذه النقطة مرتبط بحقيقة مطلقة تشمل موقف أمير المؤمنين عليه السلام وتشمل أي موقف رسالي عقائدي آخر مشابه لموقف أمير المؤمنين عليه السلام أي موقف آخر يستهدف تغييراً جذرياً أو إصلاحياً حقيقياً في مجتمع أو بيئة أو حوزة أو في أي مجتمع آخر من المجتمعات وهذه الحقيقة المطلقة هي إن كل إصلاح لا يمكن أن ينشأ على يد الأجهزة الفاسدة نفسها التي لا بد أن يطالها التغيير.

فلو افترضنا أن الزعيم المسؤول عن إصلاح تلك البيئة أقر الأجهزة الفاسدة التي يتوقف الإصلاح على إزالتها وعلى تبديدها، لو انه أقر هذه الأجهزة وتعاون معها وأمضاها ولو مؤقتاً، ثم بعد أن اكتسب القوة والمزيد من القدرة، وامتد أفقياً وعمودياً في أبعاد هذه التجربة التي تزعمها، بعد هذا استبدل هذه الركائز بركائز أخرى هذا المنطق منطوق لا يتفق مع طبيعة العمل الاجتماعي ومع طبيعة الأشياء وذلك لان هذا الزعيم من أين سوف يستمد القوة من أين سوف تتسع له القدرة؟ من أين سوف يمتد أفقياً وعمودياً؟

هل تهبط عليه هذه القوة بمعجزة من السماء؟ لا... وإنما سوف يستمد هذه القوة من تلك الركائز نفسها...

أي زعيم في أية بيئة يستمد قوته وتعمق هذه القوة عنده باستمرار. من ركائزه، من

أسسه من أجهزته التي هي قوته التنفيذية التي هي واجهته الأمة على، التي هي تعبيره، التي هي تخطيطه، فإذا افترضنا أن هذه الأجهزة كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطط الإصلاحي إزالتها وتبديلها بأجهزة أخرى، فليس من المعقول أن يقول الزعيم في أية لحظة من اللحظات، وفي أي موقف من المواقف: دع هذه الأجهزة معي دعني اعمل مع هذه الأجهزة حتى امتد حتى اشمخ وبعد أن امتد واشمخ أستطيع أن اقضي على هذه الأجهزة. فإن هذا الشموخ الناتج من هذه الأجهزة لا يمكن أن يقضي على هذه الأجهزة. النتيجة منطقياً مرتبطة بمقدماتها والنتيجة واقعياً مرتبطة أيضاً بركائزها وأسسها، فهذا الشموخ المستمد من ركائز فاسدة، من أجهزة فاسدة، لا يمكن أن يعود مرة أخرى فيتمرد على هذه الأجهزة.

هذا الزعيم حتى لو كان حسن النية، حتى لو كان صادقاً في نيته وفي تصوره سوف يجد في نهاية الطريق أنه عاجز عن التغيير، سوف يجد في نهاية الطريق انه لا يتمكن أن يحقق أهدافه الكبيرة لان الزعيم مهما كان زعيماً، والرئيس مهما كان حاكماً وسلطاناً، لا يغير بيئة بجرة قلم، لا يغير بيئة بإصدار قرار بإصدار أمر، وإنما تتغير البيئة عن طريق الأجهزة التي تنفذ إرادة هذا الزعيم، وتخطيط هذا الزعيم، إذن كيف سوف يستطيع هذا الزعيم أن ينفذ إرادته، أن يحقق أهدافه أن يصل إلى أمله؟

فطبيعة الأشياء وطبيعة العمل التغيير في أي بيئة تفرض على أي زعيم يبدأ هذا العمل أن يبني زعامته بصورة منفصلة عن تلك الأجهزة الفاسدة وهذا ما كان يفرض على الإمام عليه السلام أن لا يمضي مخلفات عثمان الإدارية والسياسية...؟

النقطة السادسة: التي لا بد من الالتفات إليها أيضاً في هذا المجال هي أن الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة التي خلفها عثمان أمضى مثلاً ولاية معاوية بن أبي سفيان وحاكميته على الشام لحصل من ذلك على نقطة قوة مؤقتة.

لو باع الأمة من معاوية بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ إذن لاستطاع بذلك أن يحصل

على نقطة قوة ونقطة القوة هي أن معاوية سوف يبايعه وسوف يبايعه أهل الشام وهذه النقطة نقطة قوة في حساب عملية التغيير لكن في مقابل هذا أيضاً سوف يحصل معاوية بن أبي سفيان، على نقطة قوة كما حصل الإمام عليه السلام على نقطة قوة ونقطة القوة التي سوف يحصل عليها معاوية هي اعتراف الإمام عليه السلام صاحب الأطروحة الجديدة صاحب الخط الإسلامي الآخر المعارض على طول الزمن منذ تشكلت السقيفة بشرعية معاوية بن أبي سفيان بأن معاوية رجل على أقل التقادير يوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة وعلى حماية مصالح المسلمين وعلى رعاية شؤونهم هذا الاعتراف. هو المدلول العرفي الواضح لمثل هذا الإمضاء في الذهنية الإسلامية العامة، فنقطة قوة لمعاوية مقابل نقطة قوة لعلي عليه السلام..

ونحن إذا قارنا بين هاتين النقطتين فسوف لن ننتهي إلى قرار يؤكد أن نقطة القوة التي حصل عليها الإمام عليه السلام هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها الإمام عليه السلام من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية، خاصة إذا التفننا إلى أن تغيير الولاية في داخل الدولة الإسلامية وقتئذ لم يكن عملية سهلة ولم يكن عملية بهذا الشكل من اليسر الذي نتصوره في دولة مركزية تسيطر حكومتها المركزية على كل أجهزة الدولة وقطاعاتها.

ليس معنى أن معاوية يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أن جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وان هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وإنما يبقى هذا الوالي بعد اخذ البيعة همزة الوصل الحقيقية بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية لضعف مستوى الحكومة المركزية وقتئذ من ناحية، ومن ناحية أخرى لترسخ معاوية في الشام بالخصوص لأن الشام لم تعرف حاكماً مسلماً قبل معاوية وقبل أخي معاوية ومنذ دشن الشام حياته الإسلامية فإنها دشنها على يد أولاد أبي سفيان إذن ترسخ معاوية من الناحية التاريخية والصلاحيات الاستثنائية التي أعطيت له من قبل عمر بن الخطاب في أن ينشئ له سلطنة وملكية في الشام بدعوى أن هذا يكون مظهر عز وجلال للإسلام في مقابل دولة القياصرة.

هذه الصلاحيات الاستثنائية التي أخذها معاوية من عمر بن الخطاب لأجل إنشاء مظاهر مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية في باقي الأقاليم وهذا مما رسخ نوعاً من الانفصالية في الشام عن باقي جسم الدولة الإسلامية.

ثم الصلاحيات التي أخذها بعد هذا من عثمان بن عفان حينما تولى الخلافة، وحينما شعر بأنه قادر على أن يستهتر بشكل مطلق بالأمر والنهي، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وإنما كان هو الأمر والنهي في الشام مما جعل الشام يعيش حالة شبه انفصالية في الواقع وان لم تكن انفصالية بحسب العرف الدستوري للدولة الإسلامية وقتئذ، وهذا مما يعقد الموقف على أمير المؤمنين عليه السلام ويجعل نقطة القوة التي يحصل عليها وهي مجرد البيعة في الأيام الأولى نقطة غير حاسمة بينما إذا أراد بعد هذا أن يعزل معاوية فيمكن معاوية أن يثير - إلى جانب وجوده المادي القوي المترسخ في الشام - الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي.

لماذا يعزلني؟

ماذا صدر مني حتى يعزلني بعد أن اعترف باني حاكم عادل صالح لإدارة شؤون المسلمين؟

ما الذي طرأ وما الذي تجدد؟

مثل هذا الكلام كان بإمكان معاوية أن يوجهه حينئذ إلى الإمام عليه السلام ولم يكن للإمام عليه السلام أن يعطي جواباً مقنعاً للرأي العام الإسلامي وقتئذ على مثل هذه الشبهة. بينما حين يعزله من البداية يعزله على أساس انه يؤمن بعدم صلاحيته، وبأنه لا تتوفر فيه الشروط اللازمة في الحاكم الإسلامي، وهو لا يتحمل مسؤولية وجوده كحاكم، في الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً من قبل عثمان أو من قبل عمر بن الخطاب.

النقطة السابعة: التي لا بد من الالتفات إليها في هذا المجال هي: أن هذه الشبهة

تفترض أن معاوية بن أبي سفيان لو أن الإمام عليه السلام أمضى حاكميته وأمضى ولايته لبايعه ولأعطى نقطة القوة هذه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ولكن لا يوجد في الدلائل والقرائن التي كانت تكتنف موقف الإمام عليه السلام ما يوحي بصحة هذا الافتراض، فإن معاوية لم يعص علياً لأجل أنه عزل عن الولاية، وإنما كان ذلك في أكبر الظن جزءاً من مخطط للمؤامرة طويلة الأمد للأموية على الإسلام، الأموية كانت تريد أن تنهب مكاسب الإسلام بالتدريج هذا النهب الذي عبر عنه بأقصى صورة أبو سفيان حينما ركل قبر حمزة رضوان الله عليه بقدمه وهو يقول: إن هذا الدين الذي قاتلتمونا عليه، هذا الدين الذي بذلتم دماءكم في سبيله، وضحيتم في سبيله قوموا واقعدوا وانظروا كيف أصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا.

كان الشرف الأموي يريد أن يقتنص وان ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات وكانت المرحلة الأولى من هذه المؤامرة ترسخ الأخوين في الشام يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بعد يزيد بن أبي سفيان بعد يزيد. ومحاولة استقطاب معاوية للشام، عن طريق بقاءه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه، ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل عثمان بن عفان هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان.. ولهذا تباطأ عن نصرته عثمان بن عفان كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له أنه يعيش لحظات الخطر ولكن معاوية كان يتلكأ في إنقاذه وكان معاوية - على أقل تقدير - قادراً على أن يؤخر هذا المصير المحتوم بعثمان إلى مدة أطول لو أنه وقف موقفاً إيجابياً حقيقياً في نصرته عثمان بن عفان إلا أنه تلكأ وتلعثم وكان يخطط لكي يبقى هذا التيار كاسحاً ولكي يخرج عثمان بن عفان على يد المسلمين ميتاً ثم بعد هذا لكي يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح ولكي يقول أنا ابن عم الخليفة المقتول ومن المعلوم أن معاوية سوف لن يتاح له في كل يوم، أن يكون ابن عم الخليفة المقتول، فهذه الفرصة الذهبية التي كانت على مستوى الأطماع والآمال الأموية لنهب كل مكاسب الإسلام

هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون أن معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، ولاية الشام كانت مرحلة أما منذ قتل عثمان بدأ معاوية في نهب كل الوجود الإسلامي، وتزعم كل هذا الوجود وكان هذا يعني أن تعيينه أو إبقاءه والياً على الشام سوف لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

وأخيراً؛ لا بد من الالتفات أيضاً إلى شيء آخر: هو أن الوضع الذي كان يعيشه الإمام عليه السلام في ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع، وطبيعة الإمام عليه السلام في ذلك الوضع، لم يكن ليوحي بالاعتقاد بالعجز عن أماكن النجاح لعملية التغيير دون مساومة.

ومن الواضح أن الفكرة الفقهية عن توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، إنما تكون فيما إذا كان هناك توقف بالفعل، بحيث يحرز أن هذا الواجب الأهم لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، والظروف وطبيعية الأشياء وقتئذ لم تكن توحى، ولم تكن تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي كان علي عليه السلام قد اضطلع بمسؤولية إحباطها حينما تولى الحكم لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق على يوم مقتل عثمان قد عبرت تعبيراً معاكساً مضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمون هذه المؤامرة.

هذه المؤامرة صحيح إنها تمتد بجذورها إلى أمد طويل قبل هذا التاريخ، المؤامرة على وجود الأمة الإسلامية فإن الأمة الإسلامية التي سهر عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) على إعطائها اصالتها وشخصيتها وكرامتها ووجودها، ورباها تربية نفسية وأعداها لأن تتحمل مسؤوليتها وأشعرها بمفهوم ولاية الله وولاية ولي الله وخلفها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي تعيش هذه الروحية وتعيش على هذا المستوى عاطفياً ونفسياً، وبدأت جذور المؤامرة للقضاء على وجود الأمة كافة وتحويل الوجود إلى السلطان والحاكم.

أول جذر من جذور هذه المؤامرة أعطي كمفهوم في السقيفة حينما قال احد المتكلمين فيها من ينازعنا سلطان محمد.

والسقيفة وإن كانت بمظهرها اعترافاً بوجود الأمة لأن الأمة تريد أن تتشاور في أمر تعيين الحاكم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكن المفهوم الذي أعطي في السقيفة والذي كتب له أن ينجح يوم السقيفة، وان يمتد بأثره بعد ذلك بعد يوم السقيفة هذه، المفهوم كان بحد ذاته ينكر وجود الأمة.

كان ينظر إلى النبوة على إنها سلطان قريش إنها سلطان عشيرة معينة وهذه العشيرة المعينة هي التي يجب أن تحكم وان تسود، نظرية مالكية العشيرة، التي تتحدى وجود الأمة، وتنكر عليها أصلتها ووجودها وشخصيتها، هذه النظرية طرحت كمفهوم في السقيفة ثم بعد هذا امتدت واتسعت عملياً ونظرياً.

عمر بن الخطاب كان أيضاً يعمق بشكل آخر هذا المفهوم.

في مرة من المرات سمع عمر بن الخطاب أن المسلمين يتحلقون حلقاتاً حلقاتاً، ويتكلمون في أن أمير المؤمنين إذا أصيب بشيء فمن يحكم المسلمين بعد عمر؟ المسلمون أناس يحملون هم التجربة هم المجتمع هم الأمة تطبيقاً لفكرة: إن كل مسلم يحمل الهموم الكبيرة يفكرون في أن عمر بن الخطاب حينما يموت، من الذي يحكم المسلمين؟

هذا تعبير عن وجود الأمة في الميدان.

انزعج عمر بن الخطاب جداً لهذا التعبير عن وجود الأمة. لأنه يعرف أن وجود الأمة في الميدان معناه وجود علي عليه السلام في الميدان، معناه وجود الخط المعارض في الميدان، كلما نمت الأمة كلما تأصل وجودها أكثر واكتسبت أراقتها ووعيتها بدرجة أعمق كلما تكشفت المؤامرة أكثر فأكثر وامتدت أكثر فأكثر.

أصبحت العشيرة تحكم وتقول بكل صراحة بان المال مالنا والخراج خراجنا والأرض أرضنا إن شئنا أعطينا للآخرين وان شئنا حرمانهم.

لكن هذا كلام يقال خارج نطاق الدستور، أما في نطاق الدستور كانت لا تزال الصيغة الإسلامية وهي أن المال مال الله والناس المسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيهم وعربيهم وبين عربيهم وأعجميهم فيما يتعلق بحقوق المواطنة بين أي مسلم وأي مسلم آخر، هذه كانت الصيغة الدستورية حتى في عهد عثمان .

لكن هذا الوالي الأموي المتعطرس أو ذاك الأموي المتعجرف أو هذا الأموي المستعجل والمتهور كان ينطق بواقع آخر لا يعبر عن الدستور حيث ينظر إلى الأمة على إنها قطيع يتحكم فيه كيف يشاء، وعلى إن أرض الإسلام مزرعة ينتفع بخيراتها من يشاء هو ويحرم من خيراتها من شاء ولكن منطق الدستور الإسلامي كان هو المتجذر في نفوس أبناء الأمة هذا المنطق هو إن أرض السواد ملك الأمة وأن الأمة هي صاحبة الرأي فهي القائدة وهي سيده الموقف وهذا يعني إن المؤامرة لا تزال غير ناجحة بالرغم من الجذور بالرغم من المقدمات بالرغم من الإرهاصات النظرية والعملية .

بالرغم من كل ذلك المؤامرة لم تكن ناجحة الأمة كانت هي الأمة، الأمة كانت تأتي إلى عثمان وتقول: لا نريد هذا الوالي لان هذا الوالي منحرف، منحرف لا يطبق كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) ولم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يجيب بصراحة ويقول ليس لك إرادة، هذا الوالي يمثلني أنا، وأنا الحاكم، أنا الحاكم المطلق لم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يقول هذا وإنما كان يعتذر ويقل ويرجع وهكذا كان يناور مع الأمة يشتغل بمناورات من هذا القبيل مع هذه الأمة التي بدأت تحس بالخطر على وجودها فعبرت الأمة تعبيراً ثورياً عن وجودها وعن كرامتها فقتلت هذا الخليفة وبعدها اتجهت طبيعياً إلى الإمام عليه السلام لكي يعبر من جديد عن وجودها لكي يحبط المؤامرة لكي يعيد إلى هذه الأمة كل كرامتها خارج نطاق الدستور وداخل نطاق الدستور لكي يقضي على كل انحراف خرج به الحكام عن الدستور عن الصيغة الإسلامية للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها لا تزال الأمة هي الأمة لا تزال بحسب

مظهرها على اقل تقدير هي تلك الأمة التي قتلت الحاكم في سبيل الحفاظ على وجودها وعلي عليه السلام صاحب الطاقات الكبيرة هو الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه أن يصفي عملية الانحراف.

فالظروف والملاسات لم تكن تؤدي إلى يأس... كانت تؤدي إلى أمل وما وقع خارجاً خلال هذه الأربع سنوات كان يؤكد هذا الأمل فان علياً عليه السلام لولا معاكسات جانبية لم تكن تنبع من حقيقة المشاكل الكبرى في المجتمع، لاستطاع أن يسيطر على الموقف.

لولا مسألة التحكيم مثلاً، لولا أن شعاراً معيناً طرح من قبل معاوية هذا الشعار الذي انعكس بفهم خاطئ عند جماعة معينة في جيش الإمام عليه السلام لولا هذا لكان بينه وبين قتل معاوية وتصفيته بضعة أمتار.

إذن كان الأمل في أن علياً عليه السلام يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للامة وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً ولهذا لم يكن هناك مجوز لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات.

ولكن هذا الأمل قد خاب كما قلنا. انتهى آخر أمل حقيقي في هذه التصفية حينما خر هذا الإمام عليه السلام العظيم صريعاً في مسجده صلوات الله عليه وانتهى آخر أمل في هذه التصفية وقدر للمؤامرة على وجود الأمة أن تنجح وان تؤتي مفعولها كاملاً.

غير إن الإمام عليه السلام حينما فتح عينيه في تلك اللحظة العصبية ورأى الحسن عليه السلام وهو يبكي ويشعر ويحس ويدرك بان وفاة أبيه هي وفاة لكل هذه الآمال أراد أن ينهه إلى إن الخط لا يزال باقياً والى أن التكليف لا يزال مستمراً وان نجاح المؤامرة لا يعني أن نلقي السلاح.

نعم المؤامرة يا ولدي نجحت ولهذا سوف تشردون وسوف تقتلون ولكن هذا لا يعني أن المعركة انتهت يجب أن تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب أن يقاوم أخوك حتى

يقتل بالسيف شهيداً ولا بد أن يستمر الخط حتى بعد أن سرق من الأمة وجودها لان محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت في الأمة فسوف يبقى هناك نفس في الأمة سوف يبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميع والذوبان.

الأمة حينما تتنازل عن هذه الإرادة والشخصية لجبار من الجبابرة حينئذ تكون عرضة للذوبان والتميع في أتون أي فرعون من الفراعنة.

لكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار هذه المحاولة التي يحاولها خط علي عليه السلام ومدرسة علي عليه السلام والشهداء والصديقون من أبناء علي عليه السلام وشيعته إذا بقيت هذه المحاولة فسوف يبقى مع هذه المحاولة أمل في أن تسترجع الأمة وجودها وعلى اقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً أنياً باستمرار وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة ذلك الحاكم وفي إطار ذلك الحاكم.

وهذا ما وقع.

قصة استشهاد عليه السلام

قال أنس بن مالك: مرض عليٌّ فدخلت عليه، وعنده أبو بكر وعمر، فجلست عنده، فأتاه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَنظَرَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا نَرَاهُ إِلَّا مَيِّتًا. فَقَالَ: ((لَنْ يَمُوتَ هَذَا الْآنَ، وَلَنْ يَمُوتَ حَتَّى يُمَلَأَ غِيضًا، وَلَنْ يَمُوتَ إِلَّا مَقْتُولًا))^(١).

وَمِمَّا رَوَاهُ أَبُو زَيْدٍ الْأَحْوَلُ عَنِ الْأَجْلَحِ، عَنْ أَشْيَاحِ كَنْدَةَ، قَالَ: سَمِعْتُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً يَقُولُونَ: سَمِعْنَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ: ((مَا يَمْنَعُ أَشْقَاهَا أَنْ يَخْضِبَهَا مِنْ فَوْقِهَا بَدْمٍ))؟ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

وَاشْتَهَرَتِ الرِّوَايَةُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ، قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ رَمَضَانَ يَتَعَشَّى لَيْلَةً عِنْدَ الْحَسَنِ، وَلَيْلَةً عَنِ الْحُسَيْنِ، وَلَيْلَةً عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، زَوْجِ زَيْنَبِ بِنْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِ لُحُومٍ، فَقِيلَ لَهُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ((يَأْتِينِي أَمْرُ اللَّهِ وَأَنَا خَمِيصٌ، إِنَّهَا هِيَ لَيْلَةٌ أَوْ لَيْلَتَانِ)). فَلَمْ تَمْضِ لَيْلَةٌ حَتَّى قُتِلَ^(٣).

سبب قتله^(٤):

وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِ أَنَّ التَّيَّارَ الْإِنْقِلَابِيَّ بِقِيَادَةِ مَعَاوِيَةَ رَتَبَ لِعَمَلِيَّةِ اغْتِيَالِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يَدِ أَحَدِ الْخَوَارِجِ (تَكْفِيرِيوَا ذَلِكَ الْعَصْرِ) وَيَدْعَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلْجَمٍ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ فَاجْتَمَعَ بِمَكَّةَ هُوَ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ التَّكْفِيرِيِّينَ الْخَوَارِجِ، فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ

(١) المستدرک ٣/ ١٣٩، إعلام الوری ١/ ٣١٠، الكامل فی التاريخ ٣/ ٢٥٤ باختلافٍ یسیر.

(٢) الإرشاد ١/ ١٣، وانظر الكامل فی التاريخ ٣/ ٢٥٤.

(٣) الكامل فی التاريخ ٣/ ٢٥٤، الإرشاد ١/ ١٤ - ١٧، إعلام الوری ١/ ٣٠٩، أسد الغابة ٤/ ٣٥.

(٤) أنظر قصة قتله عليه السلام فی سیر أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٤ وما بعدها، الكامل فی التاريخ ٣/ ٢٥٤ - ٢٥٨، إعلام الوری.

الناس وعابوا عمل ولاتهم، ثُمَّ ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد!

وقال عبدالرحمن بن ملجم المرادي - لعنه الله -: أنا أكفيكم علياً. وقال البرك بن عبدالله التميمي الصُّريمي: أنا أكفيكم معاوية. أمّا عمرو بن بكر التميمي، فقال: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وتعاهدوا على ذلك وأخذوا سيوفهم فسمّوها، وأنعدوا لسبع عشرة من رمضان، وقصد كلُّ منهم الجهة التي يريد.

فأتى ابن ملجم الكوفة كاتماً أمره، فبينما هو هناك إذ زار أحداً من أصحابه من تيم الرباب، فصادف عنده قطام بنت الأخضر التيمية.. وكان أمير المؤمنين عليه السلام قتل أباهما وأخاها بالنهر وان، فلمّا رآها أخذت قلبه فخطبها، فأجابته إلى ذلك على أن يُصدّقها: ثلاثة آلاف وعبداً وقينةً، وقتل عليّ!!

فقال لها: والله، ما جاء بي لإقتل عليّ، فلك ما سألت!

قالت: سأطلب لك من يشدُّ ظهرك ويساعدك، وبعثت إلى رجلٍ من قومها اسمه: وردان وكلمته فأجابها..

وأخذ ابن ملجم سيفه ومعه شبيب بن بَجْرَة ووردان، وجلسوا مقابل السدّة التي يخرج منها عليّ عليه السلام للصلاة.. فضربه ابن ملجم أشقى الآخرين لعنه الله، ليلة تسعة عشر من شهر رمضان، سنة أربعين من الهجرة، في المسجد الأعظم بالكوفة، ضربه بالسيف المسموم على أمِّ رأسه.

فمكث عليه السلام يوم التاسع عشر وليلة العشرين ويومها، وليلة الحادي والعشرين إلى نحو الثلث من الليل ثُمَّ قضى نحبه شهيداً محتسباً صابراً وقد ملئ قلبه غيضاً..

بتلك الضربة الخبيثة التي ارتجّ لها المسجد الأعظم، دوى صوت الإمام المظلوم بندا: ((فزت وربّ الكعبة)) لم يتلكأ ولم يتلعثم في تلك اللحظات التي امتحن قلبه، وهو القائل ((والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)) هذا الإمام العظيم الذي طوى صفحات ماضيه القاسية بدمائه الزكية الطاهرة، أدرك في لحظاته الأخيرة أنّه أمهى خطّ

الجهاد والمحنة، وكان أسعد المخلوقين في هذه اللحظات الأخيرة، حيث سيغادر الكفر والنفاق والغش والتعسف.. سيترك الدنيا لمن يطلبها؛ ليلحق بأخيه وابن عمه ورفيق دربه في الجهاد في سبيل الله صابراً مظلوماً، فإنَّ الله وإنَّا إليه راجعون..

ذكرى أشأم ليلة بعد يوم توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسَلَّمَ

فاليوم الذي توفي فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان اليوم الذي خلف فيه النبي (صلى الله عليه وآله) تجربته الإسلامية بعد أن قام بدوره في تبليغ الرسالة وتحديد من يخلفه ولكن المؤامرات التي أتت على هذه التجربة بعد برهة من الزمن واليوم الذي اغتيل فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان اليوم الذي قضى على آخر أمله في إعادة خط تلك التجربة الصحيحة، هذا الأمل الذي كان لا يزال يعيش في نفوس المسلمين الواعين متجسداً في شخص هذا الرجل العظيم، الذي عاش منذ اللحظة الأولى هموم الدعوة وآلامها واكتوى بناها وشارك في بنائها لبنة لبنة.... وأقام صرحها مع أستاذه (صلى الله عليه وآله) مدماكاً فوق مدماك.

هذا الرجل الذي كان يعبر عن كل هذه المراحل بكل همومها.. ومشاكلها وآلامها.. هذا الرجل هو الذي كان يمثل هذا الأمل الوحيد الذي بقي للمسلمين الواعين في أن تسترجع التجربة خطها الواضح الصريح وأسلوبها النبوي المستقيم.... حيث أن الانحراف في أعماق هذه التجربة كان قد طغى وتجر واتسع بحيث لم يكن هناك أي أمل في أن يقهر هذا الانحراف.... اللهم إلا على يد رجل واحد كعلي بن أبي طالب عليه السلام ولهذا كانت حادثة اغتيال هذا الإمام العظيم.... حينها خر صريعاً في مثل هذه الليلة تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي في قيام مجتمع إسلامي صحيح على وجه الأرض إلى يوم غير معلوم.

كان هذا الاغتيال المشؤوم عقيب حكم مارسه الإمام عليه السلام طيلة أربع أو خمس سنوات تقريباً حيث بدأ منذ اللحظة الأولى لتسلم زمام الحكم عقلية التغيير الحقيقية

في كيان هذه التجربة المنحرفة وواصل سعيه في سبيل إنجاح عملية التغيير، وخر صريعاً بالمسجد وهو في قمة هذه المحاولة أو في آخر محاولة إنجاح عملية التغيير وتصفية الانحراف الذي كان قد ترسخ في جسم المجتمع الإسلامي متمثلاً في معسكر منفصل عن الدولة الإسلامية الأم.

خر صريعاً في سبيل إقامة عدل الله على الأرض، كان غير مستعد بأي شكل من الأشكال وفي أي صيغة من الصيغ لتقبل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية هذا الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأمة التي كان يرى بكل حرقة وألم إنها تهدر كرامتها وتباع بأرخص ثمن.

ما الذي أوصل الإمام إلى أن يسقط بسيف محسوب على الأمة؟:

يقول الشهيد القائد - رضوان الله عليه - وهو يتحدث عن هذه الذكرى الأليمة:

(كيف لا تكون ذكرى حزينة أن نرى ذلك البطل، ذلك العظيم، ذلك العَلم يسقط شهيداً. هل كان سقوطه ذلك في مواجهة مع أعداء الإسلام فكان السيف الذي قُتِلَ به من خارج هذه الأمة؟ إنه وللأسف الشديد، والذي يدل على الشقاء الذي وقعت فيه هذه الأمة أن علياً (صلوات الله عليه) يسقط شهيداً في عاصمة دولته، في باب محرابه، في فناء مسجده، وسط هذه الأمة، وبسيف محسوب على هذه الأمة، وبمؤامرات من قبل من أصبح فيما بعد خليفة يحكم هذه الأمة، والكل تحت عنوان: إسلام ومسلمين.

إن هذا يدل على ماذا؟ يدل على انحراف عن الخط السوي، عن الصراط المستقيم؛ لأن من المعلوم أن دعوة رسول الله صلوات الله عليه وآله، أن رسالته، أن تربيته، أن منهجيته كانت بالشكل الذي تخلق ساحة للعظماء، تخلق أمناً للعظماء، تخلق التفافاً تحت رايات العظماء، لا أن يصير الحال إلى أن نرى أولئك العظماء يتساقطون واحداً تلو الآخر داخل هذه الساحة. فعلي يسقط شهيداً، والحسن بعده يسقط شهيداً، والحسين بعده يسقط شهيداً، وزيد بعده يسقط شهيداً وهكذا واحداً تلو الآخر!.

ما الذي حصل؟ إن لم يكن في هذا ما يدل على أنه وقع انحراف خطير فلا أدري ما هو الشيء الذي يمكن أن يدل بعد هذا.

الذي يتأمل كتاب الله يجده يأمر الأمة، يأمر المسلمين أن يكونوا مع الصادقين، فلماذا أصبح الصادقون يتساقطون واحداً تلو الآخر؟! ولماذا أصبحت تلك الأمة التي خُوِّطَبَتْ بأن تكون مع الصادقين تعتدي على هؤلاء، وفي نفس الوقت التفوا مع الكاذبين!. يسقط علي شهيداً وتلتف الأمة بعده - رغبة ورهبة - تحت راية معاوية، وفي صف معاوية!.

هل كان ذلك وليد تلك اللحظة؟ وليد ذلك الشهر الذي سقط فيه الإمام علي (صلوات الله عليه) شهيداً؟. لا. إنه الانحراف الذي بدأ، والذي يرى البعض بل ربما الكثير يرون في تلك البداية وكأنها بداية لا تشكل أية خطورة، لكن شاعراً كـ[الهبل] مرهف الحس، عالي الوعي، راسخ الإيمان، يمتلك قدرة على استقراء الأحداث، وتسلسل تبعاتها، يقول في كلمة صريحة في بيت صريح:

وكل مُصَابٍ نَالَ آلَ مُحَمَّدٍ فليس سوى يومِ السَّقِيْفَةِ

عندما نرى الإمام علياً (صلوات الله عليه) يسقط شهيداً لا يكفي أن نحزن، لا يكفي أن نبكي، لا يكفي أن نتألم، بل لا بد أن نأخذ العبرة، أن نتساءل: لماذا نرى الصادقين يسقطون شهداء داخل هذه الأمة؟! ولماذا رأينا فيما بعد وعلى امتداد التاريخ الكاذبين الظالمين الطغاة، المحرفين للدين، المنتهكين لحرمان الله هم من يحكمون هذه الأمة؟! وباسم رسالة هذه الأمة [الإسلام]! وباسم نبي هذه الأمة [أمير المؤمنين، خليفة رسول رب العالمين]، وعناوين من هذه؟!

سنظل نحزن نحن وغيرنا، ونظل نبكي نحن وغيرنا ما لم تكن نظرتنا إلى الأحداث على هذا النحو، وسنظل نشاهد الأحداث المريرة، ونتألم لحادث بعينه، للفترة التي هو فيها، دون أن نأخذ العبر، دون أن نأخذ الدروس، إن هذا يعتبر خللاً كبيراً.

لا يمكن للأمة أن تعرف كيف ترسم طريقها، لا يمكن للأمة أن تعرف كيف

تسلك المنهج الذي تمثل في سلوكه الالتفاف مع الصادقين، الإنضواء تحت رايات أعلام الدين، لا بد من استقراء الأحداث، لا بد من معرفة الأسباب، لا بد من معرفة الخلفيات.

وهذه قضية ليست جديدة، نحن عندما نربط سقوط الإمام علي عليه السلام بحادثة السقيفة على الرغم من قربها فليست قضية مستبعدة، فنحن نسمع اليوم من يقولون عن اليهود: إن الذي جعل اليهود على هذا النحو: يتعاملون مع الأمة بهذه القسوة هو ثقافتهم، تأثر بثقافتهم، تلك الثقافة التي عمرها قرون طويلة قد لا تقل عن ثلاثة آلاف سنة). ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

كيف كان استقبال علي (صلوات الله عليه) للشهادة؟:

قد تحدثنا عن ما الذي أوصل الإمام علياً (صلوات الله عليه) إلى أن نراه يُخَرُّ صريعاً في وسط أمة مسلمة، وداخل بيت من بيوت الله، فكيف كان استقباله للشهادة هو؟. لنعرف أن الإمام علياً (صلوات الله عليه) كان يرى أن مقام الشهادة مقام عظيم، وأنها أمنيّة كان يطلبها، أنها أمنيّة كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها هل سيحصل عليها؟، ومتى سيحصل عليها؟.

استقبلها الإمام علي عليه السلام استقبال من يعرف كرامة الشهيد، عظمة الشهيد. فعندما خرَّ صريعاً بعد تلك الضربة قال (صلوات الله عليه): ((فُزْتُ ورب الكعبة)).

بينما نرى التاريخ يحكي عن أشخاص آخرين ممن سبقوه أن أحدهم تمنى عند احتضاره أنه كان بَعَرَاتٍ لخرّوف تتساقط هنا وهناك، لكن علياً (صلوات الله عليه) قال: ((فزت ورب الكعبة))؛ لأنه على يقين من سلامة دينه، على يقين من صحة موقفه، على يقين من صحة نهجه، على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد منح الشهداء، وأعطى الشهداء الكرامة التي تجعل مثله - على الرغم من عباداته الكثيرة - يصرخ بهذه الكلمة العظيمة مقسماً: ((فزت ورب الكعبة)).

ما أحوجنا إلى أن نستلهم من علي (صلوات الله عليه) الصبر على الحق، الصمود في مواجهة الباطل، استقبال العناء والشدائد بصدور رَحْبَةٍ، بعزائم قوية، بإرادات لا تُقهر، برؤية واضحة، ببصيرة عالية فنكون ممن يحمل شعور علي حتى في لحظة الاستشهاد، في لحظة اغتياله يرى نفسه مسروراً ((فزت وربّ الكعبة)). ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

وقيل: كان عمره يوم استشهد ثلاثاً وستين سنةً، وتولّى غسله وتكفينه ابنه الحسن والحسين بأمره، وحمله إلى الغريين من نجف الكوفة، ودفناه هناك ليلاً^(١).

كيف كانت مشاعر الإمام علي حين بشره الرسول بالشهادة؟:

يقول الشهيد القائد:

(لقد كان الإمام علي على علم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أن أخبره بأن لحيته ستُخَضَّب من دم رأسه.

هذا الخبر لو يأتي لشخص منا - ربما - قد يكون مزعجاً، لو يأتي هذا الخبر لشخص منا قد ينظر إلى ما حوله، ينظر إلى أسرته، إلى أولاده، إلى ممتلكاته إلى مظاهر الحياة من حوله فيبدو متأسفاً ويودع نفسه حيناً بعد حين ويتنظر متى يخضب دم رأسه لحيته، لكن عليا كان يهيمه شيء واحد.

كيف أجاب علي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: ((يا رسول الله أفي سلامة من ديني؟)) أفي سلامة من ديني يحصل هذا؟ قال: ((نعم)). قال: ((إذاً لا أبا لي)) مادام أن ديني سليماً.

الإمام علي عندما يقول بهذه العبارة يعطينا إشارة مهمة جداً، وكأنه يلحظ من خلال ما يسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيحصل ضلال، يحصل انحراف، تحصل فتن. يهيم أي إنسان حريص على سلامة نفسه أن يبحث عن سلامة دينه، وأن يحرص على سلامة دينه.

(١) إعلام الوري ٣/١٢٠، الإرشاد ١/١٠، وانظر الكامل في التاريخ ٣/٢٥٨.

لو كانت الأمور عند الإمام علي عليه السلام، في رؤيته - يوم قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الكلام - هو أن هذه الرسالة ستمشي بشكل طبيعي، وسيكون الناس كلهم هكذا بشكل صحيح يسرون جيلاً بعد جيل لما سأل الرسول: ((أفي سلامة من ديني؟)).
 ناهيك عما إذا كان قد قال له: أن الذي سيقتله هو أشقى هذه الأمة، أي من هذه الأمة، وهو من يجلب الشقاء على هذه الأمة، وشبهه بعاقرة ناقة ثمود الذي جلب الشقاء على تلك الأمة فجعلها تستحق عذاباً شديداً من الله، استأصل تلك الأمة بأكملها.
 ((أفي سلامة من ديني يا رسول الله؟)) ما أحوجنا إلى هذه المشاعر!

تجد الإمام علياً تأكيداً أيضاً بأنه فعلاً كان قريناً للقرآن، وما يزال قريناً للقرآن، أن هذا هو منطق القرآن نفسه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) (١) أليس هذا توجيه يحث كل إنسان منا على أن يكون حريصاً على أن يسلم له دينه؟ وأن يكون كل ما يهيمه هو أن يسلم له دينه، على الرغم من كل ما يواجهه، على الرغم من أي شيء يمكن أن يواجهه حتى وإن كان خيراً مؤكداً على نحو ما جاء لعلي (صلوات الله عليه): ((ستخضب هذه من هذا)) وأشار إلى لحيته ورأسه؟.

ومن خلال هذا نعرف موقعنا نحن من القرآن ومن قرين القرآن، عندما نجد الكثير منا، الغالبية العظمى منا يضحى بدينه من أجل احتمال أن تسلم له دنياه، احتمال أن تسلم له قدماه ناهيك عن رأسه، أو لاحتمال أن لا يبيت ليلة في سجن من السجون، لاحتمال أن لا يضحى بمبلغ من المال في سبيل إعلاء كلمة ربه، أليس كثير من الناس على هذا النحو؟.

كأننا نقول للقرآن نفسه عندما يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ﴾ (٢) أفي سلامة من ديانا يا قرآن الله؟! عندما يقول: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٣) حسنا، لكن هل في سلامة من ديانا ورؤوسنا وأقدامنا وأيدينا يا كتاب الله؟!

(١) سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢.

(٢) سورة الصف: الآية/ ١٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية/ ١٠٤.

إن كل إنسان يتولى علينا، إن كل إنسان مصدق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبكتاب الله يجب أن تكون مشاعره على هذا النحو الذي كان يسيطر على مشاعر علي عليه السلام: ((أفي سلامة من ديني يا رسول الله؟)). قال: ((نعم)) قال: ((إذا لا أبالي)).

ولقد كان يقول: ((والله لا أبالي أوقعت على الموت أو وقع الموت علي)) إن كل شيء يهيمه هو أن يكون هناك السلامة لدينه، فلتخضب دماء رأسه لحيته، ولتقطع إرباً، وليكن ما كان ما دام دينه سالماً له.

وهذه هي الرؤية الصحيحة، هذه هي السلامة لمن يبحث عن السلامة، الإنسان لا يمكن أن يسلم إذا لم يسلم له دينه، لا في دنياه ولا في آخرته، ما الذي جعلنا نُظلم؟ ما الذي جعلنا نُقهر ونحن ملايين؟ نمتلك الإمكانيات الكبيرة، نمتلك الجيوش، نمتلك الثروات الضخمة والهائلة في باطن الأرض وظاهرها، نمتلك رقعة استراتيجية مهمة؟ لأن ديننا لم يسلم لنا، فوجدنا أنفسنا لم نسلم من الذل، لم نسلم من القهر، لم نسلم من النهب.

أصبحت هذه الأمة ذليلة، أصبحت مستضعفة، أصبحت مقهورة؛ لأنها لم تفكر تفكير قرين القرآن ((أفي سلامة من ديني؟))، وحينها عندما تنطلق لتبحث عن السلامة لنفسك وأنت لا تفكر في أن يسلم لك دينك فلن تسلم نفسك، لن يسلم عرضك، لن تسلم كرامتك، وفي الأخير لن تسلم أنت في الآخرة يوم تلقى الله، لن تسلم سوء الحساب، لن تسلم نار جهنم). ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام

إلى هنا انتهى الكتاب، نرجو من الله سبحانه وتعالى أن نكون قد وفقنا لإيصال ولو النزر اليسير من تاريخ هذا العملاق الشامخ أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين، اللهم احشرنا في زمرة وابعده عن أتباعه وشيعته، اللهم صل وبارك على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

فهرس المحتويات

٢	المقدمة
٥	الباب الأول: علي <small>عليه السلام</small> مع رسول الله <small>صلى الله عليه وآله</small> الفصل الأول
٧	الفصل الأول: قبل البعث
٧	نسبه الشريف:
٩	الشجرة المباركة:
٩	مكانة أسرته قبل البعثة:
١٠	من مآثر آبائه وأجداده <small>عليهم السلام</small> :
١١	كان آباء الإمام علي وأجداده على ملة إبراهيم <small>عليه السلام</small> :
١٢	جده عبدالمطلب:
١٢	أبوه أبو طالب:
١٤	أمه:
١٥	إخوته:
١٥	وليد الكعبة:
١٦	هيئته:
١٧	نشأته والإعداد النبوي الخاص:
٢٠	الفصل الثاني: بعد البعثة في مكة
٢٠	علي أول من أسلم
٢١	وأندر عشيرتك الأقرين
٢٣	شعب أبي طالب:
٢٦	مؤامرة قريش في دار الندوة:
٢٨	أول فدائي في الإسلام
٣٠	علي والركب الفاطمي إلى المدينة:
٣٢	الفصل الثالث: بعد الهجرة النبوية
٤٦	❖ غزوة أحد:
٥٤	❖ وقعة بني النضير:
٥٥	❖ وقعة الأحزاب:
٦٢	❖ وقعة بني قريظة:

- ٦٣..... عمرة الحديبية:
- ٦٥..... ❖ وقعة خيبر:
- ٦٨..... ❖ فتح مكة:
- ٧١..... ❖ وقعة حنين:
- ٧٣..... ❖ وفي تبوك:
- ٧٤..... عليٌّ يبلغ عن رسول الله ﷺ
- ٧٦..... علي ﷺ في اليمن
- ٨٠..... في طريق العودة من حجة الوداع

الباب الثاني: مكانته وبعض مميزاته ووصاياه الإمام علي ﷺ..... ٨٧

- ٨٩..... صفات تمتع بها الإمام علي ﷺ
- ٩٩..... الامتداد الحقيقي للإسلام
- ١٠٠..... علي هو الشاهد لعظمة رسول الله ودينه
- ١٠٣..... الإمام علي القائد والقدوة
- ١٠٤..... كان رجلاً متميزاً
- ١٠٥..... تميزه في جهاده
- ١٠٧..... مبدئية الإمام علي ﷺ
- ١٠٧..... - مبدئية الإمام علي مع خصومه:
- ١٠٧..... - مع طلحة والزبير:
- ١٠٧..... - مع معاوية بن أبي سفيان:
- ١٠٨..... - مع عائشة:
- ١٠٩..... [معرفته × بعظمة وفضل الجهاد في سبيل الله]
- ١١٠..... من وصايا الإمام المهمة
- ١١٢..... باب مدينة علم الرسول
- ١١٣..... العطاء المعرفي للإمام:
- ١١٤..... عودة أبي بكر وعمر وعثمان إليه في بعض الأمور والمعارف:
- ١١٥..... عمر يستشير الإمام:

السيرة العلوية..... فهرس المحتويات

- من روائع الإمام..... ١١٧
تميزه في الرحمة والإحسان..... ١١٩
تميزه في عبادته..... ١٢٠
تميزه في عدله..... ١٢٢
أمير المؤمنين يجسد العدل قولاً وعملاً..... ١٢٦

الباب الثالث: مع رسول الله في اللحظات الأخيرة وما بعدها..... ١٢٩

- الحدث الأول - سرية أسامة بن زيد -..... ١٣١
مناقشة النصوص:..... ١٣٥
الحدث الثاني - رزية الخميس -..... ١٣٦
❖ النص الأول:..... ١٣٦
❖ النص الثاني:..... ١٣٦
❖ النص الثالث:..... ١٣٧
❖ النص الرابع:..... ١٣٧
❖ النص الأخير:..... ١٣٧
مناقشة النصوص:..... ١٣٨

الحدث الثالث - سقيفة بني ساعدة -..... ١٤٠

- قصة السقيفة:..... ١٤٠
مواقف المعارضة الثابت والمتحول..... ١٤٦
١ - المعارضة الأنصارية:..... ١٤٦
٢ - اعتراض أهل البيت و بعض الصحابة:..... ١٤٩
٣ - دور العباس: محاولة الحكم كسر تحالف جبهة الحق:..... ١٥٣
٤ - دور فاطمة الزهراء:..... ١٥٤
موقف فاطمة عليها السلام من البيعة:..... ١٥٦

- وتستمر معاناة الإمام:..... ١٥٨
وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام..... ١٦١

مواقف بني هاشم..... ١٦٧

- ابن عباس في حوار مع عمر:..... ١٦٧
الإمام علي بن أبي طالب: الثابت والمتحولات..... ١٧١
مناقشة نصوص السقيفة وبعض نتائجها..... ١٧٤
- بيعة أبي بكر كانت قلنة:..... ١٧٤
- الأنصار كانوا أول من دفع ثمن التقریط:..... ١٧٦
استكمال مناقشة نصوص السقيفة:..... ١٧٦

- ١٧٨..... الهاشميون:
- ١٨٠..... العباس والإمام:
- ١٨١..... متى ظهرت بوادر التخلي؟
- ١٨٤..... اللامبالاة والبساطة وخطورتها
- الحدث الرابع - خلافة أبي بكر -** ١٩٠.....
- ١٩٠..... من كان الخليفة الفعلي؟:
- ١٩٢..... حروب الردة:
- ١٩٥..... أبو بكر يستشير الإمام علي عليه السلام في حرب الروم:
- ٢٠٢..... رجوع أبي بكر إليه في الأحكام الشرعية:
- ٢٠٣..... نسف مبدأ الشورى
- ٢٠٧..... كيف صار عمر خليفة؟
- ٢٠٨..... قصّة الاستخلاف:
- الحدث الخامس - خلافة عثمان بن عفان -** ٢٠٩.....
- ٢١٠..... حكاية الشورى:
- ٢١١..... الهرمزان.. وما بعده:
- ٢١٦..... بين الحقيقة والوهم!!:
- ٢١٧..... عثمان بن عفان:
- ٢١٨..... مروان بن الحكم:
- ٢١٩..... الوليد بن عقبة:
- ٢٢٠..... بنات عثمان وثروته:
- ٢٢٠..... سببان بارزان للثورة:
- ٢٢٨..... مقتل عثمان:
- الباب الرابع: خلافة أمير المؤمنين (ع).** ٢٢٩.....
- ٢٣٠..... تولي أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة وسياسته في الإصلاح.
- ٢٣٣..... سياسته الإصلاحية:
- ٢٣٦..... خطوات مشروعه الإصلاحي.....
- ❖ أولاً: إلغاء التمايز الطبقي: ٢٣٦.....
- ❖ ثانياً: سياسته في الحكم: ٢٣٩.....
- ❖ ثالثاً: استبدال الولاة: ٢٤١.....
- ٢٤٤..... مسير الإمام إلى البصرة ووقعة الجمل
- ٢٤٧..... معركة الجمل
- ٢٤٧..... الفئة الباغية

٢٥٢.....	معركة الجمل
٢٦٠.....	حرب الجمل... وعلاقتها بمقتل عثمان!
٢٦٠.....	١- عائشة:
٢٦١.....	٢- طلحة بن عبيد الله:
٢٦٢.....	٣- الزبير بن العوام:
٢٦٣.....	٤- الإمام علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> :
٢٦٤.....	دوافع الناكثين.....
٢٦٧.....	الأشتر النخعي.....
٢٦٨.....	عبد الله بن سبأ: خرافية الشخص وأزلية الرمز!
٢٦٩.....	مناقشة الحقيقة التاريخية لابن سبأ:
٢٧١.....	أثر الانحراف بعد موت النبي في خلق العراقيل في وجه الإمام
٢٧١.....	الإمام يوضح حقيقة ما حصل:
٢٧٩.....	حال الأمة التي قادها الإمام علي <small>عليه السلام</small>
٢٨٠.....	علي في طريقه إلى الشام، وحرب صفين:
٢٨٩.....	حرب النهروان.....
٢٩١.....	الإيمان الناقص وجنابته على الأمة.....
٢٩٨.....	لماذا اختار الإمام القتال وترك أنصاف الحلول؟
٣١٥.....	قصة استشهاده ×
٣١٥.....	سبب قتله ^٥ :
٣١٧.....	ذكرى أشأم ليلة بعد يوم توفي فيه رسول الله <small>صلى الله عليه وآله وسلم</small> :
٣١٨.....	ما الذي أوصل الإمام إلى أن يسقط بسيف محسوب على الأمة؟:
٣٢٠.....	كيف كان استقبال علي (صلوات الله عليه) للشهادة؟:
٣٢١.....	كيف كانت مشاعر الإمام علي حين بشره الرسول بالشهادة؟:
٣٢٤.....	فهرس المحتويات.....